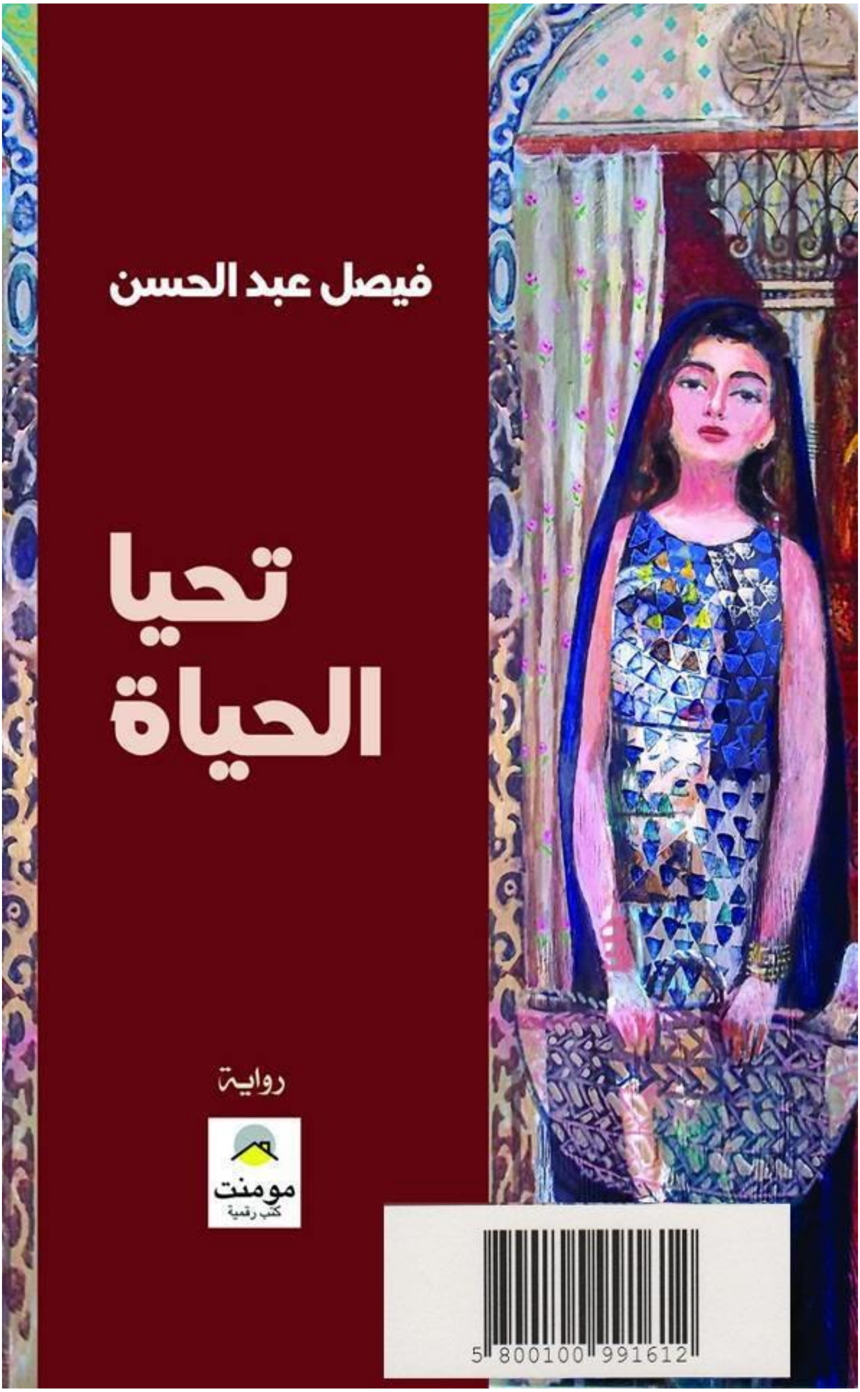
فيصل عبد الحسن
تحيا
الحياة
روايـة
مومنت
كتب رقمية
5 800100 991612

تحيا الحياة

فيصل عبد الحسن

رواية

مومنت
كتب رقمية

تحيا الحياة

المؤلف

فيصل عبد الحسن

رواية

مومنت
كتب رقمية

تحيا الحياة
رواية
فيصل عبد الحسن
مؤلف من العراق
كل الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى لندن 2013
الرقم الدولي: ISBN 5800100 991612
momentdigibooks@outlook.com
www.momentdigibooks.com
www.facebook.com/momentdigibooksltd
Copyright©2013 by
Moment Digibooks Limited - United Kingdom All rights reserved. This book or any part of it may not be reproduced or used in any way without the express written permission of the author except for the use of brief quotations in a book or scholarly journal review. The views and opinions expressed by the author do not represent the views, beliefs or opinions of Moment Digibooks Enterprises and its employees.
First Printing: London 2013
Tel=00447715601634
Fax=00441279210199
Skype =hikmet19
www.momentdigibooks.com
momentdigibooks@outlook.com
www.facebook.com/MomentDigibooksLtd
Printed and bound in United Kingdom
هذا الكتاب، مبنى ومعنى، على مسؤولية المؤلف، ولا تتحمل "مومنت كتب رقمية" ولا العاملين فيها ولا المنضوين تحتها ولا المتعاونين معها، أية تبعات تنجم عن ذلك.
لا تجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه إلا بإذن صريح من المؤلف.
تصميم الغلاف: صدام الجميلي

الإهداء

إلى أمل المحرومين وفرج المكروبين والباحثين عن العدالة والحرية والمحبة والإخاء والمساواة مولانا المهدي المنتظر عليه وعلى أبائه أفضل تحية وسلام...

(إذا يجد المرء الباب ضيقاً يخلع ثيابه)

حكمة قديمة

(عام 1994)

"كيف تصل المخطوطة إلى خارج حدود الوطن وليس لها قدمان تسير عليهما، وتتحمل مسؤولية نفسها، وتنوء بأوزار ما تضمره من كلام وحكايات عجيبة، ولا تمسك بيدها جواز سفر يحمل تأشيرة المسئولين ودمغتهم؟ بالله عليكم كيف يتم هذا الأمر؟
أخبروني من فضلكم ببرقية من وراء ظهر أجهزة السلطة أن استطعتم، ولكن قبل أن نصل أسلاك "طريبيل"* الشائكة نهاية جحيم الوطن وبدايته. "

*** طريبيل: منطقة حدودية بين العراق والمملكة الأردنية**

أمةٌ تطعنُ حاكمَها سراً وتعبدُهُ جهراً لا تستحق الحياةَ.
جمال الدين الأفغاني

بليل مظلم غادر بغداد. أختفت الأضواء و الوجوه الشاحبة، وثمة أضواء باهتة تبدو من بعيد لقرى ومدن صغيرة، وعلى أنوار مصابيح الحافلة كان الطريق يمتد بلا نهاية، وقبل كرسيه بكرسيين كانت امرأة في الثلاثين من عمرها ممتلئة الجسد أكثرت من وضع المساحيق على وجهها.

وهي منذ بداية الرحلة تملأ الحافلة ضحكاً وخفة دم، وتعليقات فكهة، وفي مرات كثيرة تتجاوز حدودها فتتحول إلى وقاحة، لكنها من ذلك النوع من الوقاحات التي تبعث على الابتسام، لأنها غير موجهة إلى احد فكانت تمر دون تعليق.

بدت المرأة وكأنها لا تفكر بما تقول وان الكلام يأتي على لسانها سيلاً، وهي تقشر حبات البرتقال وتلقي بقشورها في الممر مثل الكلمات.

في موقف الانتظار، قبل الصعود إلى الحافلة نظرت صوبه، محاولة لفت أنتباهه، لكن الله وحده يعلم كم كان خائفا مما يحمل في حقيبته، وقد اسلم أمره إلى خالقه.

وبدا وكأنه يسير إلى حتفه بقدميه: أية مشاعر تنتابك وأنت تحمل قنبلة مؤقتة، ستنفجر بك عند الحدود؟ ليس لك إلا أن تردد ما حفظته من سور القران الطويلة، و القصيرة وتسأل ربك النجاة كل لحظة.

أصطدمت به عند ركوب الحافلة أول مرة وقالت مبتسمة كاشفة عن أسنان مغطاة بصفائح الذهب كان بعضها في الفك الأعلى، وأخرى في الأسفل.

ـ أذيتك أسفة قلبي جداً.

سمعها تقول وراءه

ـ يحمل على كتفه الهموم كلها، ولم يترك لأهلنا في الوطن شيئاً منها.

ولولا القلق على مصيره، والحدود التي أصبحت مثل وحش ينتظره ليفتك به لضحك من خفة دمها.

وضع حقيبته أسفل قدميه، وأخذ يفكر بأشياء كثيرة حدثت له في الساعات الماضية، أما المرأة خفيفة الدم فإنها طلبت من الرجل الجالس

في الجانب الآخر من الممر، قائلة بصوت أبح:
- عيني فدوه، أدوخ من الجلوس قريباً من النافذة، أريد أن أجلس مكانك وتعال لتجلس مكاني .
أجاب الرجل ضاحكاً:
- وتعطيني برتقالة؟
قالها وكأنه يطلب منها قبلة وربما أكثر من ذلك .
ضحكت، وأفردت كفيها أمامه:
- كل البرتقال، الذي احمله معي لك؟
بدت وكأنها تعرض عليه نفسها بدلال فقد عرفت ما يكتمه الرجل داخله من مشاعر الحرمان.
أنحنت مادة يدها أسفل الكرسي، وأخرجت كيساً مليئاً بحبات البرتقال وأعطته أثنتين، أخذ منها الحبتين شاكراً وأنتقلت لتجلس مكانه وأحتل هو مكانها.
لم يبق بينها وبينه بعد أنتقالها إلى مكانها الجديد سوى الممر، و حين التفتت إلى جارها الجديد قالت ضاحكة:
- عزا جئت عند الهم.
لم ينبس بكلمة وداخله قال في نفسه" في اللحظات الفاصلة بين الموت والحياة تجئ قحبة لتشاركني الطريق، وأضطر لسماع سخافاتها ..
ربما ما يحدث لي ألان يشبه ما حدث لسيدنا المسيح، حين شاركه طريق ألامه لص مغمور وصلب لصقه.
سألها الذي جلست إلى جانبه :
- وحدك ذاهبة إلى عمان؟
وعلى نور مصابيح الحافلة الداخلية رآها تغمز له، وتشير إلى الكرسي الذي تركته:
- معي مُحرَم كما تنص القوانين، لكنني تركته و حيداً.
وأشارت برأسها إلى نهاية الحافلة وأكملت:
- لأجلس قريبة منك أيرضيك هذا ؟
ضحك الرجل طويلاً، وأخذ ركاب الحافلة ينصتون لقفشاتها ونكاتها، و بسبب جو السفر الكئيب والمسافة الطويلة التي عليهم قطعها، فكل كلمة كانت تقولها تجعلهم يضحكون.
ثمة نساء في الحافلة، ولكن أكثر من امرأة أبدت أمتعاضها مما تقوله وتفعله الراكبة خفيفة الظل هذه ثم أخذت تقول فزورات، و تطلب من

الراكبين حلها وحين لا يستطيع احد حلها تقول هي الجواب هازئة من الجميع.

كان الجالس إلى الجانب الآخر يعرف حلول معظم فزوراتها، لكنه لم يقل الحلول التي يعرفها، و كانت بين الحين والآخر تنظر صوبه وتغمز له بعينها بوقاحة لم يعتدها من أية فتاة أو امرأة قابلها في حياته.

وعند كل غمزه توجهها صوبه يطرق خجلاً، متذكراً قصيدة لشاعر لا يتذكر أسمه يقول فيها ما معناه ماذا تفعل إذا أخبروك أنك بعد أربع وعشرين ساعة ستعدم؟

أتشرب خمراً طيلة الوقت المتبقي؟ أم تطلب امرأة لتنام معها؟ أم تقضي وقتك الأخير مصلياً طالباً المغفرة من خالقك قبل أن تلتقيه بعد قليل؟ ويسترسل الشاعر في قصيدته، فيقول لو أنك فعلت هذه الأمور مجتمعة، لكنت أسوأ جبان عرفته البشرية.

ثم سمعها تعنف الجالس قريبا منها فجأة:

ـ أبعد قدمك عن ساقي، أبعدها وإلا سأسحبك من ربطة عنقك.

أنكمش الرجل إلى جهة النافذة بسرعة خاطفة، وكأنما لم يحدث شئ مهم استرسلت تقول نكاتها، و فزوراتها، بعد لحظات قليلة.

فقلت مع نفسي:

ـ هذه هي ليست امرأة، أنها الحياة البائسة بشحمها ولحمها ومتعها وقذارتها.

وبعد أن صدعت رؤوس الراكبين، ورأسها أيضاً، مالت إليه برأسها، وسألته بجد هامسة: أدفنت عزيزاً في بغداد أم غرقت سفنك في شط العرب؟

أبتسم من سخريتها الموجهة له هذه المرة، وأجاب باقتضاب:

ـ لم أدفن احداً يا سيدتي.. هذه طبيعتي.. أنا هكذا دائماً..

قالت ببساطة وسخرية بآن واحد:

- إذن .. أنت تحمل دولارات..

نظر إليها محتدماً، وقد مرَّ بخياله خاطر أن تكون المرأة من العاملات في مخابرات الحكومة أو أمنه السري، وهم عادة يفضلون أمثالها في مهامهم الأمنية لتندس بين المواطنين، أجابها وكأنه يوشك على البكاء:

- ومن أين أحصل على الدولارات، وهي غالية الثمن وممنوعة التداول

قالت غامزة له من جديد بعينها :

ـ أنت لا تعرف رسمية بعد ؟! استطيع أن أمرر لك إلى خارج الحدود أي

مبلغ تشاء، وبالطبع حين يصل مالك إلى شاطئ الأمان ستكرمني على قدر أستطاعتك .
وأكملت ضاحكة :
ـ ونسبتي معروفة.. عشرة بالمائة، ويمكن أن أخفضها لك إذا توسلت بي قليلا..
ضحك مستخفاً بأفكارها :
ـ صدقيني لا دولارات معي.
قالت وهي تنظر إليه مخمنة:
ـ حدسي يقول لي انك تحمل ممنوعات.
أعتصر الخوف قلبه، لكنه قال متصنعا الابتسام :
- الحمد لله لا ممنوعات معي .
قالت بسرعة :
ـ أأنت شاعر؟
- أيبدو عليَّ ما ينبئ إنني شاعر؟
- في حقيقة الأمر انك تقول الكلام، كأنك تنطق أبياتاً من الشعر !
قال متبسطاً معها في الحديث، وقد سره ذكاءها وخفة دمها ...
- إنا كاتب ..
- كاتب عرائض؟ أم تعمل كاتباً في دائرة حكومية ؟
- لا هذا ولا ذاك.. إني أكتب القصص ..
مدت يدها بجرأة وأمسكت كفه، وقالت وهي تنظر إليه مستعطفه :
- حدثت عليَّ في هذه الدنيا الكثير من المصائب، وأريد منك أن تكتبها.. آه لو أقص عليك ماذا فعل بي الزمان...
- هل معك سجائر؟
أخرج لها علبته وأعطاها سيجارة وضعتها بين شفتيها، وأشعل هو عود الثقاب، وقربه منها.
كان وجهها يحمل أمارات حزن عميق.. أمتصت نفساً عميقاً من سيجارتها وأطلقت سحابة دخان بعد ذلك من صدرها دفعة واحدة، أخذ خوفه يعود إليه وبين فترة وأخرى يشعر به كوخزه مؤلمة في القلب، أكملت قائلة :
- آه لو تعرف كم رأت رسمية في حياتها من مكائد ودسائس السيئين !
كان الجالس إلى جوارها ينصت لهمسها، وهو يتكوم بعيداً عنها إلى جهة النافذة، محاذرا من الأحتكاك بها لئلا تفضحه كالمرة السابقة بصوتها

الجهوري الذي له رنين جرس مدرسة، قالت:
ـ لن أتركك قبل أن أقص عليك قصة حياتي تسجلها على الورق وتنشرها في كتاب، وتصير بفضلها أشهر كاتب في بلادنا ولن أطالبك بشئ مقابل ذلك،أريد فقط أن تذكر اسمي الصريح: رسمية .... أكتب أسمي فأنا لا أخاف أريد أن يقرأ الذين ظلموني قصتي !

ومن جديد. مرقت الحافلة على قرية مظلمة، لا يبدو منها شيء سوى هياكل بيوت معتمة، ونوافذ تنورها فوانيس كابية، ووجوه لا قسمات لها تنظر صوب اللاشئ بعيون مطفأة. قالت المرأة هامسة :
ـ أخبرني قبل هذا.. ماذا يخيفك ؟ هل هي المرة الأولى التي تسافر فيها إلى خارج الوطن ؟
ـ أجل إني أسافر للمرة الأولى، ولا أعرف إلى أين أمضي؟ إذا وصلت الحافلة نهاية رحلتها !

قالت وهي تخمط وجهها بأصابعها ساخرة:
ـ يا عيني عليك لن أتركك سنأخذك معنا، لا تهتم فمبيتك مضموناً عندي، وعمان مدينة مثل أي مدينة أخرى، وأنت رجل وكاتب.
قال من جديد بصوت حزين:
ـ تركت الزوجة والأطفال في بغداد..
ـ يا عيني عليك ..
قالت ذلك، وهي هادئة تماماً، وأكملت:
ـ أشعرت بالشوق لزوجتك؟ أنت فارقتها ليوم واحد فقط !
وبعد أن سخرت وضحكت منه، أمتدت يدها باتجاهه، وبحنو أمومي أمسكت بكفه شعر بدفء أنساني غريب يجتاحه لم يشعر بالإثم على الإطلاق، أحس أنها أخت له في الإنسانية تشاركه خوفه، وإحباطه وشعوره بالظلم والنفي ... قالت :
ـ إذا لم تجد عملاً في عمان سأشغلك معنا ..
قال وفي لهجته لهفة:
ـ وماذا أعمل معكما؟
أجابت ببساطة وسخرية عميقة:
ـ تكتب قصة حياتي وتنشرها في الجرائد....
فكر للحظة بعنوان الكتاب هازئاً من نفسه والعالم: سيكون العنوان الكتاب مميزاً: بغايا بغداد في زمن الحصار!!
لكنه سألها لئلا تظن به الظنون:

ـ وأنت ماذا تعملين في عمان ؟
قالت ببساطة ودون مواربة :
ـ فنانة.. آه لو ترى المعجبين، وأنا أأودي رقصتي الشهيرة: أح.. ألحقوني!! والجمهور يصفق صارخاً: نريد العراقية... نريد العراقية أخرجوها لنا مجدداً، لتهز لنا وسطها وتمتعنا برقصتها: أح.. ألحقوني!!
غص بلعابه، وأدار وجهه عنها لئلا ترى حزنه وأمتعاضه..
قالت هامسة :
ـ ألا يعجبك ما أفعله هناك؟
صمتت لحظات، ولم يخمن نوع المشاعر التي انتابتها في تلك اللحظات، وسحبت كفها ببطء من كفه.
قالت بعد لحظات ساخرة
ــ نقلت عدوى حزنك لي اذهب إلى الجنازة وحدك لن أصاحبك أبداً.
ثم تمتمت، وهي تتصنع التجهم، فأصبح وجهها بعد قليل كوجه امرأة شديدة الحزن.
ـ الآن عرفت لماذا أبعدتك زوجتك !
لم يقل شيئاً، ورآها تقف وتنحني إلى الأمام، وتقول بصوت عال موجهة خطابها إلى المسافرين:
ـ ما رأيكم أن أغني لكم؟
فتعالت صيحات الاستحسان، وصاح السائق من مكانه بصوت جهوري:
ـ أرفعي صوتك عالياً لأسمع أغنياتك من فضلك.
فأردفت صائحة:
ـ على شرط أن ترددوا بعدي
فتعالت من جديد صيحات الموافقة، وبعد أن تنحنحت قليلاً، أخذت تغني بصوت جميل، واضح النبرات أغنية ريفية من جنوب البلاد، تتحدث كلماتها عن الهجر والفراق، وألم المحبين وبعد المسافات، ولحظات الوداع.
وعاد هو من جديد لمخاوفه، وراح يردد في سره سوراً من القرآن الكريم...
في الصباح الباكر وصلوا إلى"طريبيل" وتقاطر المسافرون على نقطة تفتيش الجوازات.
أخذ يرتجف خوفاً من أن يكون أسمه مدوناً مع قائمة أسماء الممنوعين من السفر، وعندها سيمنعونه من المرور، ويعيدونه إلى بغداد، وربما

يعاد مخفوراً برجال الشرطة ليسجن، لأنه أراد الخروج من البلاد هو الممنوع من ذلك وهذا بالطبع إذا كان حظه ممتازاً ولم يكتشفوا ما يحمل في حقيبته من مصائب.

قدم جواز سفره إلى الموظف المختص، وفي ذات اللحظة مرقت من أمامه فنانة الطريق رسمية ولم تعره أنتباها، وقد بدت منتفخة الأوداج لسهرها حتى الفجر، وهي تعيد وتكرر الأغنيات، التي غنتها، والمسافرون يرددون بعدها، وكلما خفت أصواتهم عيرتهم بالجوع الذي عانوا منه طويلا في بغداد !!

وطلبت منهم أن يرفعوا أصواتهم عالياً، رآها تقدم جواز سفرها أيضاً إلى شرطي الجوازات، فقال لها الشرطي ضاحكاً:

- أنت لست بحاجة إلى دمغة أنت نفسك دمغة !

- أدمغ وإلا شكوتك إلى ضابطك !

قال مازحاً وهو يأخذ جوازها:

-الملازم فاخر غير موجود.

قالت بجفاء:

- أتريد أن أتصل بمديركم ليعاقبك؟

قال بصوت يخنقه الضحك:

سيعاقبني بالتأكيد، حرام عليك، عندي بيبي!

ثم أعطاها جواز سفرها بعد أن أكمل الإجراءات، ومن دون أن يبحث عن أسمها على شاشة الحاسبة.

فكر الكاتب متسائلاً أية سخرية يريني إياها الله بهذه المرآة ! هي أبنة النظام الحاكم في بلادنا المدللة، أما نحن فأبناء غير شرعيين لهذا الوطن، وعلينا أن نتوارى كالفئران بذنب أو من غيره، أية تمثيلية هزلية هابطة الذوق أراها وأكون احد أبطالها الميامين دائماً؟

التفتت رسمية إلى الشرطي:

- خذ جواز سفر الأستاذ ... انه معي!

نظر الشرطي باتجاهه شزراً، وابتسم ساخراً، معتقدا أن الكاتب من طاقم الفنانة.

وبعد لحظة أخذ جواز سفره من يده، ومن دون أن يمرره على الحاسبة دمغ المغادرة له، فانحبس النفس في صدره حتى أعاد الشرطي جوازه إليه، قائلا:

- أنتهى اذهبا إلى تفتيش الحقائب!

التفت ليشكرها، فلم يجدها، رآها تغادر المكان صوب قسم تفتيش الحقائب فكر، وكل عضلة في وجهه ويديه وقدميه ترتجف.. سبحانك ربي تجعل خلاصي على يد هذه المرأة أنت القادر على كل شيء، ونظر صوب الخيط البشري الممتد أمام قسم تفتيش الحقائب والمسافرين.

وتمتم مع نفسه ناظراً إلى حقيبته بطرف عينه يا ربي أنت تعلم ما في دخيلتي، وما أعلنه وتدري لماذا أتجشم كل هذه المخاطر؟ بعت وكر أطفالي ..داري.. التي بها يأنسون ويأتمنون، وهاجرت قاطعاً هذه الفيافي لغاية واحدة أنت تعرفها: أن اصرخ لأقول لا لظلم أهلي، أجل هذه غاية أملي من هذه الرحلة المحفوفة المخاطر.

وتقدم مع الخيط البشري صوب قسم التفتيش، وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويرى إلى وجوه المسافرين الشاحبة، الذين سمعهم بالأمس.. بل منذ ساعات قليلة وهم يطربون لأتفه الأغنيات، ويضحكون مسرورين بقرب وقت تركهم البلاد..

يراهم ألان وأيديهم ترتجف وأنفاسهم تتلاحق، وعيونهم مصوبة إلى السماء في دعاء صامت، كأن ساعة الحساب قد دنت فسبحان الله مغير الأحوال من حال إلى حال!

هو يعرف أن كل واحد منهم يحمل مبلغاً صغيراً بعملة الدولار الأمريكي، أخفاه في مكان ما من الحقيبة أو في مكان سري خاطه في جهة من ملابسه، مبلغ أشتراه بكيلوغرامات من العملة الورقية العراقية، ومن الأسواق العراقية السوداء ليصرف منه بعد ذلك في العاصمة الأردنية.

وشرطة الحدود العراقية إذا وجدت أي مبلغ بتلك العملة الأجنبية ينوي صاحبها إخراجها إلى خارج البلاد تقوم بمصادرتها، وحبس صاحبها سبع سنوات في سجن يسمى "دار أحباب القائد" سيئة السمعة والصيت**.

عملية التفتيش توحي للناظر من بعيد انه أمام تمثيلية سمجة لا حد لوحشيتها، وغرابتها، إذ ترفع كعوب أحذية المسافرين، ويفتش تحتها، وتمزق بعد ذلك بطانتها الجلدية، ولا يبقى لك شيئا تلبسه في قدميك بعد عملية التفتيش.

وما تضعه في قدميك بعد ذلك لا يمكن أن يسمى حذاء أنك في حقيقة الأمر تضع كذبة في قدميك، وتسحلها عند المشي سحلاً، أما السترة فيطلب منك خلعها عن بدنك، ويعاد تفصيلها لكثيرين من المسافرين الذين يشكون بهم من جديد.

وتتحول بين أيديهم إلى قطع قماش، كأنها لم تمر عليها إبرة خياط،

ياقات القمصان المنشاة تفتح بسكاكين خاصة ثم بعد ذلك يأمرونك بخلع ثيابك التي ترتديها، ماعدا ما يخفي العورة.

ويقوم شرطي بذيء اللسان يسخر من المسافرين بمد يده الأثمة تحت غطاء العورة، فإذا جفلت من تلك الحركة وعفت نفسك، ضحك بوقاحة وطلب منك ساخراً الثبات والصبر حتى يتأكد من إنك لا تضع بين فردتي دبرك شيئاً من أوراق العملات الأجنبية!

وعندما لا يجد ما تخفيه يدفعك بيده الأخرى ليستقبل واحداً غيرك ولا عجب لما يفعلون فقد كان لرجال أمن التفتيش على الحدود نسبة الثمانين بالمائة من العملات الأجنبية التي يجدونها مع المسافر.

وهي نسبة مرتفعة تجعل الواحد منهم دقيقاً في عمله كأنما يعمل لحسابه الخاص، ولا يعمل في دولة تلزمه قوانينها بفعل هذا الأمر وترك ذاك، لأنه يسيء إليها، في كل الأحوال.

فهو لا يتوانى عن صنع الأعاجيب بالمسافرين ليكسب قوته، وقوت عائلته من سلب الناس وبهذلتهم، فراتبه من الحكومة طيلة شهر كامل لا يساوي ثمن كيلو غراماً من السكربسبب التضخم الأقتصادي الذي حل بالبلاد بسبب الحصار الدولي الشامل.

شعر بالقرف والغثيان، مما يدور حوله وبالرغم من خوفه إلا أن السيرك الذي راه إمامه، والذي يمثل فيه الناس أدوار مهرجين بجدية لا مثيل لها، فمال إلى ترديد أسم الله كل لحظة طالبا منه النجدة، وفي ذات الوقت كان يبحث بعينيه عن (رسمية) التي لا يدري أين اختفت، وهو يحتاجها ألان حاجته إلى الهواء.

فتحوا حقيبته، وكأنما يد المفتش المدربة كانت تعرف عن ماذا تبحث، ومن بين الملابس أخرج"مخطوطة كتاب" وأخذ يقلب صفحاتها، قال وهو ينظر شزرا بوجهه:

- ما هذا السجل الضخم؟

قال مرتبكاً:

- أنها مسودات كتاب... إنا كاتب!

قال مفتش الحدود، وهو يضع المسودة جانباً، ويفتش باقي أشياء الحقيبة، وقال متمتماً "لا يُسمح بمرور هذه المسودات دون موافقة" و"يجب عرضها على المدير" شعر بالراحة "لأن المفتش وضعها جانباً ولم يقرأ ما تحويه المخطوطة من مصائب، سأله بثقة أكبر:

- وأين أجد المدير من فضلك؟

أشار إلى غرفة مجاورة، فترك الحقيبة قرب المفتش، وأخذ المخطوطة وحدها، ودخل الغرفة شعر أنه بفعله هذا أزال شك المفتش بان الحقيبة لا تحتوي شيئا خطيراً، وفي غرفة المدير وجد ثلاثة من المواطنين، وعلى منضدته مئات الأشياء الصغيرة..

عطور مختلفة الإحجام، والإشكال آلات تصوير، قطع قماش، سجائر أجنبية ورأى(رسمية) تهم بالخروج من الغرفة، فأصطدم بها، وكأنما وجد ما يبحث عنه رفع المدير رأسه الأصلع حين دخل الكاتب، فقرصته رسمية، قال لها بصوت عال ليسمعه المدير:

ـ إني ابحث عنك ما الذي أخرك ؟

قالت لتكمل نسيج مؤامرتهما:

ـ أردت أن اسلم على سلام قبل أن نغادر الوطن وألان لنذهب.

عند ذلك عاد المديرمن جديد يحدث المواطنين أصحاب الحاجات المحجوزة وخرجا من الغرفة دون أن يطلع المدير على المخطوطة، وعند خروجه وجد حقيبته مرمية على الأرض، والأشياء التي بها مبعثرة هنا وهناك والمفتش يقف على بعد خطوات منها، مشغولا بتفتيش حقيبة أخرى سأل الشرطي:

ماذا قال المدير؟

ـ أستاذ سلام .. يسلم عليك ويقول لا مانع من مرورها، وأمام هذه المرأة.

فهزت رسمية رأسها إيجابياً قال الشرطي بعدم أهتمام:

ـ أذن يمكنك أن تمر!

خرجت بعد ذلك رسمية من قاعة التفتيش، وكأنها لا تعرف الكاتب، وأنهمك بجمع أشيائه المبعثرة بيد مرتجفة، وأغلق الحقيبة كيفما أتفق وخرج لا يلوي على شيئ مردداً في داخله "الحمد لله ...الحمد لله ".

كانت رسمية تنتظره قريباً من الحافلة، وحين وصل قريباً منها همست بإذنه "عرفت منذ رأيتك أول مرة أن وراءك مصيبة "

قال الكاتب متصنعاً الأستغراب وعدم الفهم:

ـ من؟ أنا ؟

ـ نعم أنت!

ـ وما هذه المصيبة التي تتحدثين عنها؟

ـ المنشورات المعادية للدولة التي تحملها في حقيبتك!

ـ يا سيدتي أنها قصة أحلف لك على المصحف أنها قصة، وسأضيف

أسمك إليها كبطلة!

نظرت أليه كأنما تريد أن ترى جديته فيما قال:

- أحقا ستفعل هذا؟
- اقسم لك بكل عزيز أني سأضع أسمك الصريح في متنها
- سأعطيك عنواني في عمان لترسل لي نسخة منها
- أذا أمد الله في عمري واستطعت أن أجد ناشراً...
- ضع أسمي فيها فقط، وستجد العشرات من الناشرين يتبرعون بطبعها!
- سأضع أسمك كبطلة فيها هذا وعد!

وفي تلك اللحظة والهواء يطير خصلات شعرها، والشمس تعكس على بؤبؤي عينيها وتنورتها الجلدية الصقيلة الملتصقة على جسدها ضوءها، شعر انه يود لو يعانقها ويبكي بكاء لم يفعله من قبل أبداً.

هذه المرأة التي بعثها الله لتخرجه من مأزقه، وجعلته يتخطى بوابات الجحيم بحمله الثمين، نظر بعينيها وقال:

- شكراً لمساعدتك التي لن أنساها ما حييت.

قالت ساخرة:

- الشكر لا يكفي..
- كل ما تطلبينه مني سأفعله.

قالت مازحة:

- شاركني الغناء أذن حتى نصل عمان
- سأفعل ذلك

تركته وصعدت إلى الحافلة وصعد خلفها، وبعد ساعة من الأنتظار تحركت الحافلة من جديد، وعند البوابة الأخيرة أوقفوها مرة أخرى، وصعد رجل أمن بوجه شاحب يحاكي وجوه الأموات وبعينين ذئبيتين أخذ يتفرس بوجوه المسافرين.

وكل واحد منهم كان يعتقد أنه المقصود بهذا التوقف المفاجئ، فبردت الأطراف، وخفقت القلوب، وأرتجفت الشفاه وتسارعت الأنفاس، وسأل رجل الأمن بصوت كالفحيح:

ـ هل زرتم السوق الحرة؟

أجاب احد المسافرين:

ـ لانحمل عملات أجنبية، والأشياء في هذه السوق تباع بالعملة الأجنبية.

أوصى رجل الآمن المسافرين:

ـ عليكم بزيارتها قبل مغادرة العراق هذا أمر وعليكم تنفيذه.

لم يقل أحد شيئاً، ولكن بعد أن ترجل الشرطي من الحافلة علت صيحات الأستنكار، ومن جديد أدار السائق مقود الحافلة بأتجاه طريق العودة داخله من جديد إلى وكر الذئاب، وترجل الناس من جديد من الحافلة لزيارة السوق الحرة.

كانت كل دقيقة تمضي عليه، وهو هناك كأنها دهر كامل من العذاب، وكل لحظة يتوقع فيها أن يصرخ احد الشرطة بأسمه، ليبلغه بمنعه من السفر، وإعادته إلى بغداد مكبلاً بالحديد.

ومثلما دخل المسافرون إلى السوق خرجوا منه، وهم لم يشتروا شيئاً ومن جديد وصلت الحافلة إلى البوابة الأخيرة، وخرجت بعد ذلك من أسوار بيت الشيطان.

ودون أن يمنعها أحد هذه المرة، فأخذت بعد ذلك فنانة الحافلة تغني أبوذية، والركاب يصفقون لها، وفرح الكاتب لم يعادله فرح أحد، لكنه تعمد عدم الإفصاح عن مشاعره.

وأخذ يتابع الغناء وأبتسامة تستدق على شفتيه، فأمامه عمل كبير هو توصيل رسالة الصامتين من أهله على بلائهم إلى خارج الوطن!

وسمع رسمية تتوقف عن الغناء، وتهمس بأذنه من جديد:

ـ والله احلف بالله انك خرجت من ورطة!

أجاب ضاحكاً:

ـ الحمد لله كلنا كنا في ورطة وخرجنا منها سالمين.

---

* فدوة كلمة تحبب باللهجة العراقية بمعنى أفتديك بنفسي.

**نوع من السجون العراقية شديدة الوطأة على نزلائها وينتشر في ردهاتها المصابون بالجذام والمجانين، وهي سجون بسقوف حديدية مشبكة، مفتوحة صيفا وشتاء ويموت أغلب من يسجن فيها قبل أنتهاء مدة عقوبتهم، وابتدأت الدولة بأستخدام هذا النوع من السجون منذ مطلع عام 1969 .

(المخطوطة)

ليس بالإمكان أسوأ مما كان..

-1-

ربما كان الموضوع في بدايته واقعة لا يمكن وصفها ألا بأنها من الغرائب أو حكاية من نسج خيال أبي يرحمه الله لتبرير أختفاء حافلته في ظروف غامضة حكاها على أخوته وصدقها الجميع بعد ذلك.

ولكن شاء لهذه الواقعة أن تصبح النكتة السمجة، التي قلبت حياة أبي وقادته إلى مصير مجهول لا يعلمه إلا الله، وتبكي جدتي–أم أبي- كلما تذكرت ذلك، وهي المتوجسة المنتظرة للأحزان حتى يثبت الواقع عكس ما توقعته، فتكتفي بابتسامة شاحبة متبرمة.

كان ذلك قبل أن يضيع أبي إلى مصير مجهول.. كانت جدتي في تلك الأيام الغابرة تعرف الأبتسام الحقيقي، أما بعد أن فقد أبي فقد نسيت ذلك الأبتسام إلى الأبد، وصارت تلوم أولادها حين تراهم ينتعلون أحذية بينما يرقد أخوهم في قبره المظلم البارد كما تقول.

ويسألها كل ليلة في المنام بوجه شاحب:

ـ ماذا صنعت لتأخذ بثأره من قاتليه؟

فتهز رأسها أمامه، وتبكي قائلة له:

ـ أنها لم تخلف بعده سوى الإناث.

وكان ذلك القول يغيظ أعمامي ويجعلهم يكزون على أسنانهم، وبعضهم يبدأ بتمسيد شاربه الكث، وفي فورة الغضب يضعون خططهم للوصول لذلك المسؤول الكبير في الدولة، لتحقيق شريعة الثأر، التي ولدنا عليها وتعلمناها منذ الصغر: السن بالسن والقتل قصاص.

وكما قلت في البداية كان الموضوع واقعة غريبة، فقد صاح أبي أول مرة حين رأى صورة الرئيس في جريدة لفوا بها الخضار، عندما كان الرئيس وقتها مازال حارساً شخصياً للرئيس، الذي سبقه فتعرف عليه من صورة الجريدة.

ـ أنه ذلك المساعد نفسه الذي عمل معه على حافلته على طريق بصرة – بغداد ثم بعد ذلك سرق الحافلة على غفلة منه، واختفى، وأختفت الحافلة معه، إلى الأبد وذهبت جهوده عبثاً في العثور عليها بالرغم من تسجيله ذلك الحادث في مركز الشرطة، ومرورها.

كان وقوع ذلك الحادث في الخمسينات من القرن الماضي، ولم يظهر سارقها إلا بعد سنوات في خضم الأنقلابات والمؤامرات الفاشلة في العهد الجمهوري.
وصارت تلك الحافلة المسروقة سبباً في إحباط أبي، وعزوفه عن كل شيء، وربما لكونها المشروع الأول في حياته، وقد وضع فيها إضافة إلى مصوغات جدتي الذهبية كل ماله، وأحلامه ثم تبخر ذلك الأمل على يد مساعد شاب من الريف خان الأمانة، ولم يرع أصول الضيافة والأخلاق.
كان صغيراً وضئيلاً يلبس البنطلون ويضع على رأسه اليشماغ، كعادة أبناء القرى عندما ينزحون إلى المدن باحثين عن فرصة حياة، وكانت عيناه تقدحان بالشر والمكر.
ووصفي له ليس من محض خيالي بل انه جاء من ذاكرة الطفل الذي كنته في ذلك الزمن البعيد، إذ أرتعبت من نظراته القلقة، وكدت أصرخ كأن حيوانا داهمني.
إذ شاء الله تعالى أن أراه مرة واحدة، وهو يأتي مع أبي بعد سفرة من سفراتهما في تلك الحافلة، التي نصفها من خشب حسب الموديلات القديمة، إلى دارنا وقد أعدت أمي على عجل طعام الغداء.
وبعد الغداء عزلت والدتي ملابس أعمامي القديمة، ولفتها في صرة لتعطيها لذلك المساعد الفتي، صاحب النظرات المرعبة، لأنها رأت ملابسه القديمة الممزقة التي يرتديها وانكسر قلبها عليه.
وحتى لا تربك هذه الحكاية ما في ذهني من تفاصيل مؤسية فعلي أن أبداها من البداية ......

- 2 -

نحن عائلة كبيرة عاشت في الجنوب، وهي من نمط تلك العائلات التي تجد فيها الأجداد يعيشون في أفضل غرف الدار، وتجد الأعمام إلى جوارهم مع زوجاتهم وأولادهم وبناتهم.
وتجد انك وسط هذا الحشد من الأحفاد، لا اسم حقيقياً لك، فكل واحد من أعمامك يدعوك باسم محبب إليه غير الأسماء التي يطلقها عليك جدك وجدتك!
وهي في الحقيقة أسماء لأحفاد آخرين اختلطت في ذهني الجدة العجوز والجد الشيخ أو من صنع محبتهما وخيالهما المكدود، ولا أهمية للأسماء

وأنت ترى الحب العميق يبرق من عيونهم وأيديهم المرتجفة تمسك بك مثلما تمسك بفرخ الدجاج في ذلك البيت الكبير!

الذي تستيقظ فيه فجراً وأنت تسمع تلاوة القرآن من فم جدك الشيخ الخالي من الأسنان، الذي حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وهو يستعد للذهاب إلى الجامع القريب وفي فترة قصيرة لاحقة ستسمع جدتك وهي توقظ أولادها المتزوجين وتنزعهم من أحضان زوجاتهم، مذكرتهم بأخيهم القتيل الذي يستحم في قبره المظلم، بدمه المراق!

طالبة منهم الذهاب مع جدي إلى الجامع، وفي فترة لاحقة ستوقظ الجدة نساء أولادها لإعداد الفطور للقادمين بعد قليل من الجامع ثم يمتلئ البيت بأصوات أعمامي الذين يتناولون إفطارهم مع جدي وجدتي، ونور الفجر لم يشقشق بعد، ودليلهم في ذلك الظلام شعلة نفط تبث ضوءاً ودخاناً أسود..

وبعد خروج أعمامي إلى أعمالهم تبدأ مراسيم أيقاظ الأحفاد والحفيدات لغسل الوجوه وتناول الفطور، وتبديل ملابس النوم بملابس المدرسة.

وكنت أنا الأخير الذي تعمد والدتي لإيقاظه، وهي عارفه أنني من أوائل المستيقظين في الدار منذ ضرب جدي بإبريقه المعدني عتبة المرحاض، أول مرة كإشارة لبداية يوم جديد.

وحتى قبل أن يصدح صوته بقراءة سورة البقرة الطويلة، التي يقطعها بين الحين والأخر ليقرأ آيات سورة الكرسي، لحكمة لا يعرفها إلا هو بقلب خاشع، وصوت منغم فيه أرتعاشة الشيخوخة وضعفها

-3-

أعمامي سبعة هي حقيقة كان يعرفها القاصي والداني سواي، فقد كنت أظن أنهم أكثر من هذا العدد بكثير في البداية، اعتقدت إني بلا أب محدد بينهم، وإنني كنت ابناً لهم جميعاً وكانوا يعاملونني بحب يفوق حب أبي الحقيقي.

وعرفت أبي فيما بعد ربما لأنه الوحيد الذي كان يندس في الفراش إلى جوار أمي في غرفتنا المعزولة، القريبة من باب الدار الخشبي الضخم المرصع بنهايات مسامير متسعة ويغلقه رتاج خشبي ثقيل.

كانوا سبعة أعمام نشامى يسميهم الناس البعيدون بالأشرار، وينعتهم

الجيران القريبون بالسباع الكرام، لا يمضي نهار الجمعة من كل أسبوع دون مشكلة يفعلها احدهم.

فقد اعتاد جدي على ذبح خروف وشيه، ووضعه على أرز ساخن في طست كبير من النحاس ظهر كل جمعة، وعندما يندر مجيء الضيوف إلى دارنا يبعث أعمامي إلى باب الدار يتصيدون الضيوف.

فإذا جاء أحد، ولم يأكل كما يجب من طعامنا لسبب ما، وضع أعمامي رأسه في الأرز الساخن، وسلخوا له وجهه بذلك المداف الساخن، فيخرج المسكين صارخاً متعثراً بخطواته، باحثاً عن باب للخروج من هذا الجحيم، لهذا السبب ولغيره أمتنع الناس عن المجيء ناحية دارنا ظهر يوم الجمعة على الإطلاق.

واحدهم يوصي الأخر بعدم المرور في درب الأشرارالكرام ذاك أو التورط بدخول دارنا إلا إذا كان يحمل جوعاً في بدنه لأكثر من سنة كاملة ويستطيع أن يفرغ طست النحاس من حمولته العظيمة من اللحم والأرز الدسم، ومقليات ومشويات جدتي الكثيرة التي تتفنن كثيراً بإعدادها .

عندما يصيب أعمامي اليأس من الانتظار في باب الدار يرجعون بوجوه حزينة مغتاظة فيعرف جدي من وجوههم المحبطة أن لا ضيوف اليوم فيغادر مكانه حزيناً تاركاً الخروف المشوي وطست الأرز المديوف بالسمن الحر، لأولاده الثمانية فيقتطعون أجزاء كبيرة من الكبد المشوي، ويحشونها في فمي حتى أكاد أن اختنق.

واسمع كبيرهم ينادي في إذني بصوته الجهوري "أكبرْ يا فتى أكبرْ بسرعة كُلْ أكبر كمية من لحم الكبد، ليشتد عودك وتشارك أهلك وعشيرتك غزواتهم الليلية وطلبهم للثأر ".

-4-

عندما تبدأ معارك عشيرتنا مع المعدان، وهي معارك كثيرة وقديمة وأقدمها ضارب في الزمن الماضي، ولا يمكن لأحد تحديد أسبابها أو وضع حد لها.

وتتحول في الكثير من الأحيان إلى مجازر جماعية تقترف من قبل الطرفين دون إنذار سابق، حيث تقف الحكومة إزاءها موقف العاجز.

وهي أمام هذا الشكل العفوي من أرتكاب الجرائم لا تتدخل عادة بين

المتحاربين، حتى يقع العجز في الطرفين، لكثرة القتلى والمصابين، وقلة الحيلة أمام الأحزان والمحزونين، واضطراب أعمالهم، وتوقف مصادر أرزاقهم.

وعند ذلك يبدأ عمل الحكومة في إحصاء القتلى، ونقل المصابين إلى المستشفيات، ونقل المتهمين بالجرائم إلى السجون والمحاكم.

وفي ليلة من تلك الليالي الضاجة بالقتل والأطلاقات النارية، وفي الهزيع الأخير منها أستيقظت على أصوات همهمات، ونداءات خافتة وفي عيني النعاس.

رأيتهم على ضوء شعلة النفط المسودة الحواف، وأعمامي يستعدون للذهاب لسرقة المعدان، ونهب جواميسهم وخرافهم وبقرهم ودجاجهم، وذهب نسائهم.

وهم يدعون الله مخلصين أن يوفقهم في غزوتهم، ويعمي عيون المعدان فلا يرونهم، ويكسر لهم سيقانهم، فلا يتبعونهم، وتخيب رصاصاتهم فتصيرطائشة تقتل أصحابها، ويجعلها عليهم برداً وسلاماً.

ورأيت جدتي وسطهم بملابسها السوداء، ولفافة رأسها البيضاء توقظ هذا وتجر الغطاء عن ذاك، وتشجع هذا وتنغز ذاك بكوعها!

وعندما خرجوا من الدار توضأت وصلت، ودعت لهم الله أن يعيدهم إليها سالمين غانمين، وتكحل عينيها في الصباح مع بقية نساء العشيرة برؤية نساء المعدان وهن يشقن أزياقهن، ويصرخن ملتاعات على ما سرقه أعمامي منهم خلال الليل مالاً حلالاً أقتضته النواميس وأحكام العشائر.

وعندما جاء بعد ذلك رجال الشرطة باحثين عن أعمامي، وأبي زغردت جدتي منبهة أهل الدار، والجوار فهرب أعمامي من أبواب وفجوات خلفية، ومن خلال السطوح القريبة.

واختفى أصغرهم في تنور الجيران وأوسطهم في خم الدجاج أو تل التبن والقش وبحث رجال الشرطة في الدار الفارغة من غرفة إلى أخرى ومن مجاز إلى ممر.

ولم يجدوا أحداً فأخذوا جدي بلحيته البيضاء وعقاله قد سقط حول رقبته، وكوفيته المرقطة على رأسه الأصلع، وهو لا يتوقف عن لوم امرأته –جدتي – لأنها لم تطعه بترك المدينة، التي أنزلت من قدره كثيراً، والعودة إلى قريتهم، التي لا يلمحون فيها شرطياً ولا رجلاً يرتدي زياً حكومياً لأشهر عديدة.

وبسبب أعمال أعمامي وأبي – بعد ذلك بمدة – ألقي القبض على جدي

وضربه رجال الشرطة بالخيزران على قدميه الحافيتين، وأشترك في ضربه مفوض الشرطة السمين، ونائبه القصير، وأطلقوه بعد ذلك بكفالة مالية وهو يوشك على الهلاك.

وصار لا يستطيع المشي على قدميه المتورمتين، وعندما رأت جدتي الجيران يحملونه في بطانية صوفية باتجاه بيتنا زغردت بأعلى ما تمتلك من صوت، معتقدة أن من يموت في سجون الحكومة فهو شهيد، وأن جدي صار واحداً من هؤلاء الشهداء!

وفي ذلك الوقت حين لا يجد أعمامي من يتشاجرون معه عادة يحدث العراك بينهم، وترعبك خناجرهم المعقوفة التي يستلونها من أغمادها بلمح البصر، ووجوههم القاسية تزداد قسوة، وقد لوحتها الشمس وشواربهم ترتجف من غضبهم الشديد.

فترشقهم جدتي بسطل من الماء البارد معتقدة أن الشيطان بينهم، والشيطان قد خلق من نار، ولا يطفئ النار غير الماء، وتصح معتقدات جدتي، وينشغل كل واحد منهم بملابسه المبللة، وينسون الشجار وأكثرهم يفرون ضاحكين من وجه جدتي، فهي في نهاية الأمر ستقذف أقرب واحد منها بالسطل المعدني الفارغ وتشج رأسه!

الغريب في الأمر أن أعمامي السبعة يبدون وكأنهم في عمر واحد، حتى أن بعض الغرباء لا يعتقدون على الإطلاق أنهم إخوة بل عصابة من الأشرار.

جمعت بينهم أعمال النهب والقرصنة، وحين كانت جدتي تسمع ذلك الهذر تتعوذ من الحاسدين وتبسمل وتحوقل، وتستعيذ من النظرات النجسة، وتحرق البخور وتقص من لحية جدي البيضاء خصلة، وهو نائم وتحرقها في المبخرة.

حتى غدت لحية جدي، التي كان يضرب بها المثل لوقارها، وطولها قصيرة منتوفة كخرائب مدينة أثرية.

وحين كان يسألها جدي في الصباح، وهو يتمرأى بالمرآة المشروخة عن تناقص لحيته المخزي!

تخبره هامسة أنها بخرت لأولاده منها لتعمي العيون النجسة، فيثور جدي، ويتهمها بالجنون، ويهددها أنها لو مدّت يدها ثانية للحيته وهو نائم سيعرف كيف يربيها.

وتسكت جدتي معترفة بذنبها مطيبة خاطره بان الأولاد أولاده، وعليها أن تحافظ عليهم وتحميهم، فيهدأ غضبه ويهز كفه في الهواء أستخفافا

من عقلها الخرف، الذي لا يفهم شيئاً من المدينة ولا يتطور أبداً.

كانت جدتي في ذلك الوقت الخاص تحرص على حلاقة شعري بكامله بالموس معتقدة أن الشعر الطويل من علامات التخنث والميوعة، التي لا تليق بالرجال.

وحين اسألها أن تتركني لأذهب إلى أمي تسرع وتضع راسي الخالي من الشعر المدمى في مواضيع كثيرة، وقد أخطأت شفرة موسها أجتثاث شعري فأجتثت قطعة من جلد رأسي بدلاً من ذلك في حضنها، وتهمس لي أنا أمك!

فأصدقها وأنام في حضنها الدافئ...

-5-

هكذا كانت تمضي أيامنا، رخية بسيطة لا تعقيدات فيها، وكان كل ما يقع خلالها من خير وسوء نحمد الله عليه، ونتمنى فيه حسن العاقبة.

حتى رأى أبي أن البقاء بأنتظار ما تجود به علينا أرض جدي من خيرات هو من فعل الكسالى، ولأنه وأخوته بعدما عاشوا في المدينة ـ كنا نعيش على أطرافها، لا يستطيعون العودة إلى الأرض، وتحمل مشقات العمل فيها.

فقد تعلموا الكسل في المدينة، ومزاولة الأعمال البسيطة، التي تنحصر عادة في بيع الغلة التي تنتجها أرض جدي بواسطة فلاحين يعملون بالأجرة.

ويستغرق منهم عملهم هذا أياماً قليلة تنحصر عادة في المواسم الزراعية، وأشار احد أصدقاء جدي على جدي أن يشاركه في متجر كبير ففعل وشاركه.

وكان المتجر يبيع الحبوب ويصدر بعضها إلى الهند وإمارات مشايخ الخليج، والمحمرة وعبدان، وكان جدي يفاخر دائما بجده الذي كان تاجراً للخيول العربية الأصيلة، والتي يقوم بنقلها فوق جباشة تحمل شراعاً وتسير على امتداد شط العرب..

وسواحل الخليج العربي حتى الوصول بها إلى سواحل الهند، فيبيع هناك ما حمله من خيول في تلك المدن البعيدة، ويعود حاملاً على جباشته: التوابل والعطور الهندية والمنسوجات الفارسية.

وكان الوحيد من أخوته المزارعين الذين رفضوا العبودية، للأرض وهو الوحيد بينهم الذي كان له عدد كبير من البيوت والزوجات:

واحدة كانت ابنة عمه من البصرة، وأخرى كانت تعيش في مشيخة البحرين، وثالثة في بومباي، وأخريات لا نعرف عنهن شيئاً.
وقد خرق أبي بعد ذلك ما فعله الجد الأول، وتجاوز تاريخ أسرتنا الطويل في الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة، وقرر في غفلة من الجميع أن يشتري حافلة لنقل المسافرين تسير بين المدن العراقية من ذلك النوع الذي ظهر في الشوارع القليلة في الخمسينات من القرن الماضي، ويسمى شفر وليت.
التي كان نصفها الأعلى من خشب الصندل وإلجام المصقولين، والنصف الأسفل من الحديد، وبالرغم من أن جدتي لا تتنازل عن ذهبها لأحد – حتى – لجدي في أيام ضيقه وحاجته، طالبة منه دائماً أن يبيع جزءاً من أرضه الواسعة في الجنوب بدلاً من ذهبها العزيز.
لكنها أمام توسلات أبنها الكبير – الذي هو أبي – ولهفته وحيرته تنازلت عن بعض خزائنها من ذلك الذهب، ليشتري أبنها حلمه، تلك التحفة الكبيرة العجيبة، التي يسميها أبنها بسرور، ومحبة باص الخشب – والتي ستدر عليهم المال الكثير..

-6-

أشترى أبي تلك الباص الخشبية، واختار سائقاً ليقودها باجرة يومية، وكان سعيداً بالعمل مع السائق كمساعد يجمع أجرة الركوب من المسافرين في كيس من القماش خاطته له أمي.
وكان يعود إلى الدار بعد غياب يومين أو أكثر محملاً بالطيور والدجاج والأسماك، ويفرغ كيس قماشه المملوءة بالدراهم، والدنانير في حضن جدتي، فتبتسم متبرمة، مذكرة أبي بالمال الكثير، الذي صرفوه لشراء كل هذا الخشب المصبوغ، الذي لا يساوي قلادة من قلائدها التي باعتها.
مذكرة أبي أن الذهب القديم الذي باعته لا يماثله أي ذهب جديد آخر في العالم كله، وكل ما في السوق الحالي من ذهب، هو في حقيقة الأمر صفيح لا قيمة له، وإذا كانت له قيمة ما، فهي ضئيلة، والسبب يعود إلى أن ذهباً قليلاً حقيقياً يخلط مع الكثير من الصفيح، ليبدو وكأنه ذهب حقيقي.
ذلك الربح اليومي من السيارة شجع أبي لتعلم السياقة، ليقوم بقيادة باصه بدلاً عن سائق يكلفهم الكثير، إضافة إلى أن السائقين الذين

أستخدمهم للعمل في سيارته، كانوا لا يواظبون على عملهم.
فبعد أن يقبضوا أولى مرتباتهم حتى يشعر الواحد منهم أن عليه أن يأخذ إجازة طويلة يصرف خلالها ما كسبه من مال، وخلال فترة قصيرة تعلم أبي قيادة الباص الخشبي.
وجمع عائلتنا الكبيرة في باصه الخشبي، ليأخذنا في نزهة صوب أرض جدي في الجنوب ويرينا بالمناسبة مهاراته في قيادة الباص الضخم، وطيلة وقت الرحلة كانت جدتي تصرخ من الخوف، وتطلق شهادتها" بأن الله واحد ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن أمامها علي وأولاده الطيبين الطاهرين حجج الله في الأرض، وأن القرآن كتابها، ومكة المكرمة قبلتها ".
معتقدة أن أبنها سيلقي بهم في النهر عما قريب، أو سيدخل بسيارته أحد البيوت القديمة المطلة على الشارع، الذي ستسلكه السيارة.
وكان جدي ممسكاً بيدها يتلو آيات من سورة البقرة، معتقدا أن ملك الموت عليه السلام يجلس معهم في صدر السيارة بأنتظار الفرصة المناسبة لأنتزاع أرواحهم!
ويردد تلك الآية التي تقول ما معناه " أن المال والبنين أعداء للإباء المؤمنين " وشاء الله أن يندلق وعاء اللبن الملئ، الذي تحمله جدتي في حضنها في منحدر قوي للطريق، فتلطخت لحية جدي، وثوبه باللبن الدسم.
وأبي لا يوقف السيارة، لأن الطريق كان ضيقاً بممر واحد، وعلى حافة نهر ومخافة أن تصدمنا سيارة آتية من الخلف عندما يتوقف فجأة.
وأبي قال لهم في ذلك اليوم، انه سائق مثل أي سائق آخر، وركبوا معه من قبل، لكن في قرارة نفوس العائلة أن أبي لا يزال تحت التمرين، وليس سائقاً حقيقياً يمكن الاعتماد عليه في قيادة كل هذا البلاء الحديدي المزمجر طيلة الوقت!
كانا يستصغران أبي ويذكرانه بأنه من أكثر أولادهما غباء وقلة معرفة ولو أعترف العالم جميعاً بأنه يفهم شيئاً في هذه الحياة، فأنهما الوحيدان اللذان لن يصدقا تلك الكذبة!
وسيقولان عن أبنهما انه أسوأ من حمار وأكدش من بغل، وأبي يسمع كل ذلك منهما فيقهقه ضاحكاً، ويزيد من سرعة الباص، وجدتي يتعالى صراخها، وجدي المسكين يمسح اللبن عن وجهه، ولحيته، وأعمامي يصفقون مع نسائهم، وأطفالهم.
وكنت أجلس قريباً من أمي أرى تلك الحقول الخضراء الراقصة حول

سيارتنا، وهي ترتد إلى الوراء، وذلك الحشد الكثيف من النخيل المثمر، وداليات العنب، وأشجار الرمان المزهرة، والأطفال العراة الذين يستحمون في السواقي، وأولئك الرجال بدشاديشهم البيض ويشماغاتهم، وهم يتوقفون عن السير ليراقبوا ذلك الباص الخشبي الممتلئ بالمصفقين والمصفقات.

وهو يمر وتلك القبب الصغيرة الخضراء المنزوية، تحت أشجار السدر والنخل قريباً من السواقي والشاخات، كل ذلك الزمن الجميل مر بلحظة كأنما لم يمر علينا أبداً......

-7-

لا نعرف من أي كراج التقط أبي مساعده الجديد، اليتيم، المسكين، الضائع في بغداد بلا أهل ولا أصحاب.

اخبرنا أبي إنه ألتقطه بعد أن رق لحاله، وتركه ينام في سيارته ليحرسها ليلاً في الكراج، وصباحاً طلب منه أن يعمل معه كمساعد يجمع الأجرة من الراكبين، ويمسح زجاج السيارة، ويبدل زيتها، ويساعده في تغييرالإطارات المثقوبة، مقابل طعامه وشرابه وسجائره وأجرة قليلة يدفعها له كل أسبوع.

كان الشاب مرتاحاً لعمله مع أبي، ويقبل يده كما أخبرنا أبي في الصباح، كولي لنعمته، ويقول أبي متنهداً، وذلك التواضع والعرفان بالجميل الذي أظهره الشاب، هو الذي خدعني عن أستبصار نوايا هذا الشيطان الصغير.

وتبادر سؤال إلى ذهني بعدما كبرت، وأخذت أحلل ما حدث، وأنا أضعه تحت منظار العقل، هل أساء أبي إلى ذلك الشاب المراهق؟ هل أهانه بالقول أوضربه وشتمه على عادة السائقين القدماء مع مساعديهم؟ أأحمله ما لا يطيق؟

هذه الأسئلة لا إجابات شافية لها. أتذكر تلك المرة الوحيدة، التي رأيت فيها ذلك الشاب، وإنا أقدم وعاء اللبن لأبي وضيفه، وهما يتناولان غداءهما في بيتنا.

رفع رأسه والتقت عيوننا، هو ذاته الرئيس الحالي للبلاد، لكنه كان بلا

شارب وأصغر سناً بوجه نحيل، وشفته السفلى تميل إلى الأعوجاج، وسمرته تختلط بصفار ينبئ عن سوء تغذية مزمن، ورأس مغطى باليشماغ، وأصابع طويلة كأصابع عازف آلة قانون، وذلك الوشم الأزرق المميزعلى كفه.

وعندما رأيته واقفاً بعد ذلك، وهو يأخذ مني صرة الملابس القديمة، التي جمعتها أمي من ملابس أبي، ليصلح بها حاله، رأيت عرجه الخفيف الذي لا يمكن أن يغيب عن الناظر المدقق، ويبدو واضحاً جلياً لكل الناظرين إثناء مشيه، ولكنته البدوية المختلطة بكلمات أهل الريف من شمال بغداد، ومحاولته الدائمة التملص من النظرات الموجهة إليه، كأنما هو يريد أخفاء قسمات وجهه عن محدثيه، بما يستطيع من حركات ممزوجة بدهاء فطري، مثل هارب من متابعين كثيرين يطلبونه، فوشمته غريزة الطريدة بوشمها، فظهر ذلك في تصرفاته وكل حركة من حركاته، وصار يقبل الإحسان من كل أحد يقدمه إليه معتقداً أعتقاداً راسخاً أن على ذلك المحسن فعل ذلك ليزيد من التشويش، وإرباك الآخرين، وجعلهم يصدقون إنه مجرد مسكين تحل عليه الصدقة، وليس فيه ما يثير الريبة والشكوك، وإنه في موضع الضحية لا الجلاد!

لم يكتمل هذا البورتريه لذلك الشاب إلا بعد سنوات كثيرة من العذاب، والتفكير بمصير أبي، ورسم صورة لذلك المسبب الحقيقي لما آل إليه حالنا ومصيرنا، مستحضراً تلك اللحظات التي رأيته فيها أول مرة مدققاً في كل جزء صغير من اللوحة، الشاملة لذلك اليوم.

إذ بعد بأيام قليلة جاء أبي وقد فقد نصف عمره، وأزداد نحوله وأصفر وجهه، وأتسخت ملابسه ليبلغنا بصوت محبط راجف أن الشاب الذي أستخدمه كمساعد قد غدر به، وسرق ذلك الباص، وأختفى عن الأنظار وذهب بحثه عنه سدى، وفشلت الشرطة في العثور عليه أوعلى الباص المسروق.

-8-

ولدته امرأة ولم تلده ذئبه كما يدعون وتروج لذلك صحف الدولة، وإذاعاتها وأقسم في ليلة باردة في كراج علاوي الحلة، وكان يعمل مساعداً لسائق شاحنة لقاء طعامه ومنامه.

أقسم أمام كومة من الجرائد القديمة التي تحترق، وقد أجتمع حولها

شحاذو ومشردو المدينة وامرأة عجوز تبيع الشاي... أقسم في ذلك المكان أن يجعل أبناء وطنه بلا أباء معروفين لعدة أجيال، وسينسيهم بعد ذلك الوفاء للأب والأسرة ويجعل الناس تتساءل بحيرة عنه: أهو فعلاً ذلك الصبي اليتيم الذي يلبس ملابس غيره، وتنوشه الأيدي بالضرب والأهانات؟

هل هو هذا الجالس ألان على الكرسي المذهب بملابسه العسكرية المزركشة، وصدره يمتلئ بالأوسمة والنياشين، وبإشارة من يده تحرق المدن، ويُقتل الناس، وتتحول زرقة السماء إلى السواد بشخطة قلم، وتوقيع صغير كرمية السهم؟

يتعالى الصراخ وتضج السجون بالناس المربوطي الأيدي إلى الخلف وقد وضعوا في شاحنات حولت إلى أقفاص حديدية، يقهقه كالمجنون ويوقع ورقة لا يدري ما تتضمنه، وحين تقع عينا رئيس تشريفات القصر على سطور تلك الورقة، يعرف إنه وصل إلى حلمه أخيراً وأصبح رئيساً للوزراء في الحكومة، واستطاعت وزته الجميلة أن تقنعه بوسائلها التي يفهمها، وطرقها العجائبية في إرضاء الأذواق، إذ جعلته يوقع على ما تريد وهو مغمض العينين!

مدّد ساقيه وأبتسم وفكر، أن رئيس التشريفات بشعره المفروق من الوسط، وسنه الذهبية لا يعرف مصير رئيس الوزراء السابق!

الذي تحول في نصف نهار صيفي إلى أجزاء مهضومة في عشرة كلاب مسعورة، وفكر ساخراً من الحياة: أحقا أن رئيس وزرائي المهذب تحول إلى أجزاء في عشرة كلاب مسعورة ؟ يبدو إنه تحول فعلاً فقد صارت هذه الكلاب أكثر هدوءاً وتعقلاً !

- 9-

وما أن بدأت حصة التاريخ حتى جلس الرئيس بين يدي معلمه الأستاذ "جون ماكفي" الذي يجيء إلى غرفة الدرس، وقد شرب كأسه الثالث، وأنتشى، فصعد درجات السلم الخشبية المؤدية إلى منبر الدرس المغطى بقماش أسود، وبالرغم من أن الأستاذ قد اعتاد إعطاء الدروس في التاريخ القديم والحديث لتلميذه، منذ زمن بعيد.

وقد كان يعرف أن تلميذه شديد التعلق بمادته، وينظر بعينين مبهورتين إليه طوال الدرس – إلا أنه لم يتوقف عن رواية الطرائف، والنكت التي قرأها فيما قرأ من التراث العربي، وكان الرئيس تواقاً لسماع نكاته وطرائفه، التي تزيد الدرس تشويقاً ومنفعة، وقد روى يوماً له فقال:

عن ذلك القاضي الذي كان يقضي بين العراقيين في بغداد في أيام، هي أسعد أيامها، إذ جاءته امرأة حسناء في دعوى ضد زوجها، ومعها عشرة شهود شباب، فدخلت المحكمة تتهادى في مشيتها، فبادرها بالسؤال قائلا:

- هل جامعك الشهود؟

فثارت عليه، وتعصبت، فقال لها كاتب المحكمة مصححاً:

– إن القاضي يقول لك: هل جاء معك الشهود؟

فقالت:

– نعم. هلا قلت مثل ما قاله كاتبك. لقد كبر سنك، وقل عقلك، وعظمت لحيتك حتى غطت على لبّك. ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك.

وكانت فيما يبدو أفصح من القاضي وأبلغ. أبتسم الرئيس، وهو يقلب قول تلك الحسناء في رأسه ويعجب لبلاغتها، وفي هذه الأثناء دخل أثنان من الصم البكم من معاوني الأستاذ، وهما يحملان خارطة ملفوفة ثم فتحاها وثبتاها بمسمارين على السبورة الخضراء – كانت خارطة ملونة للعراق، وأنسحب المساعدان إلى خارج قاعة الدرس.

تجشأ الأستاذ وقال بعد ذلك بعربية فصيحة، فيها لكنة الأجنبي الذي تعلم اللغة العربية على كبر:

- تكملة لمحاضرتنا السابقة أقول أن المحصلة النهائية للعنف الشديد في تاريخ العراق، قاد الإحداث نحو بؤرة للعنف المتكرر، مثلما يحدث عادة لأمواج البحر المتوالدة، والمختفية، لكنها باقية ماثلة للعيان كموجة، وحيدة بالغة العنف والتأثير ...

فمثلا لو رجعنا إلى الألف الثالث قبل الميلاد، والى عصر فجر السلالات في العراق نجد أن المدن العراقية كانت تدار، وتحكم من قبل إحدى السلالات المعروفة، والتي سميت تلك العهود القديمة بعصور "دول المدن".

ومن بين تلك الدول دولة كيش وأوروك وأور ولكش واوما، وكانت كل مدينة من هذه المدن، هي النموذج الحالي للدولة الواحدة، ونظام الدولة، هو أكتشاف عراقي مئة بالمائة –

وهنا تجشأ الأستاذ من جديد، ومد يده اليسرى إلى صدره تحت سترته

الرمادية واستبقاها هناك، وهي عادته حين يسترسل في درسه – كان الأستاذ في الخمسين من عمره نحيل البنية، وله وجه شمعي وشاربان دقيقان كعادة الانجليز عندما يحلون في دول المشرق، فهم يبقون على انجليزيتهم في تصرفاتهم، وأحوالهم كافة مع ظهور بعض تأثيرات أهل المشرق على بعض سماتهم الشخصية.

وبالرغم من ضعف بصره إلا إنه لا يضع نظارتيه الطبيتين على عينيه طوال الوقت، ويستعين بهما فقط – عندما يخرج من جيبه ورقة فيها معلومات محددة يريد أن يقرأها على طالبه، أو حين يقف قريباً من السبورة لتوضيح شيء ما على الخارطة المعلقة أمامه.

كما أن من عاداته تدريس مادته لطلابه من رفيعي الشأن بطريقة الأسترسال في قول فقرات درسه دون الاعتماد على تدوين الطالب لملاحظات تعينه فيما بعد مما يقوله الأستاذ، وهو يمنع ذلك، وهو مؤمن تماماً بالقوى الخارقة، التي يملكها المخ الإنساني، وقابلياته اللا محدودة على استعادة أي شي عرفه من قبل في اللحظة الحاسمة.

لذلك جلس الرئيس بين يديه متوقد الذهن يحاول أن يلم الماماً واسعاً وواضحاً بكل فقرة يقولها الأستاذ وأكمل الانجليزي:

ـ وهكذا يا سيادة الرئيس، فإن الأجداد تركوا لك كتركة رجل أنجليزي في الحكاية البريطانية لملجأ الأيتام فقد أوصي بترك كل ما يملكه لأحد ملاجئ الأيتام، وعندما ذهبوا لجرد التركة وجدوا 9 أطفال، فها أنت ترث عنف الأجداد وقسوتهم، وكيفما تحاول ستجد نفسك مشروعاً لتكرار العنف وإن لم تفعل صرت أنت ضحية له!

لقد مارست هذه الدول أو ما سمي فيما بعد بدول فجر السلالات عنفاً منقطع النظير فيما بينها، كأنما تؤسس للعنف القادم على مدار القرون، وتؤسس أيضاً للشخصية العراقية المتضررة في عنفها، وتقلبها المزاجي ومحاولتها الدائمة لفرض رؤاها بشكل عنيف لم يسبقها إليه أحد من قبل.

إذ نرى انه بالرغم من أن هذه المدن تقع في سهل رسوبي واحد ولا تفصل بينها تضاريس معيقة كالجبال والبحار والموانع الطبيعية الأخرى كالمستنقعات الواسعة، التي يصعب عبورها في ذلك الوقت أو الهضاب الصخرية إلا أنها لا تجد السبيل السلمي للأتحاد، والتلاقي بالرغم من وحدة التضاريس وتشابهها، والأرتباط الإنساني، ووحدة المناخ، وأقتراب مفاهيمهم العقائدية – الوثنية-

فنجد بالرغم من كل هذا أن المدن تمارس الحروب بينها، والإلغاء

ألتدميري لبعضها البعض!

- 10-

منذ سنوات عديدة كان شاباً صغيراً لم ينبت له شارب بعد ولم يكن يحلم بشيء أكثر من قضاء حاجاته الضرورية.

ضاقت به السبل يوماً وسيطرت عليه الحيرة فإبن مدير مدرستهم دخل عليهما دار خاله فوجد الدار فارغة، كما بدت للوهلة الأولى، وهو يفعل ذلك كلما جاء ليطلبه في أمر ما ثم أخذ يبحث عنه في غرف الدار من غرفة إلى أخرى دون أن يصدر صوتاً.

كان ينوي أن يفاجئ صديقه بأمر يهمه فسمع أصواتاً مكتومة تصدر من غرفة في زاوية الدار تستخدم لخزن الأشياء القديمة..

كانا في سنوات صداقتهما السابقة مولعين بأختراع الإجهزة الميكانيكية البسيطة ركبا سخاناً صغيراً يعمل بالنفط، وعملا ورقة مطوية على خيط من المطاط تم مطه، وحالما تفتح الورقة يجيئك صوت يشبه صوت حركة الأفعى.

جلبوا من المطبعة الحكومية أوراقاً إيجابية تضغط عليها بكتابة بارزة فتترك أثراً مماثلاًعلى الورق العادي...

عشرات الاختراعات الصغيرة قاما بتنفيذها معاً، وأخر مرة أشار عليه صديقه أن يصنعا طائرة ورقية تحمل شيئاً ثقيلاً.

وهي بداية موفقة لإختراع طائرة حقيقية كبيرة يحلقان بها بعيداً صوب سوريا ولبنان حيث المتع ومزايا السفر، التي تحدثا عنها طويلاً في خلواتهما..

فتح إبن الحاج سعدون الباب بهدوء وفي زاوية الغرفة المظلمة رأى منظراً عقد لسانه دهشة ورعباً كان صديقه وامرأة خاله أمام جثة طفل صغير، وبسكينة ملوثة بالدم يفتحان صدر الميت ليستخرجا منه شيئاً ما والدماء في كل مكان من الغرفة!

وومضت في ذهنه والرعب يكاد أن يشله صورة الصغير، الذي فقد قبل أيام قليلة، ولم يعثر عليه أحد..

رجع إلى الوراء كأنما لدغته مئات العقارب، وشاء حظه السيئ أن يلتفت صديقه التفاتة سريعة إلى الوراء، وصرخت المرأة بصوت مخنوق بعد أن رأت غريباً في الدار.

هرب إبن الحاج سعدون لا يلوي على شيء، والعرق يبلل جسده وسمع صديقه يقول لامرأة خاله لا عليك إنه إبن الحاج سعدون صديقي، ولن يشي بنا أبداً.

في ذلك اليوم البارد كان إبن الحاج سعدون مرتبكاً خائفاً، ورآه أبوه مصادفة على الباب، فاستجوبه بلطف كان يعرف كيف يستنطق الأولاد ليعرف أسرارهم الصغيرة.

وبعد أخذ ورد عرف تفاصيل المصيبة التي رآها أبنه وتساءل وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم أمعقول هذا؟ أتفعل زوجة الأستاذ بإبن الناس فعلتها الإجرامية من أجل سحر أسود؟

كان يعرف خال الصبي اليتيم، الذي تعهد إبن أخته بالتربية بعد زواج أخته، وذهابها مع زوجها إلى قرية أخرى، وبقي الحاج سعدون تلك الليلة يضرب أخماساً بأسداس متسائلاً مع نفسه ماذا يفعل؟

أيقول للخال عما رآه أبنه؟ أم أن الأمر برمته من بنات أفكار، وخيال أبنه وأن بصره خدعه، والسحر الأسود الذي تمارسه ربة الدار منذ زمن بعيد قد أوحى لأبنه بهذه الصورة البشعة التي رآها.

وسيمنع الكبرياء الرجل المنكوب بهذه المرأة المخرفة تصديق ذلك الهذر، وسيعود عليه هذا الأمر بعداوة شديدة من الرجل، وهو يعرف حماقات الأستاذ خيري، الذي طمح منذ زمن ليس بالقصير أن يصير مديراً لناحيتهم.

وتذكر تقاريره التي كان يبعثها إلى أمن العاصمة عن الشيوعيين الموجودين في الناحية.

كل ذلك جعل ذهابه إلى مركز الشرطة، لتدوين الأمر الذي رآه أبنه مخاطرة كبيرة، وكذلك ما سيجره هذا الأمر عليه من أهل الضحية، وربما يعرضه الأمر للإتهام ولا دليل عنده غير مارآه أبنه المراهق.

وقرر الرجل أن يكتم الأمر عن أفراد عائلته أيضاً، وطلب من أبنه ترك الأختلاط باليتيم، وبقي الصراع داخله يمور يوماً بعد آخر، ولم يتوقف أبنه عن الذهاب إلى صاحبه خلسة بالرغم من تنبيهات أبيه المتكررة له.

أراد أن يعرف أسرار السحر الأسود، الذي يمارسه صديقه مع امرأة خاله، وبعدها بأيام ألتقيا مصادفة في الخلاء بعيداً عن بيوت الناحية الطينية.

كان اليتيم يعبث بقطعة خشب فسأل صديقه إبن الحاج سعدون وهو يبري قطعة الخشب بسكين دون أن ينظر إليه.. هل أخبرت أحداً عما

رأيت صباح ذلك اليوم؟
- لا لم اخبر أحداً.
- أصدقني القول نحن أصدقاء؟
قال مرتبكاً
- في الحقيقة...
- في الحقيقة ماذا؟ هل أخبرت أحداً؟
- فقط أبي عرف بالأمر ... وجدني مرتبكاً فقصصت عليه ما رأيت!
خوص اليتيم بعينيه وسأله من جديد الم يخبر أبوك أحداً؟
- طلب مني ألا اختلط بك ...
- هل أخبر أحداً؟
- لا لو كان فعل ذلك لعرفت !
- حتى العائلة؟
- حتى العائلة!
- أنظر أذن إلى هذه السكين؟

حدق إبن الحاج سعدون بالسكين وضعها اليتيم أمام عينيه، وبحركة سريعة أدخل نصلها إلى قلب الفتى! نظر إليه المغدور، وهو غير مصدق وسحب اليتيم السكين بسرعة ومسح الدم عنها.

بقي الفتى دقيقة ينظر إليه متألماً، كان القاتل ينظر إليه، كأنما يواسيه ويعتذر عما صنع به.. أصفر وجه الفتى بعد لحظات، ورفس برجليه ممسكاً مكان الجرح الذي أخذ الدم يتدفق منه بغزارة، ولم تمض دقيقة حتى أنكفأ إبن الحاج سعدون على وجهه قريباً من ضفة النهر، تلفت قاتله لم يكن أحد في المكان.

جمع حاجاته بسرعة ومضى من فوره إلى البيت خاله. عرفت امرأة خاله حين رأته قادماً أن وراءه مصيبة، ودخل غرفه نوم خاله ودون أن يتكلم أخرج مسدس الخال، دخلت عليه امرأة خاله وجدته يملأ المسدس بالعيارات النارية، ظهر الخوف في عينيها "ماذا تريد أن تصنع بنفسك؟ " قال لها ببرود: الحاج سعدون سيثرثر بما رأى أبنه في غرفة الحاجات القديمة وعلي أن أخرسه إلى الأبد!
- لا تدمر نفسك!
- سنضيع أن لم أفعل هذا!

في مساء اليوم ذاته وجدوا الحاج سعدون مقتولاً بطلقة نارية في فمه أخترقت جمجمته، وخرجت من مؤخرتها، وسائل أبيض كان يسيل من

منخريه وبعد ذلك بفترة قصيرة عثروا على جثة أبنه قريباً من النهر، فأقاموا لهما معزى واحداً.
وأختفى في ذلك الوقت اليتيم من القرية، فثارت الشبهات حول علاقته بجريمتي القتل، امرأة خاله همست بإذن زوجها بأن الذي فعل الفعلتين هو أبن أخته إلا أن الخال دافع عنه بأستماتة ونعتها بالجنون.
بحثت الشرطة عن المراهق اليتيم لتستجوبه، وعندما لم يعثروا عليه أتهموا خاله بالجريمتين، لكنه أثبت لهم إنه كان في مكان آخر ساعة وقوع الجريمتين.
وأرسل إعلاناً إلى جريدة في العاصمة يتبرأ فيها من إبن أخته، الذي صار مطلوباً من الحكومة للتحقيق معه، ولكن المراهق أختفى في العاصمة، ولم يظهر في تلك الناحية طوال سنوات تشرده التالية.
أعتقدت عائلة الحاج سعدون أن أخاهم قتل بتحريض من نظام الحكم الملكي بسبب إتهام عائلتهم بالعمل بالسياسة، كمعارضين للحكومة، ولم يتوقع أحد منهم سبباً غير هذا الدافع السياسي.
ولكن المحير في الأمر بالنسبة للجميع كان مقتل الابن المراهق! الذي لم يكن يعرف شيئاً من أمور السياسة.
وحين تم الأنقلاب على الملكية، وجاءت الجمهورية، قدمت هذه العائلة شكوى إلى ما سمي بعدئذ بمحكمة الشعب، ونشرت محاضر الشكوى ضمن محاضر عديدة وأستدعي الأستاذ خيري إليها ليدلي بشهادته حول الشكوى المقدمة ضده، وضد إبن أخته.
ونشرت فيما بعد الشكوى ضمن مجلدات، محكمة الثورة، وسببت صداعاً لليتيم المراهق، الذي أصبح فيما بعد مسؤولاً كبيراً في الدولة، وأمر بإتلاف نسخ هذه المحاضر القديمة، وتقديم مبالغ كثيرة لكل مواطن يقدم نسخة من هذه المحاضر المطبوعة ككتاب ضخم.
ولكن بالرغم من كل هذا التعتيم على الموضوع، أستطاع الناس الحصول على بعض هذه النسخ وأطلع الكثيرون عليها من أبناء الشعب ليعرفوا تفاصيل غامضة عن حياة ذلك الرئيس قبل أن يعمل بالسياسة بوقت طويل!

– 11 -

أخرج الأستاذ كفه من تحت سترته عند الصدر، ونظر إلى طالبه

بعينيه الخرزيتين ليعرف مدى متابعته لما يقول، وأكمل بعد لحظات: الذي حدث فعلياً بين تلك المدن، كانت حرب إبادة شاملة، حسب مفهومنا الحديث، لما تعنيه كلمة الإبادة من قتل الناس ـ بغض النظر إن كانوا من المحاربين أو من الشعب المدني، الذي ليست له علاقة مباشرة بالحرب!

ولا تتوقف الإبادة على الذكور في سن الخدمة العسكرية، كما هو معروف بل تعداها إلى قتل الأطفال إناثاً وذكوراً..

والنساء والشيوخ وحتى قتل المعاقين والمجانين، الذين لا تخلو منهم أية مدينة من تاريخ البشرية، وتشمل تلك الإبادة التهديم الكلي لمباني الخصم السياسية والاقتصادية.

وتتعداها أيضاً إلى دور مواطني تلك المدن، وهناك لوح طيني محفوظ في أحد المتاحف البريطانية، وقد جاء لنا من فترة فجر السلالات في العراق.

وقد كتبت على اللوح قصيدة لشاعر سومري مجهول الأسم يرثى فيها مدينة لجش على ما أصابها على يد لوكال زاكيزي من دمار، وتحطيم يقول في مقطع منها ـ ثم أخرج ورقة من جيبه وباليد الأخرى أخرج نظارتيه، ووضعهما على عينيه، وقرأ من الورقة ـ يقول في قصيدته أو مرثيته لمدينة لجش:

واحسرتاه على ما أصاب لجش وكنوزها
ما شد ما يعاني الأطفال من بؤس
أي مدينتي متى تستبدلين بوحشتك أنساً؟

ثم أخفى الورقة في جيبه وقال:

ـ هناك أذن المزيد من العنف في تعامل مدينة عراقية منتصرة مع أخرى خسرت الحرب، ونجد في هذه الفترة أن مملكة كيش قد سيطرت على بلاد سومر ثم ترك الأستاذ مكانه فوق المنبر وأخذ ينزل بهدوء درجات السلم الخشبية.

وتقدم صوب الخارطة المعلقة، وتناول عصا مدببة النهاية كانت موضوعة على طرف السبورة، وأشار إلى بغداد ثم نزلت العصا إلى الجنوب الشرقي منها وتمتم:

ـ كيش تقع إلى الأسفل من بغداد بمسافة 88 كيلومتراً لقد أستطاعت هذه المدينة خلال حرب إبادة كاملة للمدن العراقية الأخرى، أن تمد نفوذها وسيادتها على كل بلاد سومر.

وقد تحقق لها ذلك في عهد ملكها ايتانا في الألف الثالث قبل الميلاد،

وكان آخر ملوكها اورزبابا، الذي أزاحه سرجون الأكدي عن الحكم عام 2350 ق. م بانقلاب بدا لنا في غاية الغدر والعقوق!

كان سرجون الأكدي من اللقطاء الذين رباهم اورزبابا في قصره وأصبح فيما بعد حارساً شخصياً له وكان الملك يعامله كإبن له!

ولكن الحارس غير الأمين أطاح برأس مربيه في غفلة من الفئة الحاكمة، وجلس مكانه على عرش البلاد، وأدار طاحون القتل، والإبادة في رموز الدولة، وأصطفى بدلهم من عامة الناس وأشقياء السجون ليديروا شؤون الدولة.

وأشار الأستاذ من جديد بعصاه إلى بقعه أخرى إلى الجنوب من بغداد وأكمل – وفكر الرئيس لو أنه صار رئيساً لشعب آخر أليس أفضل له من كل هذا البلاء القابع في تأريخ هذا الشعب؟!

ولكن كيف يمكنك أن تغير طالعك أو تقلب ما فرض عليك، وقد جاء كل شيء بمثل السحر، والقدر ولا راد أحد له رداً أو لا جاعل له أحد تغييراً...

وسمع الأستاذ يكمل: وقبل أن نكمل درسنا أتذكر نكتة سمعتها في مصر عندما عملت في السفارة البريطانية في الستينات تقول:

ــ واحد قال لخطيبته لما أزمر لك تبقي أنزلي، فقالت له أنت جبت عربية فقال لها، لا، جبت زمارة، قال نكتته بلهجة مصرية محببة، فضحك الرئيس، الذي عاش في مصر في بواكير شبابه.

وعرف الشعب المصري وسر بطرائفهم، وأسعدته خفة دمهم، وأكمل الأستاذ درسه قائلاً كما ترى أني أزمر لك محذراً بزمارة الفكر، وليس معي السيارة، التي تنقذك وقت الخطر، فمعي زمارة فقط فلا تنسَ هذا!

لقد قلنا في محاضرة سابقة أن مملكة أوروك سيطرت على بلاد سومر، وهذه المملكة في الحقيقة ما يسمى ألان بالوركاء، التي تقع إلى الشمال من مدينة أور، وقد سيطرت على بلاد سومر بعد كيش، وقد تحدثنا في تلك المحاضرة عن أحد ملوكها المشهورين هو الملك دوموزي، الذي جعله الشعب آلها بعد موته.

وجاء من ملوك هذه الدولة أيضاً جلجامش الذي حكم في عام 2700 ق.م وقد تم تدوين أسطورته المشهورة بلغات تلك العهود، وهي السومرية الاكدية، والحيثية.

وقد تطرقنا إلى محتوى تلك الأسطورة، وما جاء فيها في درسنا الرابع بعد المائة تحت باب أساطير العراق، وكيفية توظيفها لخدمة الحاكم العراقي.

وعلاقتها المستقبلية بأسطورة البطل الإغريقي هرقل، وكيف وظف الإغريق هذه الأسطورة أيضاً لخدمة أهدافهم الحربية، وتهيئة الناس للفتوحات، التي قام بها الإغريق في بحر أيجة والشرق، وتمجيد البطولة الفردية التي هي عماد العسكرية، حتى عصرنا الراهن.

وهنا فاتني أن أقول في تلك المحاضرة المهمة أن جلجامش في فترة حكمه قد بني سوراً حول أوروك، هو الأول من نوعه في العالم قاطبة، لحماية عاصمته.

وقد كان محيطه يمتد لمسافة 9 كيلومترات، وفي هذه المدينة أخترعت الكتابة التصويرية، وبعد ذلك الكتابة المسمارية، فالكتابة في العالم، قد جاءت من اختراع العراقيين القدماء، والعالم بأكمله صار مدينا لهذا الشعب بهذا الاختراع العبقري!

الذي وظف بعناية لنقل تجارب البشرية، ومراكمتها عبر التدوين للوصول للحضارة التي ندعي ألان أننا وصلناها.

كان الرئيس بكامل زيه العسكري يستمع إلى أستاذه، وفي مرات كثيرة يركز نظراته على الفراغ مستمعاً لأسماء الملوك، والأباطرة.

وتستثيره خيالاته، حول المناظر، التي يصفها الأستاذ للمدن الهالكة، والملوك الذين يقتلهم حراسهم، والبيوت المحترقة، والعقوق المنتشر بين الجميع أبناء، وبنيناً ولهفة المنتصرين، وأحلامهم العريضة، والمناظر البانورامية للجيوش، وهي تغزو المدن أو وهي تولي الأدبار أمام عدو لا يرحم هزيمتها، وطبول الحرب، وهي تقرع بعنف، وقسوة أو وهي تسحق تحت حوافر الجياد، والعربات المتقدمة أو الهاربة.

-12-

في تلك الحديقة الغناء أواخر شهر أيلول حيث يطيب المناخ وتهاجر طيور الحذاف، مارقة فوق دجلة صوب أهوار الجنوب، وتمتلئ نسمات الهواء الباردة برائحة ورد الياسمين، ويطيب للرئيس أن يمدد قدميه باسترخاء، ويدخن السيجار الكوبي بنشوة لا مثيل لها.

وتقدم له فرقة من الجميلات رقصات غريبة هو من وضع حركاتها ودرب على أدائها، فالوضع العادي للرقص في نظره يبدو متخلفاً وكان في نيته أن يكتب كتاباً عن الرقص الحديث.

لكن مستشاري الحزب والقيادة العليا فضلوا أن لا تزج الدولة أنفها في

أمور الرقص والفنون بشكل تفصيلي.
لم يكن أحد يعرف أنها كانت رغباته ولو عرفوا لجعلوا للموضوع تخريجاً منطقياً لتحقيق رغبات رئيسهم كأن يقولوا أن الرقص الحديث يزيد من أنتاج الفرد، ويضيف شيئاً لإنتاج الشعب ويزيد حوافز المواطنة ويزيد العداء للرجعية ويساهم في محو التخلف من البلاد.
أكتفى بجس نبض القيادة عبر مذكرة داخلية رفعها موظف صغير إلى رئيس التشريفات تحت عنوان تطوير الأداء للرقص الجماعي في المجتمع العراقي.
وعندما تمت دراسة الموضوع من كل جوانبه وتم تسجيل الملاحظات الضرورية عنه بمختلف ألوان الحبر، عادت المذكرة من جديد إليه فكتب عليها بخطه المائل حفظ ووقع أسفل كتابته وتمتم مع نفسه أنهم لا يعرفون قيمة الرقص ولا يستمتعون بحياتهم جيداً وأنا السبب الرئيسي في هذا التخلف في حقيقة الأمر، أنا من أنتشل هذه الحثالة وأعطاها أفضل المناصب الحكومية، أنهم لا يفهمون في السياسة، ولا في الرقص فكيف يحكمون البلاد؟
وفي النتيجة تُحسب أخطاؤهم عليَّ يريدون أن يفعل بي الشعب ما فعله بمن سبقني، ونفخ الدخان بقوة في الهواء.
كانت الفرقة الراقصة من النساء حصراً، ولاشيء تقريباً يستر عريهن غير ورقة التوت، وقد اختيرت كل واحدة منهن بدقة شديدة، وجاءت كل واحدة عبر تصفيات صعبة، ومريرة، فعليها أولاً وقبل كل شيء أن تكون جميلة جمالاً أخاذاً ثم تخضع للفحص الطبي وأستجواب المخابرات والأمن الخاص، ويرتفع ملفها حتى يصل أرتفاعه ثلاثين سنتمتراً وتعرض على لجان خاصة من وزارة الثقافة والإعلام والفنون، وأتحاد النساء ثم تعرض بعد ذلك على رئيس التشريفات، الذي يعرف ذوق الرئيس أو في الأقل يعرف الخطوط العامة، التي يحبها في أبنة حواء، فهو يريدها خنساء مرتفعة الوجنتين، غليظة الشفتين، واسعة العينين، بمؤخرة ممتلئة، وصدر غلماني، وطول فارع، وشعر منثور، وبشرة بيضاء، موشاة بسمرة خفيفة.
إضافة إلى صفات ثانوية: جبهة وجه عريضة، وصوت رقيق وحركات محسوبة، وان تكون باكراً، وبعد ذلك تدرب على طرائق الرقص التقليدية، وبعد ذلك على الرقص المطور، الذي أبدعه الرئيس.
ويوضع تحت تصرف المتدربة جهاز فيديو، ومكتبة عامرة بشرائط عن

الرقص، وفي ليلة من ليالي التدريب الطويلة يطلب منها أن تتعرى وترقص أمام عيون كاميرات سرية تنقل بثها بشكل مباشر إلى غرفة نوم الرئيس، فيختار كل ليلة واحدة أو أكثر ليتأكد من عذريتهن استعداداً لإستلام مهمات العمل في فرقة القصر الراقصة.

وتنال سعيدة الحظ في الصباح عقد شقة مؤثثة، ومفاتيح سيارة جديدة، وشيكاً بمليون دينار وحساباً في أحد البنوك الدولية برصيد يربو على المائة ألف دولار، وقطعة أرض زراعية مزودة بكرفان مؤثث، وحوض سباحة مع حارسين، وخادمتين، وطاهيتين وهوية موظف دولة بدرجة مدير عام، وأخرى حزبية بدرجة عضو فرقة في الحزب، ووسام شرف من الدرجة الأولى، ومن النوع المدني.

ومن بين الحشود المتقدمة استطاع رئيس التشريفات أن يبقى واحدة من المتقدمات لنيل هذه الوظائف لنفسه، دون أن يعرضها على الرئيس في اختتام إحدى التصفيات كانت قد خلبت لبه بوجهها الجميل المدور وصوتها الأبح، وخصرها الرقيق.

أخذ قلمه يرتجف على الورقة، وهو يشطب اسمها ليستبقيها لنفسه كان يعرف إنه يقترف جريمة الخيانة العظمى!

وأن رأسه ستكون قاب قوسين أو أدنى من شفرة الجزار، ولكن ماذا يصنع وقد أبتلى القلب بهاتين العينين الواسعتين الأخاذتين، وذلك الخنس الجميل، والبياض المتدفق كالنور، الموشى بالحمرة المحببة له.

ولم يغب عن الرئيس ما فعله رئيس تشريفاته، فقد وردته تقارير مخابرات القصر فوراً مع صورة لتلك الموظفة.

لم يعط أمراً، لكنه في ذلك المساء الأيلولي، ورائحة الياسمين تملأ الصدور بأريج محبوب، وتتعالى في كل مكان الموسيقى الهادئة، وتبث أنغامها في إرجاء الحديقة، وعندما كان رئيس التشريفات ببذلته البيضاء الرسمية، ورشاقته الملفتة للنظر يفكر بملذات الليلة القادمة، سمع الرئيس يتسائل بخبث :

- هل تزوجتها؟

والتقت عيونهما للحظة واحدة، لم يستطع رئيس التشريفات أن يحدق بعيني رئيسه طويلاً.

شعر أن رأسه سيقطع عما قريب وتأكل الكلاب جثته... أخيراً سيجرب ألم القطع حتى الموت، فهمس لنفسه بحركة رجاء أخيرة: النجاة في الصدق!

وتمتم بخوف :

- بالأمس تزوجنا!

ووقف متخذاً وضع الجندي أمام قائده، اخذ الرئيس نفساً عميقاً من سيجاره ونظر من جديد إلى رئيس تشريفاته، وداخله نما فرح خرافي وشعر بمتعة هائلة، وهو يرى اعوانه مثل تلاميذ المدارس يقفون أمامه معترفين بذنوبهم وفح من جديد متسائلاً :

- كانت عذراء؟

- هي تقول ذلك ياسيدي، ولكن خبرتي تقول غير هذا ! ويبدو أنها أجرت عملية ترقيع متقنة جداً لخداعك!

- إن كنت كاذباً قطعت لسانك!

- لا يمكنني أن أكذب في حضرتك، سأستدعيها لتسألها بنفسك!

- ذلك هو الحل الأصوب، أرسلها إلى القصر بعد ساعة، والليلة سأعرف منها حقيقة الأمر!

أنشغل الرئيس بعد ذلك بالنظر إلى ما تؤديه الفرقة الراقصة من رقصات، وانسحب رئيس التشريفات بهدوء ثم هرول والارتباك والخوف يكادان أن يسقطاه أرضاً باتجاه أقرب جهاز هاتف ليتصل بعروسه.

أنصت الرئيس لهمسات رقيقة، وضحكات مخنوقة تصدر من راقصات ينتظرن دورهن في الجوار، كن يتهيأن للوصلة القادمة، وتلك الرقصة التي يراها الآن تثير فيه ذكريات قديمة مشوشة عن قريته.

بيوتها الطينية المتداعية، وناسها الذين ينتظرون فرجاً مع كل قادم من بعيد والكلاب العجفاء النابحة طوال الليل... نظر إلى السماء فرأى ثمة غيوم سوداء تقترب، ومن جديد سمع أصوات ضحكات أنثوية، أخرج الدخان من فمه وأنفه ببطء شديد .

-13-

عادت من جديد عصا الأستاذ تؤشر موقعها على الخارطة ــ أنها تقع إلى الجنوب من بابل بمسافة 225 كيلومتراً، وتسميها التوراة أور الكلدانيين.

نحكي قصتها لكونها مدينة إبراهيم الخليل، الذي نزح منها بعد تحطيمه أصنامها ورفضه عبادتها وبعدما وضعه ملكها النمرود في نار شديدة إلا أن الله حفظه منها والمعجزة معروفة عندكم في القرآن الكريم.

ونُفي إبراهيم الخليل بعد ذلك فذهب إلى حران، وفي هذا الزمن نجد أن الضعف قد دب في أوروك، وصارت أور هي مدينه الحكم السومري في ذلك الزمن ويمكن أن يشار إلى إنه الفترة، التي أعقبت عام 2500 قبل الميلاد ولا يفوتنا أن نناقش ما أظهرته التنقيبات التي أجريت في آثار مدينة أور ومن هذه الآثار...

ـ وتوقف الأستاذ عن الشرح ليرى مدى ما أثار في تلميذه من الفضول وحين لاحظ أنتباهه الشديد للنهل من معارفه أكمل قائلا ـ

ـ ربما أظهرت لنا التنقيبات في أور أول بوادر العنف العراقي وعنف أهل الحكم في هذه البلاد منذ القدم، فقد وجدنا أعداداً كبيرة من الجثث المدفونة قريباً من قبر كل ملك من ملوكها.

ومعهم أدوات الزينة التي نعرف من خلالها بشكل لا لبس فيه ثراء الميتين فقد وجدنا في أحد القبور ثمانين من الإتباع المدفونين مع الملك ويمسك كل واحد منهم كأساً ووجدنا عند مدخل قبر الملكة بوابي خمس عشرة جثة.

وفي قبر ملحق به وجدت تسع وخمسون جثة، وقد أستدل الباحثون من ذلك على أن تلك القبور لابد وأن تكون لحاشية الملك، وقواده ورجال سلطته المقربين والنساء المحيطات بالملك من حاشية، وموظفين وإداريين ومساعدين.

وقد أثبتت هذه الدراسات أن هؤلاء قتلوا أو تم إجبارهم على الأنتحار ليكملوا مسيرتهم مع الملك صوب العالم الآخر لخدمة الملك الميت.

وأورد أحد المؤرخين أن الملك العراقي كان يصطحب معه إلى عالمه الآخر صناع الحلي الدقيقة، وحكماء الأسنان، وجواريه ووزراءه وقواد جيشه، وعالفي خيله.

وما أن تنتهي مراسيم الجنازة الملكية حتى يقسر هؤلاء الأتباع على الانتحار أو تتم أبادتهم في مذبحة جماعية، ودفنهم بعد ذلك في قبور ونواويس مرتبطة بقبر الملك الميت بممر.

وربما ذلك الذي حدث قبل أكثر من خمسة آلاف سنة يجعلنا نتعرف على بواكير العنف الدموي في شخصية الحاكم العراقي، وأنعكاس ذلك على المحكوم من أفراد الشعب....

ومن جديد حلقت أفكار الرئيس إلى تلك السهول المقفرة حيث خرائب بابل القديمة، وتلك القبور التي ضمت رفات القادة والكهان والوزراء وتلك الممالك الهشة، التي بنت عهودها القديمة على تلال الجماجم، وقهرت

أرادات الأفراد، وجعلتها تنصاع لعوامل العنف والقتل من أجل غايات غامضة ومزاج مشوش.

ولا يملك لها أحد تفسيراً شافياً ومعقولاً، وعلينا ونحن نحرث في تأريخ العراق أن لا نفعل كالبخيل، الذي ركب سيارة فعملت حادثة قطعت ذراعه فظل يصرخ، ساعتي الجديدة ضاعت! ساعتي الجديدة ضاعت!

نهتم بالعنف ولا نهتم بالظروف التي خلقته في العراق حصراً من دون شعوب الدول المجاورة له.

- 14 -

في الساعة الخامسة إلا ربعاً كان على الرئيس أن يفتتح داراً جديدة للإمتاع والمؤانسة.

وهذا الاسم الغريب يطلقه الرئيس بظرفه العجيب على دور التعذيب التابعة للمخابرات حصراً.

وهناك أسماء أخرى أكثر طرافة وبعداًعن حقيقة ممارسات ومسؤوليات المنشآت، يطلقها عليها نشواناً.

فالدور التابعة للأمن الخاص يطلق عليها ثلاث تسميات مختلفة، وحسب درجات عقوبة الضحايا وهي على التوالي، دور التوليد والحضانة، دور الأمومة السعيدة، ودور العناية المركزة بالطحال والمرارة!

أما تلك الأشد رعباً وفتكاً بالناس والخاصة بإذابة أجساد المعارضين بالحوامض المركزة، فهو يسميها دور أحباب القائد، أما تلك الدور التابعة للأمن، وهي التي تمارس المهمات الكلاسيكية المتعارف عليها في بلدان العالم الثالث من قلع للعيون ومسك للخصي بالكلابات الكهربائية، وقلع الأظافر، وتلميع الجلد ويعني بالتلميع هنا ـ سلخ الجلد بالماء الساخن ـ واللواط بأبناء المتهمين القُصَر أمام أنظار الوالد المكبل بالحديد، والتزحلق بأقدام حافية على الجليد، والجليد هنا يأخذ المعنى المعاكس للواقع، ويعني الجمر الكهربائي!

الذي يحرق القدمين الحافيتين فتتصاعد رائحة الشواء فيعتقد المشاة السائرون قريباً من المبنى الصامت المريب أنهم يمرون إزاء مطعم خاص يقدم للزبناء الشواء طيلة أيام السنة.

والمدخنة القريبة من الشارع لا تتوقف عن نفث دخانها ليلاً ونهاراً وثمة يافطة كبيرة معلقة بشكل مائل وكتب عليها بخط شائه:

مطعم الشباب – اختصاصيون بالكوارع.. خاص بعائلات الأمن الداخلي وهناك دور خاصة بالأمن أزدهرت أعمالها في السبعينات، وبداية الثمانينات من هذا القرن تسمى بدور تعليم القران الكريم – نصوصه والعناية بترتيله ـ وقد أختصت هذه الدور بالمؤمنين وأصحاب الحسينيات الكبيرة والصغيرة.

ثم تم بعد ذلك بشكل حاسم جمع أصحاب اللحى دون تمييز وبسرعة مريبة، وكان بعضهم قد أهتم بتربية لحيته أرضاء لحبيبته أو ابتغاء الهيبة التي تضفيها لحية مثلثة الشكل على المظهر أو لإخفاء عيب خلقي في الفك الأسفل.

وكانت الفتيات – المراهقات – في ذلك الزمن مغرمات – بلحى الديسكو الخاصة بالرقص والغناء الشبابي – كما كن يسمينها وقتذاك، وكانت تلك اللحى النموذج الشائع في دول الغرب.

فالفرق الموسيقية الشعبية الأوربية في ذلك الزمان من زمارها إلى طبالها وكلهم تقريباً يبدون بلحى منسولة نسلاً لطيفاً ،معطرة ومزيتة جيداً وشقراء .

أبتلعت هذه الدور الرهيبة هؤلاء العاشقين الصغار، النرجسيين، وكان يطلق عليها الرئيس أسم دور تعليم القران الكريم – نصوصه والعناية بترتيله ــ أبتلعتهم، ولم يظهر لهم اثر بعد ذلك أبداً.

فواحدة من البديهيات الأمنية، التي بنيت على أساسها هذه الدور الغامضة سريتها المطلقة، والبرئ إذا دخلها أصبح مذنباً حتى لو أثبتت التحقيقات المرعبة براءته!

فذنبه الذي لا يغتفر إنه عرف سر هذه الدور الغامضة، ومواقعها وطرائق تعليم القرآن فيها، وبالذات الفقرة الأخيرة، العناية بترتيله.

ومن المسلمات إنه لو خرج حياً يرزق وبكامل قواه العقلية فلن يضمن أحد انه لا يتفوه بكلمة لهذا وذاك عما رآه وعاشه.

فتعرف مخابرات الدول المعادية أسرار العلوم القرآنية، التي تدرس لناس سيطيرون إلى السماء بأجنحة بيضاء.

وتعرف الدول الامبريالية أسرار هذا الأختراع المبتكر فيشيع أستعماله وتفقد الدول الثورية سبقها الإستراتيجي، فما أهمية فرد بريء أو مذنب يُقتل لأهداف سامية وضعتها الدولة نصب أهتماماتها لنقل عشرات الآلاف من المؤمنين إلى الجنة فوراً ودون تأخير ومجاناً؟

إذا عرفنا ما يتطلبه هذا الحشد الكبير من مصاريف خاصة بالإيواء

والحراسة وأجور الطعام لعدة أيام، والأندثار الحاصل بالمباني والأجهزة، والجهاز الضخم من الموظفين الذين يبدءون مع المتهم بورقة صغيرة ترفع من طالب في المدرسة المتوسطة ينتمي لحزب الدولة مملوءة بالأخطاء النحوية والإملائية، واللغوية، وبعد إضافات عديدة من جهات أمنية كثيرة يمتلئ الملف الذي بدأ بورقة واحدة.

ويرسل بعدها المتهم بسيارات نقل الموطا والمثلجات المقفلة الأبواب كصندوق مكعب إلى دور تعليم القران لتحضير المتهم، وتسفيره مع إحدى المجموعات المغادرة إلى الجنة!

حين أطلع الرئيس على التقرير المالي لهذه الدور أشار بقلمه الأخضر وخطه المائل المتشرذم: بارك الله بجهودكم، رشقوا جهازكم فأمامكم مهمات ثورية جبارة، فأن نقل الشعب إلى الجنة ليس بالأمر الهين.

أنها بحق أولى مهماتنا الوطنية والقومية، ولا تنسوا عليكم بتقليص النفقات.

ولكن بالرغم من جهودكم العظيمة ما زلت أرى الشوارع ممتلئة بالناس وأرى المعارضين يتوالدون، ويزدادون مستهلكين البضائع، التي نستوردها بالدولار.

ويطالبون بحل الأزمات، وبعد كل حرب يخوضها وطنكم أراهم يتكاثرون فترتفع الإيجارات، وتزدحم بغداد الحبيبة بالوجوه الغريبة، أخدموا شعبكم من موقعكم بتقليص أعداد المعارضين.

فإضاعة لحظة من وقت عملكم إضاعة لفرصة من تقدم وطنكم وحزبكم القائد، ووقع منشوره الثوري بتوقيعه الذي يشبه رمية الزهر.

قريباً من دار الإمتاع والمؤانسة توقفت سيارته المرسيدس السوداء ومعها عدد كبير من سيارات الحماية سبقت سيارته، وجاءت بعدها.

أستقبلته عند البوابة لجنة كبيرة مكونة من إدارة الدار، ومن جهة الشارع المقابل وقف العاملون في المشروع من عمال، وتقنيين يهتفون بحياة الرئيس.

كان مدير المشروع قد وعدهم بهبات مالية كبيرة تضاف إلى رواتبهم إذا بذلوا جهوداً متميزة بالتصفيق للزائر الكبير، والهتاف بحياته عند وصول الرئيس.

فبذل العاملون قصارى جهدهم وقدم قسم منهم رقصات هستيرية وأمتدت يده ملوحة لهم بسرورالحاكم، الذي يحب رعيته، وتقدم صوب الشريط فقدمت له طفلة باقة ورد، وهي ترتجف فأنحنى وقبلها على خدها وهمس

بإذنها كلاماً فأرتعبت الصغيرة، وأنعقد لسانها، ولم تستطع بعد هذه الليلة أن تنطق كلمة طيلة السنوات التالية...

أخذ المقص وتعالى التصفيق وقطع الشريط، وتقدم داخل البناية التي كانت تحيطها حديقة غناء وسطها بركة ماء، ونافورات مزودة بإضاءة ملونة.

كان الرئيس الحقيقي بملابسه العسكرية، وظرفه المعهود وقهقهته العالية كاشفا عن أسنانه البيض، وليس بديل الرئيس الذي يشبهه شبهاً تاماً، ويطلب منه الحضور بدل الرئيس في بعض المناسبات الجماهيرية.

وخلف الرئيس بدت وجوه غائمة لرجال الأمن المكلفين بالحماية، فتحوا الباب الرئيسية للدار الداخلية، ودخلت الجموع المبتهجة كأنها في عيد...

-15-

فجوة الضوء أتسعت بأتساع فرجة الباب وأندفاع الرئيس ورجال حمايته في الممر ليصير الجميع ضمن صفوف أبواب الدواليب المغلقة المثبتة إلى جدران البهو.

وقد رتبت لتفتح الدواليب بأزرار خاصة، فتظهر الرؤوس المغطاة بقماش أبيض، وتلي الرؤوس الصدور، ويستمر تقدم الدواليب حتى نهاية الأقدام.

وتمتد اليد لتسحب ورقة صفراء تتضمن تفاصيل كثيرة الأسم، العمر، العلامات الفارقة، العمل، الأتجاه السياسي، معلومات تشريحية عامة، وتليها الأعترافات الكاملة.

حقول عنوانات الأقارب من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، أنواع التعذيب الذي تعرض له المتهم حتى الوفاة وأبرز ما قاله أثناء التعذيب.

كتبت كلماته الأخيرة بمانشيتات كبيرة سوداء وحمراء وصور مختلفة للضحية قبل التعذيب وإثناء ذلك...

دواليب كثيرة يمر على ما تحوي زمن طويل قبل أن يقلب ما فيه وتودع بعد ذلك الجثث في محارق المجهولين أو تقطع في مفارم خاصة، وتقدم كبروتين ضروري لنمو أسماك أحواض المسؤولين...

الآلات الجديدة التي نصبت في البهو الواسع للوصول مع الضحايا إلى أعترافات مكتوبة بكل التفصيلات المطلوبة:

كلبات العنق، الأحزمة الناقلة، وحبال الربط المطاطية، وبالرغم من عدم وجود نافذة تنفذ من خلالها الشمس الغاربة إلا أن الضوء القادم من ممر الدواليب، التي أنيرت بشمعات نيون كثيرة جعلت الرؤية واضحة ويمكن تمييز سكاكين فتح الجروح المختلفة في السيقان والأيدي أو مناشير قطع الأصابع.

وكؤوس المطاط الشفافة، التي تمتص السوائل، وتدفعها إلى مجرى أنبوبي حيث تتدفق بعد ذلك داخل وعاء شفاف، فيجتمع فيه الدم والصديد وفي الإمكان فتح قفلها ليذهب جزء من السوائل إلى فتحات المجاري.

وهز الرئيس رأسه، وهو ينظر الإجهزة بأهتمام كبير، ونظر إلى اليمين من الوعاء فرأى بكرات الخيوط الدقيقة، التي بلون التراب مستقرة على مساند حديدية لإعادة رتق كل ما فعلته سكاكين الآلات ومناشيرها وأبرها حتى لا تفقد الضحية دمها وتموت دون تحقيق الأهداف المطلوبة من التعذيب.

وبالرغم من تطور الآلة لتتوافق مع التطور الصناعي إلا أن الخبير المرافق همس بإذن الرئيس أن الأجزاء تنحدر من أصول قديمة، وتتقارب مع ما كان عليه التعذيب أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

كلبات الأضراس لها مثيل قديم، أنها تملك الأسنان المعدنية المدببة المعقوفة، التي شحمت مفاصلها بالشحم الأصفر، كلبات العنق هي الشفاطات عينها التي تمتص سوائل المعدة بالتفريغ الهوائي، وتؤلم الضحية ألماً يصل حد الإغماء.

مكاوي الطحال التي ينحرف نصلها مكونة مع الجزء الرئيسي العنقود المرتفع المثبت إلى منضدة صقلية، زراقات العضو الذكري التي أخذت شكلاً متطوراً بأنابيب شفافة تحوي بقايا سوائل فيها رواسب حبيبية عند نهايات الأنابيب المطاطية.

إذ يحقن العضو الذكري للمتهم فتتصلب داخلة الحبيبات مكونة ما يشبه جلد القنفذ فتسبب له الأشواك البلورية ألماً لا يمكن وصفه، وخراط المناخير ذلك الجزء اللامع من الآلة، الذي يشبهه خنجراً معقوفاً له حويصلة صغيرة من الزجاج.

وقد رقمت بأرقام صغيرة تقطر ملي غرامات مخففة من حامض كاو فتجعل الدخان يتصاعد من عيني، وأذني المتهم وقالب التشمير المكون من فلقتين تمسكان الشق في الجسد، وتقلبانه لزيادة الألم في الضحية ورصاص التثقيل، ومفتاح الرحم، ومكمدة الحشا.

هي الأجزاء القديمة في آلات جديدة رآها الرئيس في دول أخرى أقل تطوراً لكنها في هذا الجهاز الحديث مرتبة بحركة توافقية لا يظهر جمالها ودقتها إلا حين تعمل الآلة على جسد المتهم الملقم في فتحتها الجانبية .

كان لخبير دور الدولة يملك وجهاً شاحباً بعينين غائرتين وشفتين غليظتين مزرقتي الطرفين وأسنان مصفرة، بادياً للرائي منذ الوهلة الأولى إنه يؤدي عملاً مريباً ويثير جسده رائحة موت وتفسخ لا يستطيب من يشمها كلما أتى بحركة..

لم يشعر الرئيس ولا رجال حمايته ولا الوفد المرافق برائحة لحم الحمام المتعفن مخلوطة برائحة الفورمالين، وروائح مطهرات أخرى ومزيلات رائحة امتلأ بها البهو، والممرات المطلية بأصباغ بيضاء تلصف تحت أضواء النيون ...

بدت الآلات مسالمة قابعة بهدوء مريب بأنتظار يد الإنسان، التي تبث فيها حياة لتخرب بدورها ثوب حياة بنظام ودقة يبعثان على الخوف...

حين تمس يد الخبير زر الكهرباء تنفتح بوابة تتصل بصالات حجز الضحايا، فتندفع الضحية بدفعة نابض، وتستقر مربوطة اليدين والقدمين على حزام ناقل منكفئة على وجهها.

وتنقل ببطء صوب حوض ماء صغير مترجرج، ويغطس المتهم بتؤدة داخل الحوض، والخبير ينظر من كوة صغيرة شاعراً بالسرور في نفسه من دقة الآلة.

وتظهر من جوف الحوض رافعات تعمل بضغط الزيت، وترفع المتهم خارج ماء الحوض قبل أن يموت غرقاً، وبعد ذلك تنكمش الأذرع بسرعة شديدة، وخلال هذه الحركة المتكررة والمتعاقبة يهيأ المتهم للأعتراف بعد الصدمة الأولى المذهلة.

فتلقي به الأذرع إلى كرسي أمامه أجهزة تسجيل، وتصوير وفي حقيقة الأمر أراد مصمم هذه الأنواع من آلات التعذيب تنظيف المتهم من أوساخه في حوض الماء ليحافظ على نظافة وعمل الأجهزة الميكانيكية.

إذ أن في الكثير من الحالات يُجلب المتهم بعد مطاردة طويلة في المستنقعات والأوحال، ويُمسك كالحيوان المتوحش، فالغسل الابتدائي ضرورة ملحة للحفاظ على الحركة الهارمونيكية للآلات.

وكذلك فهي صدمة أولى عنيفة تؤثر في المتهم وخصوصاً حين يلقى به في حوض الماء، وهو مربوط العينين و لا يدري ما هو مصيره؟ ولكنه يعرف إنه وقع بيد من لا يرحم إنسانيته.

ويتبدل الماء بأستمرار بماء جديد يضخ إلى الحوض، وعن بعد يعتقد الناظر أن المتهم يمضي وقته بالأستحمام والمرح في حوض الماء المعلق على حساب الدولة، وتتوتر حركة ماء الحوض حين يميل الأخير بزاوية مائلة سامحة لأرتفاع القدمين إلى الأعلى، والرأس يبقى إلى الأسفل.

الخبير يراقب شعر المتهم المجعد، الذي يرتفع رأسه في الهواء لحظات وصرخاته تنبئ عن رعب شديد، والماء يقطر من الشعر ثم وهو يهوي إلى داخل الحوض من جديد بطرطشة عالية، وفي اللحظة التالية لا تشفع صرخات المتهم، وتوسلاته بأمتداد أذرع جانبية من الآلة، وتنتزع الملابس المبللة عن جسده.

ويمتص خرطوم أسود واسع الفتحة تحت تأثير هواء مخلخل الضغط وتشفط الملابس المبللة، التي تعيق أعمال الآلات إثناء التعذيب، ويبقى المتهم عارياً صارخاً يرتفع في الهواء مثيراً بلون جلده الأصفر، وحركته النبضية المشاعر بان ثمة دمية تتقاذفها الريح والأمواج.

ولا يمكن لهذه الدمية المتألمة بشدة أن تتوقف لحظة عن الصراخ والطيران في الهواء والأستقرار ثانية في الحوض وسط تشظي الماء يتحرك جيب معدني هائل على سكة حديدية معلقة وعلى أمتداد السكة سرعة الجيب تتصاعد وصوت صريف عجلاته يتضاعف.

وفي مؤخرة الجيب المعدني ثمة محرك دوار يبعث شرارات نارية ويبدو للعيون، التي تراقبه إنه سيكتسح كل الأشياء التي أمامه إلا إنه قريباً من المتهم الذي أستقر على كرسي الأعتراف الأول يتوقف تماماً بكابح قوي.

فإن لم يعترف بشيء تعطي أجهزة التسجيل الإشارة الألكترونية المناسبة لأنفتاح الجيب، وتقدمه من المتهم تسبقه كلاليب غرز سوداء صغيرة تقبض المتهم من عقبيه.

ويأخذ الجيب بتلقف جسد المتهم ببطء ويختلط صراخه بأصوات الجيب، التي تشبه أصوات وحش جائع ينكب على ضحيته بنهم شديد وحين يستقر الرأس على مسنده تنغلق فتحتا الجيب، ويأخذ الوعاء بالأهتزاز يميناً وشمالاً.

وهنا علق الخبير على عمل الآلة للرئيس أنها كما ترى تنشفه من الماء بحنان أم رؤوم!

تتسع عينا الرئيس دهشة، فيكمل الخبير تستمر عملية التنشيف عدة دقائق، ويرتفع الجيب بسرعة هائلة، ويسير على سكة أفقية فيهمس الخبير من جديد :

ـ ستبدأ الآن فقط عمليات التعذيب الحقيقة، وتظهر سكاكين صقلية إلى الأسفل، وأخرى منشارية، كانت مغمدة في بيوت بلاستيكية إلى جانب قرص دوار ثم يستقر المتهم بدفعة نابض صغير إلى وسط القرص، وتبدأ سكينة الغرز الوسطى بالأنغراز باليتيه بشكل أفقي دون أن يعبأ أحد بصرخات المتهم المجنونة.

وتمتد خراطيم مص السوائل التي يخلفها الغرز الأفقي، وتمتص الجدران المزودة بكاتمات صوت صرخات المتهم، وتحمل الجدران الجانبية للقرص قطرات الدم إلى مجرى صغير إلى جانب القرص.

فتح الرئيس عينيه إلى سعتهما القصوى، وهو يتخيل دقة العمل وسرعته، والمتهم الذي ترميه الآلات من جديد إلى كرسي الأعتراف الثاني، قبل تحويله إلى مرحلة تعذيب لاحقة.

وتخيل الأجزاء المعدنية وهي تنشر وتقطع بلا رحمة، وتخيط وتلف القماش الأبيض، والأسئلة التي تطرحها أجهزة، وحاكيات، وأخرى تسجل بالصوت والصورة، والدم يسيل بغزارة من جروح المتهم، لكن من دون قطرة دم واحدة تلوث الأرضية الرخامية الصقلية.

وكل الدم الساقط يذهب إلى المجاري الفرعية، وبعد ذلك يذهب إلى نهر دجلة مباشرة.

ولاشيء يبقى على الإطلاق.. لاشيء يخرج من عنابر التعذيب سوى أقراص الأعترافات والأعضاء المبتورة والجثث المدماة.

أبتسم الرئيس وربت على ظهر رئيس الخبراء، وسجل رجال الحماية أسم رئيس الخبراء فتربيتة الرئيس تعني منحه سيارة جديدة، ومزرعة واسعة، على نهر دجلة.

-16-

منذ سنوات حين كان حارساً شخصياً للرئيس السابق، الذي نحاه بالقوة وحل مكانه بعد ذلك كان حلم يقظته الدائم أن يأخذ مكان سيده.

لم يكن حالماً أبدا كان يعرف أن هذا العالم الكبير المزدحم بالأعراف والأجناس لا يعني بكلمة المستحيل غير صعوبات فنية معقدة.

وإذا فكر بطريقة وأخرى لحلها أنحلت أمامه مستحيلات الأمور، مضى كل ذلك الآن ولا يريد أن يتذكر تلك المرحلة الصعبة، التي كان يبعد فيها الصبيان والمتسولين العرجان والعميان والأنتهازيين، وأصحاب الحاجات

عن طريق موكب الرئيس، وملابس الجنود الخشنة تحز جلده..
يركض أمام الموكب حين يزور دوائر الدولة ومرافقها ليفسح لهم الطريق ويبعد الفضوليين قبل ذلك بزمن..
واجهته أزمة إفلاس شديدة، ولم يكن يملك مأوى يبيت فيه ليلته كان في العشرين من عمره، ولم يكن أمامه غير الكراج ملاذاً، بعد منتصف الليل عندما تخف حركة الناس، والسيارات في ساحة الكراج الواسعة.
ترتفع ألسنة حرائق صغيرة يصنعها البائعون، الذين ينتظرون الفجر لبيع بضاعتهم، ودون أن يدري قادته البرودة الشديدة إلى البحث عن نار فلمح ناراً منعزلة صنعتها امرأة عجوز.
ولم يستطع أن يخمن ماذا كانت العجوز تبيع في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وعلى ضوء النار أرعبه وجهها الملئ بالتجاعيد والدمامل السود وشعرها الأبيض أراد أن يتراجع إلى الوراء ويلوذ بالفرار إذ بدا له المنظر مخيفاً جداً.
رآها تومئ له بيدها، وتطلب منه الأقتراب وحين صار قريباً منها كأنما روح تجذبه إليها، ولا قدرة له للخلاص من براثنها.
رأى في عينيها لثانيتين فقط، حين أندلعت النار بقطعة مقوى ورقية جديدة نظرة سحرته إلى الأبد، نظرة منها جعلته يغير قراره الذي أتخذه مع نفسه للهرب.
كأنما كانت شخصاً آخر قوي الإرادة ينظر إليه من وراء قناع وجه هاته العجوز.
أقترب منها متوجساً مرتبكاً، أشارت له بيدها السوداء المعروقة أن يقترب منها، ويجلس أنقاد إليها مسحوراً وقرفص قريباً من النار ومدَّ كفيه صوب اللهب، قالت بصوت متحشرج :
ـ تدفأ.. تدفأ جيداً لأنك ستبقى بردانا طوال حياتك!
نظر إلى عينيها، وتذكر إنه رأى هاتين العينين من قبل، لكنه لم يتذكر أين، وكأنما قرأت أفكاره لن تتذكر أين رأيتني، لكنني أتذكرك جيداً!
جفل وأعتقد أنها تعرفه، وتعلم أن الشرطة تطارده، وربما كانت من قريته، التي فر منها أراد أن يترك مكانه، ويهرب وهو لا يلوي على شئ...
أمتدت يدها نحوه وأمسكت ساعده فشعر بدفء كفها، وقوة قبضتها فاستسلم لها ليعرف من هي وما تريد.. ضحكت بمكر:
ـ أجلس قليلاً لن أكلك، أنا عجوز ضعيفة وأنت شاب قوي!

جلس من جديد على مضض فتركت ساعده ...
ـ سأعطيك شيئا أنا هنا منذ ليلتين أنتظر قدومك!
أراد أن يقول لها وهل تعرفينني؟ لكنه لم يقل شيئاً مدَّت يدها إليه بشئ أخذه منها وجسه بأصابعه، وجده شيئاً صلباً كالحصاة، وحين كشفه أمام الضوء عرف أن ظنونه كانت في محلها.
وإنه يمسك حصاة صقلية معتمة اللون أراد أن يقول لها، وماذا أفعل بهذه الحصاة إجابته دون أن يسألها أخدمها تخدمك!
أحتفظ بها وستصل إلى كل ما تريد من هذه الدنيا شع الفرح في وجهه وهو يتأمل تلك الحصاة على ضوء النار، وسأل العجوز حالماً:
ـ كل ما أريد؟!
ضحكت العجوز بمكر وقالت مؤكدة : أجل كل ما تريد ...
ـ أريد خيراً وشراً! ...
ـ قلت سيتحقق لك كل ما تطلبه!
ومنذ ذلك اليوم بدأ يطلب من حصاته ما يتمناه..
قال له أحد المارة، وقد سمع طرفاً مما دار بينه والعجوز من حديث :
ـ أنها عجوز مجنونة، وكانت قبل ذلك قوادة في أحد أزقة باب المعظم ولا تعني ما تقول....
وافقه على ما قال لكنه أضمر غير ذلك وعمد إلى أخفاء حصاته السحرية وقاده التجوال بعد ذلك، ليجلس على الرصيف وأخرج الحصاة من جيبه وأخذ يناجيها متمتماً :
ـ أريد عشاء و مأوى لهذه الليلة!
لم تمض سوى لحظات حتى توقفت سيارة، وترجل منها رجل بملابس غالية وأخذ يتأمله في الظلام.
كان الشاب الجالس على قارعة الطريق يرتجف من البرد، وتؤلمه معدته من الجوع، أشار بيده فهب الشاب لتلبية إشارته، قال الرجل وهو يدخن سيجارته بنهم، وقلق متطلعاً إلى وجه الشاب :
ـ أنت جائع وتشعر بالبرد وليس لديك مأوى ... تعال فعندي الطعام والمأوى!
قال الشاب في نفسه : (لم تكن العجوز مجنونة وهذه الحصاة التي في جيبي ستجعلني أغنى رجل في العالم ..) تبعه صامتاً إلى سيارته وصعد إلى جواره وحين أنطلقت السيارة فكر الشاب أنها آخر ليلة له في عالم الفقر، والتسكع والجوع والضياع، والصباح القادم سيكون صباحاً آخر لا

يشبه صباحا ته البائسة الماضية ..
نظر إلى الرجل المحسن، كان في الخمسين من عمره بوجه يميل إلى الأحمرار ويميل جسده إلى البدانة، ومقدمة رأسه متوجة بصلع قليل كان يدخن بشراهة ولم ينطق حرفاً طيلة الطريق..
سأله الشاب:
ـ إلى أين هما ماضيان؟ لكنه كان مستمتعاً بدفء السيارة، فكل الأماكن في وضعه اليائس.. البعيدة والقريبة، هي أفضل بكثير من الجلوس على رصيف الطريق العام في الظلام والبرد، الذي لا يحتمل وبمعدة تعوي من الجوع، قرقرتها مسموعة عن بعد..
حين ترجل الرجل من السيارة تبعه الشاب، وصعد الدرج الحجري خلفه إلى شقة في الطابق الأول من البناية، ورآه يخرج مفتاح باب الشقة من جيبه وقد بدا على حركاته سكر خفيف، وألتفت إليه وقال بخشونة :
ـ أتبعني صامتاً ..
بدا الرجل إنه ليس من النوع الذي يفقده الخمر صوابه، أنفتح باب الشقة أمامهما ودخلا، وأندفع الرجل كالعاصفة صوب غرفة النوم، وركل الباب بقوة فنهضت امرأة شبه عارية من سرير النوم، وفي عينيها خوف ورجاء وسمعاها تتمتم :
ـ عيني أبو كمال على كيفك ..
ألتفت الرجل للشاب وقال بخشونة :
ـ هي لك هذه الليلة لتعرف أنها مجرد قحبة جلبتها بمالي!
شعر الشاب بالإحراج والإحباط وإنه صار بموقف لا يحسد عليه وعندما رأى الرجل تردده، قال بصرامة:
ـ من يريد العمل معي لا يتردد أبداً!
نظر الشاب إلى المرأة، كانت بوجه مدور أبيض، وملامح متناسقة وثمة أمتلاء في ساعديها العاريين، وأرتفاع في صدرها وأختلاجة لطيفة في شفتها العليا وبعينين كحيلتين، وخال صغير لا يكاد أن يرى للوهلة الأولى في جانب وجهها الأيسر.
بدت مستسلمة بحزن عميق لجنون، وغضب الرجل، ولم يكن أمام الشاب في تلك اللحظات الحاسمة إلا أن يخلع سترته القديمة، وقميصه وبقية ملابسه، وأثناء ذلك جلس الرجل على كرسي قريباً من السرير وحين أكمل الشاب خلع ملابسه قال بلهجة فيها رجاء :
ـ هل أطفئ النور؟

قال الرجل حازماً :
- لا أريد أن أرى كل شيء في الضوء حتى لا تنكر ما حدث، ولا تطلب مني بعد ذلك الزواج أبداً.

لم يكن أمام الشاب إلا أن يضطجع مع المرأة في الفراش..

بعد ذلك سارت الأمور بيسر، وتفاهم بين الشاب، والرجل كان الشاب يتبع سيده كالظل، وينفذ دون نقاش كل ما يطلبه منه، وحين يجتمع الرجل بأصدقائه في كازينو البجعة على نهر دجلة يجلس الشاب على كرسي منفرد بانتظار إشارة من سيده.

لم يعمل عنده بأجور، لكنه وجد عنده الطعام والمأوى ومكتبة عامرة بالكتب لم تمسها يد وطيلة أيام خدمته للرجل كان صامتاً لا يقول عن نفسه شيئاً، لكنه كان يسمع ما يقال بأذنين مشنفتين.

عرف أن صاحبه عسكري متقاعد برتبة عالية، وجماعته من العسكريين الذين مازال بعضهم في الخدمة، والبعض الآخر أخرجتهم الحكومة من الجيش وأجهزة الشرطة، والأمن بسبب تصرفاتهم المريبة، وتلقيهم الرشا.

تجمعهم إلى بعضهم البعض طموحات، وأحلام كثيرة في الشقة المؤثثة تأثيثاً فاخراً أسكنه العميد المتقاعد بصورة مؤقتة، وراح الشاب يرتب أمور حياته فيها.

كانت الشقة بالنسبة للعميد مكاناً للترويج عن النفس والأبتعاد عن أجواء البيت والزوجة، والأولاد، وفيها يلتقي بمن يجب أن يلتقي بهم دون رقيب أو حسيب.

وفي مكتبة الشقة، وجد الشاب كتباً كثيرة وجذب أهتمامه كتاب عن (هارون الرشيد) ووجد فيه الكثيرعن الليالي البغدادية في زمن العباسيين.

قرأ الكتاب بنهم شديد، وأعاد قرأته من جديد بلذة لا مثيل لها وكان يتساءل عند كل صفحة، أيستطيع أحد من الناس أن يصير مثل هارون الرشيد؟

وفي لحظات التفاؤل التي تنتابه بين الحين والآخر يشعر أن بإمكانه أن يصبح كهارون الرشيد، ولماذا لا يستطيع؟

وعند لحظات يأسه تبرز له معوقات كالجبال، فهارون الرشيد من أسرة كريمة ورث ما ورث عن أبيه وجده، وهو ماذا ورث من أسرته المفككة غير الفقر والعار؟ !

وتحول الخليفة العباسي الشهير إلى سكينة تنغرز في قلبه كل لحظة

وحين يجلس على الكرسي أمام النافذة المطلة على مئذنة جامع الحيدر خانة.

ويتخيل بغداد زمن هارون الرشيد عاصمة كبيرة وقبلة أنظار أهل المشرق والمغرب، سحرته قصور الخليفة التي تزيد على الألفين، وتنتشر آثارها الدارسة على ضفتي دجلة، وجواريه الجميلات اللاتي لا يعرف أحد عددهن على وجه الدقة، العربيات، الفارسيات، الروميات، الهنديات، والصينيات الشقراوات والبيضاوات والسمراوات الباكرات والثيبات، الشبقات والسويات، المستسلمات لرغباته الغريبة.

فقد كان يترك جواريه يرقصن أمامه عاريات، ويستحممن بماء الورد وتزداد رغباته عنفاً وهو يشعر أن عيون الخدم من رجال القصر تنظر العري من خصاص الأبواب والنوافذ.

وعلى مرأى العيون المتلصصة يغطي أجساد فاتناته بالجواهر وتزحف الجاريات على أربع لتقبيل الأرض بين قدميه، ويصدح صوت مطربة القصر بأجمل الشعر، وأعذبه، فتردد الصالات، والأواوين، وأشجار حدائق القصر عذوبة الصوت ...

-17-

أدهشه العنف الشديد في تاريخ العراق القديم والحديث، وأستغرب أكثر لذلك العنف الموجه إلى الملوك، والسلاطين من الشعب.

والعنف العكسي الموجه من الملوك والخلفاء والسلاطين لشعبهم، وتلك الحملات المريعة، التي ذهب ضحيتها الناس الذين لا حول لهم ولا قوة.

قرأ عن أورنمو اليتيم، الذي رباه الحاكم العراقي أوتوحيكال قبل الميلاد بألفي سنة، وحالما اشتد عوده حتى أطاح بمربيه الملك أوتوحيكال في عصر سلالة أوروك.

وذبح الملك أمام الناس، وكان الملك قد عينه حاكماً عسكرياً للإشراف على أمن مدينة أور، وما حصل للملك العراقي زمزي ليم ملك ماري قبل الميلاد بألف وسبعمائة سنة، الذي كان صديقاً للملك حمورابي وحليفاً سياسياً له.

إذ فجأة أنقلب مزاج الحاكم العراقي حمورابي المشهور بمسلته عن القوانين وأطاح بصديقه، وقدمه طعاماً للذئاب دون سبب ظاهر، كما يقول لنا التاريخ غير تقلب المزاج، والعنف المجبولة عليه شخصية الحاكم

العراقي!
وقرأ عن نابونيدس الطفل الصغير، الذي جاءت به أمه إلى بابل بعد سقوط المدن الأشورية، وتدميرها فقام الملك مردوك بالعطف على هذا اليتيم ورباه في أحد قصوره، ولما كبر أنقلب على ولي نعمته وقتله.
وأخذ عرشه وقرأ عن مقتل الملك العراقي يخدون ليم ملك ماري في القرن الثامن عشر قبل الميلاد على أيدي خدمه في قصره أثناء حمامه الصباحي.
ومقتل الملك الأشوري توكولتي نينورتا الأول بيد أبنه وولي عهده والملك شاروكين الثاني الذي اغتاله احد جنوده قبل الميلاد بسبعمائة سنة ومقتل الملك الأشوري الشهير سنحاريب في القرن السادس قبل الميلاد إذ كان الملك مستغرقاً بصلاته حين أشهر أبنه خنجره وطعنه في عنقه.
وأدهشه ما حدث في معركة صفين بين الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب عليه السلام ومن تمرد على خلافته، معاوية بن أبي سفيان عندما أوشك جيش أمير المؤمنين على بن أبي طالب (ع) على الأنتصار ولكن مكيدة صغيرة من قائد الجيش الأموي عمر بن العاص جعلت جيش خليفة المسلمين علي (ع) يتفرق إلى شيع وجماعات متقاتلة، وصارت تلك الفرقة فيما بعد سبباً في أستشهاد الخليفة الراشد الرابع بضربة سيف غادرة من احد اتباع هذه الشيع المسماة الخوارج.
المجتمع العراقي هو عالم بحد ذاته بل مجرة قامت على العنف، وتقلب الأمزجة والغدر والتشفي بالخاسرين حد التمثيل بجثثهم، وتصدير رؤوسهم المقطوعة إلى الدول المجاورة.
وأغرب ما أستنتجه من ذلك التاريخ أن أغلب الحكام العراقيين الذين كانوا قساة ومغالين في قسوتهم مع الشعب العراقي، وحكموه بإشاعة الموت والقتل والحروب أن أولئك القساة ماتوا ميتات طبيعية على أسرة نومهم هادئين مطمئنين.
ولم يتعرضوا للقتل والتمثيل بجثثهم كغيرهم من الحاكمين العراقيين الذين اعطوا حرية محدودة لشعبهم، وتابعيهم وأصفيائهم.
ووجد أن المزاج العراقي المتقلب يتأرجح بين لحظة، وأخرى صخباً وعنفاً وسوء رأي، ولا يمكن التنبؤ بما سيؤول إليه ذلك المزاج المتقلب في اللحظات القادمة.
كانت أكتشافاته ترعبه كثيراً، وأخذ يتساءل لماذا أهل العراق بهذه السمات؟ لماذا نسوا مبدأ العفو عند المقدرة؟

ولم يعطون ولاءهم المطلق إلا لحاكميهم الأقوياء فقط ؟
ولمه العقوق الذي تجده عند الأبناء لإبائهم، وخصوصاً أبناء الملوك وأصحاب السلطة، وأخذ يتابع ما يقرأ بحرقة، ولم تقنعه تلك الأستنتاجات التي قرأها في متون تلك الكتب، التي ترجع أسباب كل ذلك العنف المشبوه إلى ثروات البلاد المتأتية من نهريها العظيمين دجلة والفرات.
وسهولها الخصبة، ومراعيها الخضراء، ووقوعها كمعبر بين دول قوية في ذلك الوقت، فارسية من جهة الشرق، وبيزنطية من جهة الغرب والشمال.
وكذلك فيضانات دجلة والفرات غير المتوقعة، التي تذهب في أيام قليلة بكل ما بناه الناس من مدن، وما بذلوه من جهود في تهيئة الأرض وزراعتها..
لذا فشخصية العراقي قلقة ميالة لحسم الأمورعنفاً ودموية بدلاً من أستشراف ما في الحياة من سعة وحلم ورحابة.
كل تلك الاستشرافات التي جاء بها الكتاب في كتبهم لم تقنعه، وكان يتساءل مع نفسه عن المبررات التي حدت بالملك العراقي النعمان الأول بن امرئ ألقيس، الملقب بالأعور، وهو أحد ملوك الحيرة، الذي حكم في أوائل القرن الخامس الميلادي في العراق.
الذي أوعز لمهندس عراقي يدعى سنمار ببناء قصري الخورنق والسد ير الشهيرين، وقد بنى الخورنق ليكون سكناً لبهرام جوبن يزدجر الأول الذي أراده أبوه الملك الفارسي أن يربى أبنه تربية عربية أصيلة في كنف النعمان.
فعمد الملك العراقي إلى قتل المهندس سنمار بعد أنجازه العمل على خير وجه.
فقد طلب النعمان من المهندس الصعود إلى سطح قصر الخورنق، الذي سبق أن صممه وأشرف على إنجازه.
وأمر الملك الجنود الإلقاء به من ذلك الأرتفاع، فسقط المهندس وتهشمت جمجمته، ومات في أبشع ميتة، لا لذنب أقترفه سوى إنه أقام قصراً منيفاً وخاف الملك العراقي أن يقيم المهندس سنمار قصراً يشابهه لملك آخر، فيذهب تفرده بأمتلاك غيره لمثل ما يملك.
فذهب عمل الملك العراقي مثلاً بين الناس، فهم يقولون عن رد الجميل بالقبيح من الفعل جزاء سنمار!
وقاده بحثه الدءوب في متون الكتب الكثيرة إلى التساؤل عن المبررات

التي حدث بملك عراقي آخر هو المنذر بن ماء السماء، الذي قتل نديمين له يشاطرانه مائدة السكر كل ليلة، ويشعر معهما بالسرور، وهما خالد بن نضلة الفقعسي، وعمرو بن مسعود، وهو سكران وعندما صحا من سكره ورأى جثتي نديميه ندم، وبكى عليهما بكاء لم يفعله أحد قبله، وأمر ببناء قبتين على قبريهما، وسمى العراقيون تينك القبرين الغريان.

وأمر أفراد الشعب أن يقدموا النذور والقرابين لهذين القبرين، ولو كان قد أكتفى بذلك لهان الأمر، وقلنا عن ذلك أنها كانت من أخطاء ملك سكران فقد في لحظات سكر حكمته وعدالته.

ولكن الملك العراقي جعل لنفسه بعد ذلك يومين في السنة يجلس فيهما قريباً من الغريان وسمى أحد اليومين يوم نعيمه، والآخر يوم بؤسه، وأول من يطلع عليه في يوم نعيمه يعطيه مئة من الإبل، وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يأمر بذبحه، ورش دمه على القبرين!

وتحكي الروايات أن الملك قتل عدداً كبيراً من الناس في يوم نحسه ومن بين الذين قتلهم صديقه الشاعر المعروف عبيد بن الأبرص.

وقرأ أيضا عن الملك العباسي المهدي، الذي ذبح صديقه الشاعر بشار بن برد وبكى على جثته أشد البكاء.

وبكى هارون الرشيد بدموع من دم على البرامكة بعد أن قتلهم وصادر أموالهم، أدهشته الحروب التي خاضها هارون الرشيد لتوسيع ملكه وعرف إنه لم يكن يحارب من أجل نشر الإسلام هنا وهناك من بقاع العالم بل كان يفعل ذلك ليقولوا عنه بعد ألف عام إنه فعل كذا وأحتل كذا.

وأخذ هارون الرشيد يظهر له في الأحلام بملابسه الحريرية، وعمامته البيضاء، وهو يسلمه شيئاً لا يعرف ما هو، حتى بعد الأستيقاظ، وأرجع ذلك في يقظته إلى شدة تعلقه بهذه الشخصية.

وفي حلم آخر رآه في منامه كان يعطي تعليماته لحاجبه لتعذيب مجموعة من المعارضين بوضعهم في طوامير لتبقى قبوراً لهم إلى يوم القيامة.

ورأى المعارضين يُدهنون بالعسل بعد أن يعروا من ملابسهم، ويوضع القيد في أيديهم، ويتم تثبيتهم بسلاسل في زوارق، وتثبت الزوارق بثقالات عند منتصف النهر، ويبقى الذباب والبعوض، الذي يجذبه العسل يلسع أجساد الضحايا لأيام كثيرة، حتى يقضوا نحبهم جوعاً وعطشاً وألماً من لسعات اليعاسيب والحشرات والشمس الحارقة.

ورأى كيف يغمس القسم الآخر من معارضيه في مذاب الكبريت وبعد أن

يجف على جلودهم وتقرب منهم شعلة نار، فينفجرون إلى أجزاء وأدهشه النطع بالسيف، وقطع الأطراف، وسمل العيون، والتعليق من العقبين بكلاليب خاصة، وسلخ الجلود.

أدهشته ايضاً أعداد الحمامات الكبيرة، والجوامع الواسعة، ودور العلم، وحركة التجارة، وطرائق نقل البريد من مكان إلى آخر، والوسائل التي يستخدمها الخليفة لمنع أستفحال أية معارضة وتفريقها.

وكيف يغدق العطايا على الشعراء المادحين، وأدهشته فكرة أن الخليفة سيموت مهما طال به الزمن أو قصر، ولكن القصائد المادحة ستبقى على ألسنة الناس طويلاً، لتذكير الناس به وعهده.

وأكتشف أن الشعر خاصة، والأدب عامة يجمدان الأشياء، والزمن ويجعلانه باقياً بحيويته ملتصقاً بالتاريخ لا هو بالتاريخ، ولا هو بالواقع الباقي، لكنه أكثر رسوخاً في أذهان الناس من التاريخ القديم، وواقعهم الراهن.

-18-

في يوم من أيام شهر كانون الثاني حين كانت عواصف الرمل تجتاح بغداد في دوامات متعددة حاملة الغبار الدقيق لتجمعه في باحات البيوت، وورق الشجرالأصفر يتفسخ قريباً من جذور الأشجار الكبيرة، وسف الرمال يعمي العيون.

كان الشاب نائماً.. وعندما فتح عينيه بصعوبة على صوت حركة قريباً من رأسه، وبصعوبة أستطاع أن يميز جسد رجل، وارتفعت عنياه ليتعرف الشخص، كان أحد أصدقاء العميد الذين يعرفهم..

قال الرجل والأرتباك باد على وجهه:

- الأمن العسكري قبض على العميد هيثم!

نهض من سريره مندهشاً كأنما رشق وجهه بقدح ماء بارد ثم أكمل الصديق:

- إذا جاء رجال الأمن إلى هنا أخبرهم إنك مجرد خادم عند العميد، وكل الأسئلة التي يوجهونها إليك، قل إنك لا تعرف شيئاً. أفهمت؟

هز الشاب رأسه موافقاً.

سيلبا ... سيلبا إبراهيم

وبالرغم من جدية الرجل إلا إنه حين سمع أسم الشاب الغريب تساءل

ضاحكاً مكرراً سؤاله:
ـ ما هو اسمك؟
كرر الشاب :
ـ سيلبا
كركر الرجل ضاحكا من غرابة أسم الشاب وقرب كرسياً من السرير وغرق في ضحك مجلجل، وهو يطلب من الشاب أن يعيد عليه الأسم الغريب.. وعندما هدأ ضحك الرجل قال الشاب بأرتباك:

- عندما حاصر أمي الطلق لم تكن في القرية سوى امرأة نصرانية تقوم بتوليد نساء القرية، وقد شاء الحظ السيئ أن يضيع صليبها، وهي تقوم بتقميطي بعد الولادة.

وحين أكتشفت ضياع صليبها أخذت تصرخ وهي تبحث عنه في أرجاء الدار، سيلبا سيلبا! وكانت القرويات حول أمي يرددن ما تقول بشكل محرف، سيلبا سيلبا، وبقيت النصرانية تأتي كل يوم تبحث عن صليبها الضائع قائلة، سيلبا سيلبا.. فقررت أمي أن تسميني بذلك الأسم الغريب، سيلبا ..

ضحك الرجل من جديد وقهقه بعمق حتى دمعت عيناه ثم صمت لحظة ليقول للشاب:
ـ لو قلبنا أسمك أي لو جعلنا الحروف بالمقلوب لصار أسمك إبليس!
وغرق من جديد بضحكه العميق، وأخذ يمسح دموعه لم يضحك الشاب شعر بذيل الضيق يتجمع في صدره، وفكر إنه مظلوم حتى أسمه الذي لا يد له فيه صارعليه وصمة عار! أي حظ هذا الذي يجعل أسمك وسيلة ليمقتك بسببها الناس، ويلعنونك كل لحظة؟
وبعد أن انتهى الضيف من أنفجاراته الضاحكة قال :
ـ لماذا لا تجد لك عملاً في مكان آخر؟ فالعميد هيثم لديه الكثير من المشاكل مع الحكومة وإذا بقيت في خدمته ناشتك الكثير من مشاكله وخلافاته مع الحكومة!
وسأله سيلبا دون أن يجيب عن سؤاله :
ـ كيف حصلت على مفتاح الشقة ؟!
فوجئ الصديق بهذا السؤال لكنه إجاب :
ـ أعطاني إياه العميد عندما قبضوا عليه، وطلب مني أن آتي لأحذرك.
وأكمل بعد لحظة :
ماذا تقول فيما اقترحته عليك؟

إجاب الشاب بعدم أهتمام :
حول ماذا؟
تركك للمكان!
هذا غير ممكن!
لماذا ؟
- لأنها شقة خالي!
سأله مستغرباً :
العميد هيثم خالك؟
أجاب الشاب بإصرار عجيب :
نعم خالي ألم يخبركم بذلك؟
أجاب الضيف :
- لا لم يخبرنا، معذرة .

فكر الشاب أن العميد هيثم من مدينتهم، وإنه من القرية التابعة لتلك المدينة وقريته أقرب القرى إليها، فلماذا لا يكون خاله؟ أيمنع أن يكون لأمه أخ من عمداء الجيش؟ ومن هذا اليوم العميد هيثم خاله!

ولن يستطيع أحد أن يقول غير هذا، قال بلهفة متسائلاً :
- إلى أين أقتادوه؟
- إلى سجن الأنضباط العسكري!

ومد الصديق يده إلى حافظة نقوده فمنعه سيلبا بحركة رافضة من يده:
- معي المال اللازم لا تكلف نفسك

فكر لحظتها أنها أول خطوة ليحصل هارون الرشيد الجديد على حظوة عند جماعة العميد المتقاعد!

-19-

ماذا يفعل الإنسان حين يشعر إنه كان مغفلاً هل يضحك؟ أيبكي؟ أيتغافل عما أصابه؟ أيمضي نهاراته في لوم نفسه حتى يموت، لأنه لم يكن واعياً بما فيه الكفاية، ولولا ذلك ما صار مغفلاً؟ كل هذه الأسئلة مارسها أبي على نفسه، وعلى الآخرين ليمحو ما أصابه من حيف.

لم يستطع أن ينظر بعيني أبيه، ولا أخوته، ولم يختل بزوجته في ذلك اليوم الأسود، الذي رجع فيه إلى الدار، وقرر أن يعود من جديد إلى بغداد بعد أن بلغ أخوته، وأباه بتلك الفجيعة.

وأخبرهم إنه لن يعود إليهم حتى يقع على من سرقه، وسكتوا جميعاً ولم

يثنه أحد عن عزمه مخافة أن تقتله العبرة، والحسرة بين أربعة جدران أن بقي في البيت.
عاد أبي إلى العاصمة في اليوم التالي في القطار العادي الصاعد إلى بغداد رافضاً أن يصطحبه أحد من أخوته، ورفض أن يأخذ المتاع الذي أعدته له جدتي من التمر المديوف بالدهن الحر، والدقيق وحبة الحلوى..
كان يشعر بالأستهانة بنفسه ومتطلبات جسده بل أن أخوته أقسموا بعد ذلك أنهم سمعوه يدعو الله أن يميته، ويريحه من هذا العالم، وروى لنا فيما بعد أن حرقة الغدر به قد أشعلت عليه ملابسه وأضطرته إلى ركوب مركب التشرد.
فهو ليلاً يعمل حمالاً في أسواق الشورجة ببغداد، وفي النهار يمشي في الطرقات والدروب باحثا عمن سرقه..
زار الكراجات ومرآب تفكيك السيارات، وزار مواقف شرطة المرور ليطلع على السيارات المقبوضة، وذهب إلى الجوامع، وراقب الوجوه عسى أن يجد طلبته وزار قبور الأولياء والصالحين طالباً عونهم في محنته الأليمة.
ولم يغب عنه وجه في أسواق بغداد لم يطالعه ويتحراه مردداً مع نفسه ليت الزمان يجود علي بمن غدرني فأعلمه ما يفعل الغدر بالناس ويريه إنه من قوم يبحثون عمن غدر بهم أربعين عاماً دون أن يمسهم جناح النصب والإحباط واليأس.
وإنه من قوم ما أستكانوا لمغتصب، وما هجعت رؤوسهم على وسائد وماضمتهم أفرشة في أحضان نسائهم مادام مغتصبهم يسير في الطرقات طليق اليد واللسان، وخالي البال.
وأقسم بأن لن يجمعه فراش الراحة والهناءة مع امرأة حلالاً وحراماً ويلمه إليها وطن، ويهنأ له معها رزق حلال أو حرام، مادام من كسر قلبه حراً طليقاً.
وأضاع مستقبل أسرة ليست أسرة واحدة من أتعبها بل فخذاً كاملاً من عشيرة بل عشيرة بكامل أفخاذها وبطونها، من شيخها إلى عبدها، وحتى مواليها من الأغراب والباحثين عن حماية.
ودابة المرء حين تسرق كأنما سرق شرف المرء وأستبيح عرضه وما السيارة إلا دابة هذا العصر، ووسيلته في التنقل، وناقته التي لا مثيل لها بين أصائل النوق..
ذهب جدي إلى أخوته، لتعريفهم بما جرى لأبنه وذهبوا بعد ذلك جميعاً

إلى شيخ العشيرة.
كانت عينا الشيخ مصابتين بالرمد، لكن ذلك المرض لم يمنعه من إرسال موفديه إلى كافة أفخاذ العشيرة في بغداد، والقرى المحيطة بها وإلى المدن الأخرى، إلى الجنوب منها، والعمارة والناصرية، للبحث عن السارق والسيارة المسروقة.
كانت كل عشائر آل محمد والبيضان والسودان والحمران وال ازيرج في الجنوب تعترف لعشيرتنا وشيخها بالكفاءة، والسرعة في مسالة تسوية قضايا الثأر، ولكن لم يجرب أحد كفاءته في العثور على المسروقات والسارقين، وكانت قضية السيارة المسروقة أختباراً حقيقياً لإمكانياته في البحث والتقصي ومعرفة مكان أختباء الجاني.
في البداية هرش شيخ العشيرة لحيته البيضاء، وعدل وضع الخرقة على عينيه الرامدتين، وركز عقاله حول رأسه، وقال:
ـ أن أمرا من هذا النوع لم تجربه العشيرة من قبل.
وتنهد وبعد قليل أكمل:
ـ لو كان المسروق قطيعاً من البقر، لعرفنا كيف نتقصاه حتى نجده ونعثر على سارقه من آثار حوافره، وطريقة سرقته، ففينا من يستطيع تمييز الطريقة ومعرفة إن كان الفاعل من المعدان أو من رجال العشائر الأخرى الموتورين أو من الحضر، وسكان المدن، فلكل واحد طريقته بالسرقة!
وله أسلوبه الخاص في الهرب بما سرق، والوقت الذي يناسبه في فعل ذلك، ومن كل ذلك نعرف كيف نستدل عليه.
وتنهد من جديد وقال متمنياً لو كان ثاراً لأرسلنا من يأخذه من إبن شيخ العشيرة المطلوبة! أو أحد رجالها المهيمن، تاركين الفاعل الحقيقي، لأن لا قيمة له أمام الشخصية التي سنقتص منها.
وسيكون الثمن الذي تدفعه العشيرة المطلوبة مضاعفاً بقتل أحد وجهائها!
وضرب كفاً بكف وقال:
ـ أما البحث عن سيارة مسروقة، وسارق حضري في شوارع البلاد وأزقتها، فهو أمر لا يستطيع فعله إلا المجانين.
وهنا أبتسم وقال:
ـ ونحن منذ زمان بعيد والعشائر تنعتنا بالجنون والتهور والرعونة، ومنذ اليوم الذي ستبحث فيه العشيرة عن السيارة المسروقة سنؤكد لهم

صدق ما تقولوه عنا وحسبنا الله ونعم الوكيل!

وبهذا القول الذي فاه به الشيخ فهم أبناء عمه أن الأمر قد تقرر بالبحث عن تلك السيارة المسروقة، مهما كانت النتائج، وفي ذات الليلة سافر عشرة من رجال العشيرة الأشداء إلى مختلف أنحاء البلاد باحثين عن السيارة المسروقة، وفي جيوبهم أرقامها.

وقد تمت كتابتها في بعض الأحيان بطريقة خاطئة، وفي أحيان أخرى يصادف أن يكون حامل الورقة لا يعرف القراءة والكتابة، وفي ساعة الحاجة، وعند الأشتباه بسيارة يكلف من كان قريباً منه من الصبيان والرجال بقراءة الرقم، ومقارنته بالرقم، الذي يحمله، ولم يكن دور هؤلاء العشرة في حقيقة الأمر سوى التبليغ للأخبار لمئات غيرهم من عائلات العشيرة المنتشرين في طول البلاد وعرضها.

ويكتفي هولاء بتوجيه عمليات البحث التي يقوم بها أفراد العشيرة في المدينة التي يحلون بها ضيوفاً على رئيس فخذ العشيرة هناك.

وبعد يومين من سفرهم بدأت النتائج تظهر أمام دار جدي الكبيرة على شكل سيارات كبيرة مخطوفة على شاكلة سيارة أبي المفقودة، وداخلها ثلاثة من رجال عشيرتنا الملثمين باليشماغ أو أكثر، وقد وضعوا فوهات مسدساتهم بأتجاه رأس السائق المسكين.

طالبين منه التوجه إلى دارنا لمعرفة إن كان هو السائق الذي سرقنا وجعل عشيرتنا أضحوكة أمام العشائر الأخرى أو غيره.

وتخرج عائلتنا صغيرها وكبيرها لتفحص رقم السيارة ووجه السائق، والمسكين يتوسل إلى خاطفيه بإنه لم يفعل شيئاً مشيناً طوال حياته وحالما تنتهي عمليات التدقيق في رقم السيارة وصاحبها إلى نتيجة لا ترضينا يطلقون سراح صاحب السيارة مع تعويض مالي يدفعه جدي إلى صاحب السيارة لقاء ما سببه له الخطف من خسائر، وقطع أرزاق، ولكن في أغلب الأحوال تأبى كرامة السائق أن يأخذ تعويضاً مادياً عما أصابه من ضرب بإعقاب المسدسات، والشتائم والمهانة، وإتهام باطل بالسرقة فيرفعون رؤوسهم إلى السماء طالبين من الله الأنتقام لهم من عشيرتنا وشيخها ومواليها وبطونها.

وبعد شهر من ذلك العمل الدءوب بلغ عدد السيارات المختطفة أكثر من عشر سيارات، ودون فائدة تذكر، وكان السائقون يتواصلون بينهم ويروون قصصاً خرافية عما أصابهم على أيدي رجال عشيرتنا من ضروب المهانة والعنف.

فصار الواحد من السائقين لا يشغل محرك سيارته في الصباح إلا بعد أن يتأكد من وجود مسدسه في صندوق سيارته لرد غارات عشيرتنا وعلى لسانه شتيمة اللصوص أبناء اللصوص.

إذا شاء حظه العاثر أن يلقي به في طريق مخبري رجال العشيرة الغلاظ في طول البلاد وعرضها، وخلال ذلك الشهر من الخطف والترحيل إلى دار جدي الكبيرة وقعت مصادمات عنيفة بين رجالنا، والسائقين ووقع العديد من الجرحى.

وأزداد الدعاء على شيخ عشيرتنا فأصيب في اليوم الأربعين من رمده واليوم الثلاثين من حملة خطف السيارات بالعمى التام!

ولم يعد يميز شيئاً من حوله فاضطرت العشيرة وبجلسة طويلة مفعمة بالصراخ والسباب والأتهامات المتبادلة بالغباء، وقلة النخوة، والشهامة وسوء التدبير، واللصوصية إلى تنحيته عن مشيخة عشيرتنا لصالح أبنه بعد أن فقد الصلاحية الشرعية لقيادة مركب أولاد عمه.

وحسبما تنص قوانين العشائر من سلامة بدنية وعقلية لشيخ العشيرة، وكما جاء على لسان زاير عاتي، وبمجيء أبنه الذي كان من الجيل الجديد الذي يستنكف من وضع اليشماغ والعقال على رأسه، ويفرق شعره بمشط الخشب من النصف، ويمشطه بزيت نباتي ويرفض لبس العباءة الجوخ والصاية الانجليزية، التي تظهر اللباس الأبيض الطويل..

-20-

بداية عهده الجديد أمر بتوقيف عمليات البحث الجارية عن سيارة أبي التي كلفتهم خيرة رجالهم توقيفاً في أقسام الشرطة، والمستشفيات.

وطلب طي صفحة الماضي المخجل، والاعتماد على شرطة المرور للبحث عما ضاع منهم وأخبر جدي لتلطيف وقع الأمر الجديد عليه بأنهم على استعداد لجمع المال اللازم من أفراد العشيرة لشراء سيارة تماثل المسروقة، وإعطائها لأبي وإنهاء هذا الموضوع الدامي، الذي لطخ سمعة العشيرة بأردأ النعوت وجر رجالنا إلى أسوا العواقب.

فنظر جدي إليه بأحتقار شديد، وفي ذهنه إنه شاب ناعم أفسدته المدارس، وعلمته تمشيط شعره بالزيت مثلما تفعل البنات، وأطرق الشيخ السابق الذي صار ضريراً لا حول له في مجلس العشيرة، وقال جدي

بصوته الجهوري ليسمعه الجميع:
ـ إنه ليس بحاجة لجمع الصدَّقات من أولاد عمه وعشيرته، ولو كان الحادث قضاء وقدراً لاشترى بدلاً من السيارة سيارتين، دون أن يحك له أحد لحيته أو يستشيرهم في شيء، لكنهم الان في موقع المهانين المعتدى عليهم، وسيشجع خنوعهم العشائر الباقية على هضم حقوقهم، والأستهانة بهم إلى حد تلفيق النكات والمفارقات الضاحكة بحق وجهائهم وكبارئهم.
وترك المجلس العشائري المنعقد في أوج أزمته بين مؤيد له ومؤيد لشيخ العشيرة الجديد، وخرج دون أن يلقي بتحية الوداع على أهله وأولاد عمه، ولكن الشيخ الجديد ملس شعر رأسه المفروق من الوسط بكلتا كفيه وضحك بعد أنصراف جدي وقال:
ـ يريد عمنا يحفظه الله أن نبقى بعقولنا القديمة، وهو لا يعرف أن الزمن تطور واصبحنا طوال الفترة الماضية في أفواه الناس من جراء فرط حمقهم إضحوكة لا تنتهي.
وبقي جدي في تلك الليلة يلف لفافات التبغ ويحرقها مالئاً صدره بذلك الدخان الأزرق، الذي يتصاعد بعد ذلك خارجاً من فمه وأنفه على شكل سحابات من الغيظ المنطفئ، وجدتي لا تتوقف عن القاء المُطَّال، في الكانون، لغرض زيادة النار في الموقد لتسخين القهوة والشاي بسرعة أكبر، لمجاراة ذلك الغضب الساحق، الذي يموج به صدر جدي.
وكان بين الحين والآخر يتحدث إلى نفسه بصوت عال، كأنما لايزال ذلك الأجتماع العشائري منعقداً، وهو يصول فيه ويجول مثل الفرس الرهوان، وحين يلتفت ولا يرى غير زوجته بحزنها الأبدي، وانعقاد حاجبيها، كأنما هي على وشك البكاء لا تتكلم، ولا تعلق بكلمة اثناء ساعات ضيقة، مكتفية بتحريك دلال القهوة، وإبريق الشاي المسود، وتجمع حولها بالمنكاش جمرات النار، فيصرخ بها :
ـ القيهوة يا بنت الأخيار..
وبالرغم من أن جدتي قد تجاوزت الخمسين من عمرها إلا إنه لم يتوقف يوماً عن النداء عليها واصفاً إياها بالبنت الصغيرة.

-21-

في ذلك المساء التشريني أعدت الزينات وتهيأت الفرق الموسيقية

والراقصات، وأخذت حدائق القصر الخاصة بأفراح عائلة الرئيس تعج بالمدعوين وزوجاتهم من كبار المسؤولين في الدولة والحزب والجيش وكبار ووجهاء العشائر والمحافظين ورجال الأمن والمخابرات.

وكان الجميع بملابس السهرة البيضاء والنساء بملابس ملونة، وصلت أليهن قبل فترة قصيرة من العديد من دور الأزياء الشهيرة، لقد كان اليوم استثنائياً في حياة الجميع، أنها ليلة عرس الأبن البكر للرئيس بأبنة عمه، وبالرغم من تخلف الأبن العقلي المصاب به منذ الطفولة إلا انه بفضل العلاج الطبيعي على يد أمهر أطباء العلاج الطبيعي لم يبق من آثار التخلف الظاهري سوى عوق بسيط يظهر أثناء نطقه للكلام أو برشه رذاذ اللعاب، الذي يسيل إلى جانب فمه دون أن يستطيع السيطرة عليه.

فوجد الأطباء حلاً لذلك الخلل بأن يترك الأبن حلاقة لحيته ليستطيل الشعر، حتى يضيع اللعاب في منبت الشعر، لكنهم لم يستطيعوا قمع حماقاته التي تدلل بشكل لا لبس فيه عاهته الدماغية!

فرقة كاملة من ألف طباخ وطباخة عملوا لمدة أربع وسبعين ساعة لإعداد عشاء المدعوين بالهواء الطلق في حدائق قصر الأفراح.

عشاء خرافي لأعداد كبيرة من الناس، وأقيمت أربع منصات لأستيعاب الراقصين والراقصات وكان العريس بملابسه البيض، ووردة سوداء أنيقة كربطة عنق حول رقبته، ويمسك بأصابعه مسبحة بحبات قرمزية ضخمة ومر مزهواً بين المدعوين والمدعوات تتبعه نظرات الإعجاب، والحسد تحت أضواء ملونة.

كان يعد مفاجأة للجميع وكلهم يعرفون ذلك، ولكن لا أحد يعرف ما هي هذه المفاجأة، وكانوا ينتظرون أيضاً أن تطل العروس الصغيرة، التي أختارها الأب بنفسه لأبنه البكر.

السيدات تحرقن شوقاً لمعرفة دور الأزياء التي جلبوا منها ثوب العرس واللوازم الأخرى وأنواع الجواهر، التي أهديت للعروس، وقد سرت إشاعات كثيرة بأن الجواهر واللآلئ قد سرقت من المتحف الوطني للبلاد وهي تخص أميرتين أشوريتين ماتتا قبل ألاف السنوات.

وأخذ الأبن الكنز الثمين من المتحف ليجعله ضمن أملاكه الكثيرة ويهديه لعروسه، فيما بعد ودارت نقاشات حامية بين المدعوات حول هذا الأمر، والأنغام الراقصة تصدح في أرجاء الحدائق، ولم يستطع أحد أن يخمن هل يحضر الرئيس عرس أبنه أم لا يحضر.

وفي حقيقة الأمر لا احد يعرف تحركاته على الإطلاق حتى عائلته لا

تعرف حقيقة المكان الذي يشغله، والشائعات تتحدث عن ثلاث نسخ متقاربة الشبه بالرئيس.

فقد تم أجراء عمليات تجميل سرية على رجلين يشابهانه ولهما ذات الطول والعمر والتشكيل الجسماني، وقد تم حجزهما في قصرين متباعدين مع عائلتيهما، وحمايتهما نوع من أنواع السجانين إذ تصحب النسخة المشابهة للرئيس لفترة معينة في مكان عام ثم يعاد إلى قصره مخفوراً برجال الحماية.

وهكذا لا يمكن لأحد البت نهائياً في حقيقة الشخصية الموجودة أهو الأصل أم الصورة الشبيهة؟

وحضوره عاده يكون مفزعاً للحاضرين فتنتابهم رجفة تقشعر لها أبدانهم فيستعينون بالتصفيق الأجوف الذي لا يعبر عن أعجاب بل عن خوف شديد يعرفه الرئيس جيداً ويحاول طيلة الوقت أن يمده بأسباب البقاء، ويمطه كما يفعل بحبل من المطاط حتى يوشك أن ينقطع فيرخيه قليلاً، لفترة قصيرة ثم يعيد مطه من جديد وهكذا ....

قبل أن يتوجه الحضور إلى مائدة العشاء، التي أعدت على مساحة واسعة في الجانب الغربي من الحديقة ظهرت العروس تحت أضواء مصلتة عليها، وهي تمشي برفق، ويمسك عريسها كفها ويسبقها بخطوة.

شهقت السيدات إعجاباً، كان المنظر مدهشاً حقاً، فقد تزينت العروس بعشرات الأساور المرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وقلائد الذهب الأثرية حول عنقها، وثوب الزفاف موشى بحبات كبيرة من الفيروز وبواسطة ميكرفون سمعت السيدات صوت المعلق يتابع حركة العريسين وسط الحضور الكثيف:

ـ أيتها السيدات والسادة أنظروا إلى ساعدي العروس إنهما تحملان أساور الأميرات الأشوريات.

وقد تم إهداء هذه الكنوز للعروس من قبل المتحف الوطني، وأنظروا حول عنقها كل ذهب الأميرات البابليات، أيها الأخوة والأخوات كل حضارتنا منذ ألاف السنوات مهداة إلى عروس أبن رئيسنا، حامينا، ومعزنا ومهندس نهضتنا.

وأخذ المعلق الذي غلبته الدهشة يكرر صفات وأسماء الرئيس المعروفة ...

وشهقت السيدات وهن يدققن النظر في حلي العروس، جون ماكفي مدرس التاريخ كان حاضراً في تلك الليلة العظيمة، فعلق قائلاً بانجليزية

سريعة:
ـ أن الذي يراه خرافة، ولن يصدق احد في العالم ما ستروية لهم مذكراته عن الرئيس والعائلة الحاكمة في بغداد.
وتمتم بعربية فصيحة أن زينة هذه العروس تكلف ثروة لا يمكن تقديرها.

-22-

في تلك الليلة الأسطورية أستمر الرقص والغناء والقصف حتى الهزيع الأخير من فجر اليوم التالي، وفي تلك الليلة سكرت السيدات وثمل السادة وأنتشر الراقصون المترنحون على مساحة الحديقة، وكان قسم من السادة قد أقتادوا نساءهم ومرافقاتهم إلى غرف القصر العديدة.
كانت ليلة سرور لا مثيل لها ولم يحظر الرئيس تلك الليلة إلى قصر الأفراح فقد كان مشغولاً بصبية زنجية جلبوها له من وسط أفريقيا بتوصية خاصة من القائم بالأعمال هناك.
وفي التوصية ما كتبه القائم بالأعمال لرؤسائه بان هذه الصبية السمراء يمكنها معالجة أوجاع ظهر الرجال بالمساج ووسائل أخرى تجيدها ولمسة واحدة منها للجزء المؤلم كافية لمسح الألم إلى الأبد.
وقبل أن يأتي الفجر بنوره سكر العريس، وتعكر مزاجه وخرج للمدعوين حاملاً بندقية سريعة الطلقات وأخذ يطلق النار عشوائياً على المدعوين ففرت أسراب النساء صارخات إلى جانب الآخر من الحديقة، حيث سواقي المياه والمبازل والظلام.
وفر الرجال عبر المخاضات المسورة للحدائق لأتقاء الفضوليين وأستقرت طلقة طائشة في آلية زوجة وزير الإعلام، فملأت الحديقة عويلاً.
وحل في الحفل الهرج والمرج ووجد رجال الحماية الفرصة المناسبة للهجوم على السيدات الضائعات وسط ذلك الصخب لحمايتهن من خطر رفوف الرصاص المنطلقة عشوائياً.
وفي ذات الوقت كان الرئيس يحدق بعري السمراء المليحة، ويتساءل مع نفسه محتاراً كيف أستطاع سفيرنا في بلاد السود أن يعرف ميزات هذه الصبية في علاج أوجاع الظهر؟ لو كان كاذباً سأعيده إلى بغداد ليستعيد وظيفته السابقة كمعلم فاشل في الأرياف الجنوبية.

ولتأكل الخنافس السوداء مؤخرته، وفي تلك اللحظة رن جهاز الهاتف وتم أبلاغه بأخبار المجزرة التي أوقعها أبنه بالمدعوين في حفلة عرسه فضحك الأب حتى أستلقى على ظهره وأغرورقت عيناه بالدموع من الضحك، وهو يردد مع نفسه:

ـ لذلك لم أحضر عرس هذا الأحمق كنت على يقين من إنه سيقترف حماقة كبرى!

-23-

في العام الأول للحصار الأقتصادي الذي تعرضت له البلاد بدأ مرض غريب بالأنتشار في الأحياء الشعبية بسرعة ودون سابق إنذار.

لا تمكث جراثيمه طويلاً في الأجساد الهزيلة التي هدها الجوع وجعلها جلداً على عظم..

صباحاً يشعر المريض بالتوعك وفي المساء يزداد المرض حدة وينتقل بعد ذلك المريض إلى حالة تشبه الأحتضار، ويبدأ بالهذيان ودرجة الحرارة تبدأ بالأرتفاع، والبخار يتصاعد من رأس المصاب.

وفي الصباح تعتقد أن المريض قد فارق الحياة، لكنك تكتشف نبضاً فيه وحياة وتعلم ببطء إنك مع شخص آخر لا تعرفه فقد ضاعت منه أغلب ملكات العقل الناضج، وصار شيئاً مختلفاً أشبه ما يكون بالشخص الآلي وتستطيع أن تستعمله أستعمالك للأدوات دون أن يعرف إلى ماذا تقوده وإلى أي مصير تختار له.

لا يفرق بين اليوم والغد، ولا الأمل واليأس ولا يهمه ما يحدث وما سيحدث حوله وعليه، هي حالة أقرب إلى التخلف العقلي، لكن أطباء البلاد لا يسمونها بهذا الأسم الشنيع.

وذلك ما قاله طبيب المستشفى الحكومي المناوب عندما ذهب أحد المواطنين بأبنه الأول للمستشفى، وعاد به في صباح اليوم التالي وهو من تلك البهائم التي تمشي على أثنتين ولا يميزها عن الحيوان سوى شكلها.

أعتذر الطبيب بوجه متعب وبرر ذلك المرض بالحصار، ونقص الأدوية وقلة الإمكانيات..

وسرعان ما عاد الأب مرة أخرى بأبنه الأصغر وخرج في اليوم الثالث به، وقد حصل له ما حصل لأخيه سأل الأب الطبيب وهو يكاد أن يفقد عقله

ـ أهي عدوى؟
هز الطبيب يده بوجه الأب وأعاد وضع نظارته على عينيه:
ـ لم نعرف حتى هذه اللحظة لكن يبدو أنها ليست عدوى عادية فليست هناك جراثيم معروفة، انه مجرد ألتهاب بسيط كما يحدث حين تجرح يدك ثم تجدها في صباح اليوم التالي متورمة، وفي اليوم الثالث يشيرعليك الجراح ببرودة أعصاب أن تبترها وإلا قتلك الألتهاب.
هنا الحالة مختلفة بالطبع لا يمكننا بتر الرأس للخلاص من المضاعفات وهكذا يخرج المريض مشافى، ولكن بقدرات عقلية أقل ومن خلف ظهر الطبيب أطل الرئيس في شاشة التلفزيون، وهو يطلق النار في الهواء وصوت شاعر يقرأ قصيدة مدح تغزلاً بعيني الرئيس الواسعتين، وطوله الفارع، وشعره الناعم، وبطولاته العسكرية الخارقة، والأيدي تصفق بلا فتور قال الأب للطبيب غاضباً :
ـ إنه أبني الثاني وها أنا اصطحبه معي كعنز صغير لا حول له ولا قوة، وقد نسي كلمة بابا التي علمتها له!
أبتسم الطبيب بمرارة:
ـ أحمد الله، يومياً تجيء إلينا العشرات مثل هذه الحالة، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً معها فلا أدوية لدينا ولا مجاهر صالحة، كما أن الشك يراود بعض الأطباء من أن سبب المرض المباشر، هو الأدوية التي أنتهى زمن أستعمالها ولكن الناس لا يجدون غيرها في الصيدليات، ودون أن يخاف أحد العواقب..
ــ وما العمل دكتور؟
قال الطبيب ملاطفاً، وهو يمد يده ويربت على رأس الصغير الذي تحول إلى عنز بشري:
ـ أحمد الله، أن ابنك حي يرزق ويستطيع أن يأكل ويشرب ويذهب إلى دار الخلاء ليقضي حاجته، وينظف نفسه، ولديه قدمان يسير عليهما، ويستطيع أن يقلد أي أمر يراه بسهولة!

-24-

أخذ الأب يراقب الصغيرين خلال الأيام التالية، شعر وهما يلعبان في فناء الدار أنهما صارا أصغر من عمريهما، ولا يستطيع المرء أن يميزهما عن الأصحاء بسهولة، لكنه بعد طول مراقبة لاحظ أن العين اليسرى لكل

منهما ترمش وتستطيل للحظة ثم تعود بعد ذلك لوضعها الطبيعي.
وهذا الذي تغير فيهما كما أنهما لم يعودا يصدعان رأسه بأسئلتهما عن الشمس والقمر وماذا تعني الكواكب والمجرات؟ ومن أين نجيء ولماذا نصلي؟ وأين نذهب بعد الموت؟ ولماذا ومتى وأين؟ وصار يومهم طويلا.. طويلا جداً!
وتوقفا عن سؤاله لماذا لا يشتري لهما الحلوى مثلما كان يفعل؟ يأكلان، ويتغوطان ويصرخان حين يأخذ أحدهما من الآخر شيئاً، ويلعبان لعب الحيوانات الصغيرة الأليفة، ويصرخان صراخ المجانين.
والمذياع كان ينقل وقائع أحتفال الرئيس بعيد ميلاده، وتعمدت الإذاعة والتلفزيون على أعادة بث هذه الحفلة عدة مرات في اليوم الواحد، لتكتحل أنظار الملايين الجائعة من الشعب برؤية الفطيرة العظيمة، التي تظهر على شاشة التلفزيون، فطلب الأب من زوجه، وقد فقد أعصابه أن تدير موجة الراديو أو تطفئه وكان الحزن مخيماً على الدار..
عاد الأب مساء من عمله في بيع المواد الغذائية على قارعة الطريق وقد أمتهن هذه المهنة بعد أن صار راتب مهنة التعليم لا يكفي لإطعام عائلته الصغيرة بسبب التضخم الأقتصادي المريع الذي حل في البلاد، وفي ذلك المساء الحزين وجد زوجته مصابة بذات المرض، الذي أصاب طفليه من قبل!
ركض بزوجته إلى جميع مستشفيات العاصمة والعيادات الخاصة والشعبية، ومستشفيات القطاع الخاص، وكان يعوي من فرط غضبه كالذئب المحاصر، عوى عواء لم يفعله أحد من قبله، فزوجته هي كل ما تبقى له من عائلته، أنها عربة القطار الأخيرة، إذ بعد النزول منها سيضطر للمشي على قدميه الهزيلتين مليوناً من الكيلومترات في صحراء قاحلة لا مثيل لها.
ترك طفليه المتخلفين عند جيرانهم وأخرج ما أدخره من رأسمال صغير فهذا هو اليوم الأسود الموعود الذي فيه يفيد المال، كانت المسكينة تبتسم وتقول غير خائفة أنها مجرد حمى خفيفة ستزول سريعاً.
حتى الناس ضحكوا من عويل المعلم وأعتقدوا إنه مصاب بالسعار أو في طريقه إلى ذلك لكنه كان متأكداً من أعراض المرض، الذي أصاب طفليه وجعلهما من المتخلفين عقلياً وطافت في رأسه أشباح طلابه في المدرسة وتلك الرّحلات المخلوعة، والممرات المتربة وزجاج النوافذ المكسورة، وتلك الأفواه الصغيرة المتوترة، والعيون الذابلة، والوجوه التي لم تصافح

رغوة الصابون منذ فترة طويلة.
شاحبة نحيلة متسائلة عن الأسباب، وبأقدام محتذية أشياء ممزقة تسمى كذباً أحذية، كم من الطلاب سقطت رؤوسهم على رحلة الدرس إعياء وجوعاً ومرضاً؟ وما عدد الطلاب الذين يفارقون فصله طوال العام إلى اللحد وهم في عمر الزهور؟ وكم جنازة جماعية لأطفال ماتوا بسبب نقص الدواء شارك فيها رافعاً لافتة الله أكبر؟ مفكراً باليوم الذي ستدنو فيه الكارثة من بيته وأطفاله ..
كم من الدموع ذرف في تلك الجنازات الكارثة؟ وهاجسه إنه أنما يشيع زوجته وطفليه إلى ضريحهم الأبدي، وهاهي الهواجس تصح وتصير واقعاً.
فحصوا زوجته وأعادوا فحصها من جديد أرادوا حقنها بالأدوية فطلب المعلم من المضمد أن يريه زمن الحقنة، نظر إليه مدهوشاً وقال:
حصار يا أخي، وكل ما موجود من دواء قد مضى زمنه، لكنه صالح مئة بالمائة للاستهلاك البشري، لا تنسى أن الشركات تضع في أعتبارها فترات أضافية بعد أنتهاء الزمن المؤشر على الغلاف من أجل شعوب أفريقيا وأسيا.
وقف المعلم على أطراف أصابعه كما يفعل الذئب، وعوى بوجهه كان على وشك أن يعضه ويلتهمه إلتهاماً لكن المضمد أبتعد خائفاً وقال مزدرياً:
ــ ناس لا تفهم في الثقافة الصحية شيئاً!
وأخذ المعلم يسحب زوجته من كفها سحباً، وهي تحاول تهدئته وتطلب منه الركون إلى العقل قال لها وهو يجس حرارة يدها :
علينا أن نجد طبيباً أنا أعرف أعراض مرضك تماماً، وكأنني أرى ألان ماذا سيحصل لك في الغد؟
قالت مهدئة وقد عادت عشر سنوات إلى الوراء إلى فترة عشقهما، إذ كان يضرب لها موعداً عند موقف الحافلات، مستمتعاً طيلة الوقت بمسك كفها الرقيقة.
أهدا يا حبيبي أنها مجرد سخونة لا أكثر لم يبقَ طبيب في العاصمة لم ندخل عيادته ولا صيدلية إلا وقرأت زمن صلاحية أدويتها، وفي النهاية لاشيء جديد لنركن إلى أرادة الله....
ركض بها ركض الوحوش في كل الأزقة والفروع باحثاً عن صيدلية أو مختبر، وحين قارب مالهما على النفاذ أدخلها أحد المطاعم وطلب لها

عشرة أسياخ مشوية من الكبدة، وجلس قريباً منها يضع اللقيمات في فمها متمتماً:

ــ بالهناء والشفاء عسى الله أن يعوضك بهذا الطعام عن الأدوية الفاسدة التي يبيعونها بأسعار مرتفعة مئات المرات، في الأقل نستطيع أن نضمن مقاومتك للمرض!

واخذ يوضح لها ما تفعله الكريات البيض حين تتغذى جيداً، وجعلها تبتلع قطع الكبد المشوية حتى شبعت.

وعادا إلى البيت كان يجس يدها بين فترة وأخرى .. درجة الحرارة لم تتغير، وأعاد المعلم طفليه من جارتهم، وكانا قد ناما قبل وقت طويل وبقي جالساً عند رأسها طيلة الليل، وقبل الفجر بقليل حين أغفى قليلاً بفعل السهر والجهد الذي بذله طيلة اليوم .

أرتفعت درجة حرارتها إلى الدرجة الخطرة أستمرت على تلك الحالة لعدة دقائق، وكانت تلك الدقائق كافية للقضاء على أحلامه بزوجة ذكية تحلم معه وتخطط وتتخيل وتفكر وتحبه ذلك الحب المتجدد الذي تفعله السويات من بنات حواء.

كاد اليأس أن يصعقه مما أصابه، ولن ينسى ذلك اليوم الذي أكتشف فيه مأساة أعمق كانت غائبة عن بصيرته، كان يومها جالساً في المقهى وقد أستطالت لحيته، وترك أخته التي جاءت لزيارتهم تعني بعائلته، ورأى أن أغلب الجالسين في المقهى تستطيل عيونهم من جهة اليسار وترمش عدة مرات للحظات وتتوقف أيديهم عن اللعب ويسترجعون إدراكهم بعد لحظات، ويواصلون بعد ذلك ما هم فيه من عبث وهذر وشجار وعويل.

برقت في ذهنه فكرة أدهشته أول الأمر وأخذ يتتبع عيون الناس في الطرقات والأسواق و المشافي..

أعداد ضخمة من الناس أصيبت بذات المرض وأخفت ذلك الأمر حتى أنهم لم يعترفوا لأنفسهم بحقيقة ما أصابهم، ولا يستطيع من يستنطقهم أن يخرج بحق أو باطل وتلك من مزايا المرض الجديد، الذي أُطلق عليه فيما بعد أسم مرض ألاه والنعم، تيمناً بالطاعة العمياء المطلقة الأبدية لشعب جائع ومريض لرئيسه!

-25-

في السنة الخامسة من قحط الحصار أخذ الناس يتضورون من الجوع في تلك المدن الجنوبية، التي كان أغلب سكانها قبل فترةالحصار يعانون من فقر دائم، وعُرفت بطرقها المتربة التي أمتلأت أخيراً بالنفايات والهياكل العظيمة، المتجولة، دون هدف محدد.

الهياكل العظمية المتجولة كانت تبحث عن شئ ضائع غامض لا تعرف ما هو، وفي الأفق البعيد تتخيل وجود ضالتها، أختفت الكلاب والقطط من الطرق الترابية، وأمام الأبواب الصفيحية لم تبق غير كلبة وحيدة عجفاء، وبين لطخات الوحل وجروح الجلد ستجد ما ينبئ عن لونها الوردي القديم.

لون الشعر المنحوت، وقد ألتصق الجلد بالعظام واتسعت عيناها على شكل فجوتين غائرتين، وبدت قروح دائرية ظاهرة على رقبتها مملوءة دماً وصديداً.

كانت تقترب من عابري السبيل واضعة ذيلها بين قائمتيها الخلفيتين مقتربة منهم أقتراباً شديداً، ودون أن تنبح تكشر عن أنيابها، كأنها على وشك أفتراسهم، وتعود من جديد إلى هدوئها حالما يطردها عابر السبيل فتعود مسالمة مرة ثانية عابرة الطريق إلى الجانب الأخر، ولشدة نحولها وضعفها بدت كأنها عظام متصلة بمفاصل عجيبة.

ويغطي كل ذلك جلد مثقوب من عدة أماكن، ومن بعيد رأتهم ينقلون الكاميرات وأمتعة المجموعة الصحفية إلى خارج السيارة ببنطلوناتهم الجينز، وسيقانهم البيض المشحمة، وترقب عضلاتها المتوترة المنقبضة والمتراخية.

في تلك الأيام الصعبة أغلق الجزارون محلاتهم فلم يعد بإمكان أهل الأصمعي شراء اللحم، وقد بدأت المسالة تدريجية، فقد تحول الذين يشترون اللحم عادة إلى شراء مواد غذائية أخرى بديلة.

أما الأكثر قدرة على الدفع فقد عمدوا إلى تخفيض كميات اللحم التي يشترونها ويزيدون من كمية العظام، والشحوم، وعندما أخذ أرتفاع سعر اللحم بشكل يومي، وبتوافق متناغم مع أرتفاع سعر صرف الدولار في الأسواق العراقية أكتفى المقتدرون بشراء العظام البيضاء الخالية من اللحم.

وعندما أرتفع سعر العظام رمى الناس بأثقالهم على الشحوم وحين أرتفع ثمنها أيضاً توقف البيع والشراء في محلات الجزارة، وبقي الجزارون يفردون حبات مسابحهم بضجر، قبل أن يتحولوا إلى مهن

أخرى.
في وقت الأزدهار السابق كان عدد كبير من الكلاب يجول في المدينة وكان القصابون يدللونها برمي بعض العظام لها، ولكن ما أن أغلقت الدكاكين أبوابها حتى غادرت الكلاب إلى أمكنة مجهولة، ومات بعضها دعساً بالسيارات القديمة التي أخذت تظهر فجأة بكامل عافيتها من مقابر السكراب وهي تمخر العباب، وتشخر في طرق المدينة المتربة.
وبقيت تلك الكلبة وحدها تنبش في النفايات باحثة عن كسرة خبز منافسة، بعض المغامرين من الرجال الذين تحدوا ظروفهم الصعبة وقد برزت عظام صدورهم، وسقطت شعور رؤوسهم بفعل سوء التغذية وسرطان الدم.
وأثناء تفتيشهم في النفايات كانوا يغنون بأصوات مبحوحة الابوذيات الشعبية، التي تتحدث عن الظلم والفقر والحاجة والموت، الذي يأتي مبكراً باحثين عن كسرات الخبز اليابسة المسودة، ليجمعوها في أكياس ويفتتوها في دورهم بمطارق ضخمة، محولين تلك النفايات إلى ما سمي بالدقيق الأسود الذي يعيدون خلطه مع دقيق أبيض، ويعاد عجنه وخبزه وأزدراده ساخناً.
المدينة صامتة وحزينة في تلك الظهيرة القائظة ولا شئ فيها يوحي بالحياة، فقد كانت الريح الحارة تخترقها من الشمال كانسة الأعشاب اليابسة، وقصاصات الورق الصغيرة، مارة بالدور المنزوعة النوافذ، التي باعها أهل المدينة منذ عامين، وأكلوا بثمنها خبزاً أسود وأتبعوها بالأبواب الزائدة الداخلية، وأستعاضوا عن كل ذلك الترف القديم بقطع قماش قديمة مهلهلة علقت في فتحات الأبواب، والنوافذ.
وأخذ الجوع يقضم بتؤدة وهدوء وصبر عجيب فبدأ الناس يتخلون عن سقوف دورهم، وكانوا يهدفون من وراء ذلك التهديم، والتخريب في السقوف الحصول على الهيكل المعدني، إذ يستخرجون قضبان الهيكل الصدئة قضيباً، قضيباً ويبيعونها ليشتروا بثمنها خبزاً أسود.
وحدها تلك الكلبة الوردية اللون لم يكن لها بيت يأويها كانت تتبعها قبل سنة ثلاثة جراء في رقابها لطخات سود إلا أنها تعرضت للخطف والأفتراس من كلاب أخرى متوحشة، جاءت من خارج المدينة، أفترستها جرواً بعد آخر.
كانت في المساء تنبح، هي في الحقيقة تطلق أصواتاً تُسمى جزافاً نباحاً، كانت ترقب تحركات الصحفيين من بعيد، كانوا يحملون الكاميرا

المحمولة في سيارة الجيب لتصوير المدينة الهالكة، التي كانت في يوم من الأيام مكاناً للأنطلاق لزيارة الآثار في مدن سومر القديمة، ويقصدها من يبحث عن الهدوء والمعيشة المرهفة.

-26-

نظر إليهم أهل المدينة، وكأنهم جاءوا من عالم آخر، وكانت عيونهم تلتمع بأمل غامض، أمل صغير بيوم أستثنائي، وفي ذات الوقت الحلم بأستعادة السقوف الكونكريتية بدلاً عن سعف النخيل، وأوراق الكارتون وطبقات النايلون، التي وضعوها فوق هياكل بيوتهم.

وبعد أنتظار طويل تفرق الناس، وبقيت تراقبهم فتيات صغيرات حافيات بوجوه شاحبة يمسكن بستائر النوافذ المهلهلة، وأكياس الخيش وهن يهرشن شعورهن الشعثاء، وتزوغ نظراتهن المندهشة، كأطياف حلمية صورت بالأسود والأبيض، وتم حشدهن في لقطات مقطعة، وملصقة في فلم أستعراضي قديم، كأنما يسألن القادمين عن أسباب مجيئهم إلى هذه المدينة الميتة.

وكان الرجال البيض ببنطلوناتهم القصيرة، ونساؤهم بشعورهن الذهبية المسترسلة وهن يضبطن زومات الكاميرات، لنقل حركة الريح العابثة بالستائر المارقة في الدور الفارغة حتى من القمامة.

محركة الريح السقوف الهشة وناقلة أكوام التراب، وسف الرمال على صور الرئيس، وهو يقطع كيكة عيد ميلاده الملصقة على جدران المدينة والمدارس المغلقة، التي سرقت أبوابها، ومصاطب الدراسة، وسبورات الكتابة، وتفرق طلابها، منذ شاع الجوع والخراب في المدينة.

وحدها كانت الكلبة الوردية تهوم بين الحين، والآخر باتجاه كعكة الرئيس الفاخرة، وفي ذهنها صور مشوشة عن طعام ما، فتشب واقفة على قدميها لاعقة بلسانها صورة الكعكة، محاذرة أن يمس لسانها الوردي سكين الرئيس، التي يمسكها، وهو يشرع بتقطيع الكعكة.

ومن فترة قريبة تحول المغامرون الباحثون عن أسباب أستمرار الحياة إلى جمع نوى التمر بعد أن عز على الجميع أن يجدوا كسرة خبز واحدة بين تلك النفايات اليومية، التي أحتوى قسمها الأعظم على تراب البيوت الرطب.

وتغير أسلوب غنائهم فصارت كلمات أغنياتهم تتحدث عن أشياء تجيء دائما متأخرة وقد بدوا في منتهى البؤس بروؤس صلعاء، ووجوه وأسنان صفراء، وأفواه كريهة الرائحة، وملابس متهرئة باهتة الألوان أغلبها كانت ملابس جنود قديمة.

تكومت النفايات بعشوائية على جانبي الطرق لئلا تعرقل مرور سيارات الحكومة المسلحة بالرشاشات الثقيلة ليلاً ونهاراً لتحافظ على الصور الضاحكة للرئيس، الملصقة على الجدران من العبث، وكتابات اليائسين البذيئة.

وفي بيوت تلك المدينة، الكئيبة كان الناس يجمعون نوى التمر في أكياس قديمة كانت عبوات أسمنت فيما سبق، ويباع للمطاحن القليلة ليطحن، ويضاف إلى خبز الأهالي الأسود، لزيادة كميته، لإملاء البطون الخاوية.

-27-

الكلبة الوردية اللون كانت تراقب ذلك الكرنفال الصحفي بحذر، ولا تستطيع أن تفعل ما يفعله مغامرو المدينة، حاولت مرة أن تقضم نواة تمر ففقدت جزءاً من نابها، فكلما نظرت إلى نواة بعد ذلك أعترتها ذكريات مريرة غامضة عن ألم ما سيصيبها لو حاولت أن تفعل، ما يفعله أصدقاء النفايات، الذين يغنون طوال وقت نبشهم بمقاطع غنائية شجية.

وقفت قرب مجموعة الأجانب التي تصور المدينة البائسة، وذنبها بين قائمتيها الخلفيتين، بدت وكأنها لا تقوى على الحركة، بعينين غائمتين أرهقهما الحر، وصور اليقظة عن ولائم خرافية، ولحم طازج يقدم للمارة حتى أن سيدة جميلة من البعثة الإعلامية الأجنبية داعبتها بالإشارات من بعيد.

ومرت في ذهن المرأة فكرة أن تصورها، فهي لوحة دالة مؤثرة لما فعله الحصار بالكلبة الوردية اللون المسكينة، وحالما بدأت المرأة تعطي أوامرها للكادر، وتشير إليها.

فبركت الكلبة أولاً ثم مرقت كالسهم بحركة أنتحارية أخيرة صوب ساق السيدة الأجنبية، وأقتطعت بأنيابها قبضة لحم بحجم الكف من عضلة ساقها البيضاء، وسط دهشة الجميع وأرتباكهم، تاركة تجويفاً دامياً في ساقها.

وتعالى لغط الذين حول السيدة وأرتبكت حركاتهم، الكلبة وخطمها ينقط دماً أنسلت بهدوء إلى تحت سيارة الجيب بصيدها الثمين، وأخذت تقلب قطعة اللحم برزانة في تجويف خطمها قبل أن تبدأ بالمضغ البطيء.

-28-

لم يحدث في أي عهد سابق من عهود الرؤساء الذين تكرروا على حكم البلاد بعد داود باشا في العهد العثماني أن بقي الرئيس دون نوم حقيقي ليلاً طوال سني حكمه.

كان الظلام عدو الرئيس اللدود، قد ينام ساعة أو ساعتين في النهار لكنه طيلة سنوات حكمه المديدة لم يضع رأسه على وسادة، وحالما يغيب قرص الشمس خلف الأفق، وفي أحد قصوره التي يتجاوز عددها الألف أرادت لجنة من أفضل مهندسي البلاد أن تصمم شمساً صغيرة خاصة بالرئيس تشرق ليلاً في حديقة أحد هذه القصور.

وكان كل شيء محسوباً في شمس الرئيس الصغيرة.. درجة الحرارة.. شدة الإضاءة تناسق وأمتزاج ألوان الطيف الشمسي حركتها المحسوبة مع الأفق مع تقدم الوقت.

وكلما رفع الرئيس الستائر ليطمئن أن شمسه مازالت مشرقة، وبإمكانه أن ينام ملء جفنيه، ونهاره دائم شعر أن هذه الشمس المصنوعة حيلة ساذجة، ولا معنى لها وأنها ستكون يوماً ما السبب في معرفة المعارضة لمكان نومه، وبالتالي فإنه في اللحظة التي يكون فيها داخل هذا القصر المضاء يكون قلقه كبيراً ومدمراً، وسرعان ما يغادره إلى مكان آخر تاركاً شمسه الصغيرة تكمل دورتها مقلقة نوم الخدم، ورجال الحماية، وموظفات القصر، وحين أجتمع بلجنة المهندسين قرأ أحدهم أسارير الرئيس، وعرف غضبه المكتوم من الأختراع فقال له بلهجة مؤدبة:

ـ أن بإمكاننا أن نقلص وقت الليل!

فانتبه الرئيس إليه وفكر في ذاته أن لم يستطع إلغاء هذا الليل اللعين يمكننا أن نقلصه، ولا يصبح الليل ليلاً سيصير قزماً، ليلاً مريضاً ضئيلاً ومقيداً لا قيمة له.

سيغدو قزماً ولا يمكن أن يخيف أحداً سأحوله إلى أضحوكة نظر إليه مشجعاً، فتنهدت لجنة المهندسين مرة واحدة، وقد عقدوا آمالهم بذكاء زميلهم فأكمل:

- بإمكاننا أن ننقص من وقت الليل ساعتين أو أكثر، وبذلك ينام الناس مبكرين، ويسهل بذلك عمل المخابرات، والأمن، ويخرج الناس إلى أعمالهم، والظلام لا يزال مخيماً.

وبالإمكان فعل ذلك وتدريجياً ننقص من ساعات الليل، ونضيف إلى ساعات النهار، وهكذا حتى يتعود الناس هذا الوضع الجديد، ويغدو الليل نهاراً، والنهار ليلاً أن في ذلك فائدة كبيرة للأقتصاد الوطني..

فكرالرئيس: من الأفضل أن ينام الناس نهاراً، ويعملون ليلاً ذلك أفضل لي ولهم، وبذلك أفيد من ساعتين أضافيتين أنام فيهما ملء جفوني مطمئناً تنهد وقال:

- على بركة الله!

ثم نهض وقبل أن يغادرهم قال ضاحكاً:

- أما ساعتكم الشمسية البشعة، فأزيلوها من حديقة قصري ستصاب كلابي بالجنون من نهارها الدائم!

هز الجميع رؤوسهم ووقفوا احتراماً ثم سمعوا وقع أقدامه على الرخام كصفعات مضخمة عشرات المرات على وجوههم، كانوا لا يستطيعون رفع رؤوسهم في حضرته، وحين تأكدوا من مغادرته هجموا على زميلهم صاحب فكرة إنقاص وقت الليل يقبلونه ويهنئون بعضهم البعض بالنجاة من الكرب العظيم!

-29-

في أخبار الساعة الثامنة الرئيسية أطل مذيع التلفزيون على مشاهديه وفي فمه غصة، كأنما كان يمضغ شيئاً، وهو يخبر الجميع بأن الوقت سيتغير منذ هذه الليلة وأمامهم أدار عقارب الساعة، فجعلها العاشرة مساء.

وطلب منهم أن يديروا عقارب ساعات بيوتهم ويبكروا في الصباح إلى إعمالهم ثم أختفى المذيع أمام دهشة المشاهدين، وأطلت من شاشة التلفزيون منضدة، وحولها جلس كبار أساتذة الجامعات، ومفكرو البلاد يناقشون فائدة إضافة ساعتين إلى الوقت.

وتم بحث ذلك على ضوء قوانين الاقتصاد والنمو الاجتماعي والقوانين المدنية في العالم الثالث وانقطعت الندوة لتظهر مذيعة واسعة العينين مرتفعة الفودين بوجهها المدور وأنفها الأخنس متثائبة.

وهي تهنئ جموع الشعب العراقي بهذه الإضافة العبقرية والمكرمة السخية من لدن رئيس الأمة، وتذكرهم بضرورة تحريك عقربي الساعة إلى الأمام، وتعتذر عن تقديم فلم السهرة المعاد عشرات المرات لأن وقت الإرسال قد أنتهى وفق التغيير الجديد للوقت.

ثم ظهرت صورة الرئيس، وهو يضحك يرافقها بضجة شديدة السلام الوطني ثم أختفت الصورة، وظهرت وشوشة أنقطاع البث، والناس لم يأكلوا عشاءهم بعد، وقرص الشمس لم يغب إلا منذ ربع ساعة.

وبين مصدق ومكذب لما يحدث أوى الناس إلى أفرشة نومهم مبكرين وهم يلعنون الرئيس، ومكرماته.

وفي تلك الليلة علقت جدتي بعد أن وضح لها أحد أحفادها الأمر الجديد فقد صارت أكبر سناً، وفقدت معظم أسنانها، لكنها لم تفقد فطنتها:

ـ أن ما يفعله لن ينفعه من طالبي ثأر أبنها، وهم ليلهم كنهارهم، وقد وضعوا الشمس والقمر في جيوبهم، وسيخرجونهما في أي لحظة بعد أن ينالوا مرادهم من عدوهم، جاعلين أحد الكوكبين شاهداً على ما يفعلون.

قالت ذلك بلهجتها الشعبية، وهي تناول جدي كيس تبغه المعقود حين أبلغ وزير الدفاع الرئيس أن جنوده، قد فروا من الجيش بأعداد كبيرة وذلك بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة، التي تمر بها عائلاتهم، وان عدد الجنود في قوائم دوائر التجنيد يربو على المليون، ولكن المعسكرات لا تحوي فعلياً غير خمسين ألفاً.

أمتقع وجه الرئيس، وبالرغم من أن وزير دفاعه هو أحد أفراد عائلته المقربين إلا أن الوزير شعر بخوف لا مثيل له، فقال الرئيس بعد لحظات صمت طويلة:

ـ ليعلنوا في التلفزيون أن كل من يفر من الخدمة العسكرية تقطع الحكومة إذنيه!

شعر الوزير بالحرج من سؤال رئيسه:

ـ أنقطع أذنيه فعلاً؟

عرف الرئيس ما يدور في رأس وزيره من أسئلة دون أن يسمع من الوزير كلمة، كان قد رأى على وجهه ما يريد قوله فقال بشكل حاسم:

ــ اجل سنبتر الصيوانين بالموسى، ودون تخدير وأمام ذويهم وأهلهم

قال الوزير مرتبكاً:

ــ أيقوم الانضباط العسكري بهذا الأمر أم الجهات الصحية؟

فكر الرئيس قليلا وسأله:

- هل عندكم الإمكانيات اللازمة لتنفيذ هذا الأمر؟

أراد الوزير أن يقول أن الأسواق مملوءة بأمواس الحلاقة، فقرأ الرئيس علامات السخرية على وجه وزيره، فابتسم كان وزير الدفاع يختنق داخلة رغبة بالضحك المجنون، أراد أن يقهقه ضاحكاً وهو يتخيل عمليات قطع صيواني الأذنين لأعداد كبيرة من العراقيين بشكل علني وكما يفعل بالخراف المريضة.

-30-

في ذلك المساء التشريني المغبر كانت دوامات الريح تعبث بنفايات الشوارع، والناس يلملمون جراحهم محاولين نسيان مصائبهم السابقة من حروب الرئيس الكثيرة، قاصدين بيوتهم، حاملين ما تيسر من رزق قليل كسبوه طوال يومهم ليفرحوا به مع عائلاتهم.

الحصار الأقتصادي بدأ يفعل فعله الحقيقي المرعب على الناس، وفي ذلك المساء المشئوم ظهر مذيع التلفزيون بوجهه الكئيب، الذي تدخره الإذاعة لإعلان الإنباء غير السارة، وقرأ نص القرار الرئاسي بقطع صيواني الأذن لكل هارب من الخدمة العسكرية.

وتفويض أفراد الحزب الحاكم وأمن الدولة بالتفتيش عن الهاربين، وجعل مكافأة لكل فرد من الحزب، ممن يقبض على هارب، وينفذ فيه القرار الرئاسي مبلغ عشرة ألاف دينار.

ويبدأ العمل بتنفيذ هذا القرار منذ الساعة السادسة صباحاً من اليوم التالي، وأختفى المذيع الذي بدا الاشمئزاز على قسمات وجهه، وظهرت المذيعة لتقدم برنامج المطبخ العراقي في أسبوع.

فاخطأت المذيعة مرتين أثناء قولها، تقطيع البطاطا، وكان البث مباشراً فقالت تقطيع الأذن ثم صححت خطأها بخطأ أفدح، حين قالت قطع صيوان البطاطا وأنتبهت إلى غلطتها فقالت :

ــ عفواً ليس من المعقول أن تكون للبطاطا صيوانات، ولو كانت لها لصنعنا منها عجة بيض لا مثيل لها!

هذه المذيعة منكودة الحظ لم تعد تلك الليلة، ولا بعدها إلى أهلها، وفقد أهلها كل آثر لها، ولم تعد موجودة في كوننا!

وداخ الناس بالقرار الجديد وظن البعض أن ثمة خطئاً ما في الأمر واتصل بعضهم بإدارة التلفزيون للتأكد من صحة ما سمعوه، وأزدادت

التكهنات والتقولات هل يقطعون الصيوانات فعلاً أم أنها مجرد نكتة سمجة أو خطأ إداري في حلقة من حلقات الإعلام الحكومي، والبعض الآخر الذي اعتاد سريالية القرارات الحكومية أستجاب فوراً، وأخذ أولاده الهاربين من الخدمة العسكرية وسلمهم في ذات الأمسية إلى اقرب مركز شرطة أو مقر من مقرات حزب الدولة كما نص على ذلك القرار الحكومي.

ومع هذا وبعد الساعة السادسة من صباح اليوم التالي لم ينج أحد من مذبحة قطع صيوان الأذن، وكان سبب ذلك بسيطاً لا تعقيد فيه كما يظن ويقوم على بديهية إنه ليس من المعقول أن يتنازل أفراد حزب الدولة عن منحة العشرة ألاف دينار مقابل أي واحد من المغفلين التافهين.

وقد جاء الهارب بنفسه ليسلم أذنيه إليهم قبل تنفيذ القرار، وكان بالإمكان توقيع ورقة أستلام المجرم حتى صباح اليوم التالي، وبذلك يكون الهارب قد سلم نفسه بعد نفاد مهلة العفو.

وفي كثير من الحالات والمواقف برزت إشكالات تتطلب رأفة بالهارب، ومنفعة مادية للحزبيين، ممن شاء حظهم العاثر الوقوع في هذه الورطة، إذ كانت العائلات المفجوعة بأبنائها المقبوضين تدفع العشرة ألاف دينار إلى الحزبيين، وحين ذلك ينقذ الأهل صيواني أبنهم من القطع، ويكتب مسؤول حزب الدولة على ورقة التسليم إنه جاء قبل نفاد القرار.

وبذلك يتم اعتبار الهارب بحكم النادم على فعلته، ولا يطبق بحقه الجزاء في السادسة من صباح ذلك اليوم الأسود، الذي تكاثف الضباب قطرات كبيرة من الندى فيه.

وفي غبشة الفجر أنزلت سيارات الزيل العسكرية العشرات من حزبيي الدولة، ورجال مهماته الخاصة بملابسهم العسكرية المرقطة، وأخذوا يداهمون البيوت، وهم مدججون بالسلاح وأخرجوا الأبناء ممن هم بسن الخدمة العسكرية، وسط صراخ الأمهات والأخوات، والنعاس لم يزل في عيون الجميع وأخذوا يركلونهم بعد أن ربطوا أيديهم إلى الخلف.

كان يوماً عصيباً على الجميع حتى أولئك الذين كانوا أكبر سناً ولا يشملهم القرار طالتهم إجراءات التفتيش، والتدقيق والمسؤلون في الحزب يراقبون صيوانات الأذن للجميع، واللعاب يتساقط من أفواههم ويدققون في وجوه النساء مخافة أن تكون النساء من الشباب الهاربين المتخفين بأزياء النساء.

وكانت العجائز والشيوخ يقفون في أبواب البيوت يراقبون أفواج الشباب المقتادين إلى الشاحنات العسكرية الواقفة في زوايا الشوارع.

كان صراخ النساء وهن يتبعن المقبوضين يقطع نياط القلوب، فطفقت عجائز الأبواب بالبكاء، ولطم الخدود، وكان الشيوخ يسخرون منهن ومن رقة قلوبهن!

-31-

أمام مقر الحزب الحاكم وسط المدينة أجلسوا أول الهاربين المقبوض عليهم على صفيحة أمام الناس، وقطع حزبي ضخم الجثة صيوان أذن الهارب بمدية حادة بلمح البصر.

كان يمسكها بيده وعرضها على الجمهور، وهي تقطر دماً كان الشاب النحيل مقيد اليدين، ورفع رجل الحزب الحاكم الصيوان المغمس بالدم من جديد عالياً، ليريه إلى الناس الأبعد ثم وجه ركلة للشاب فسقط أرضاً، وبقي الشاب يرفس في التراب بقدميه المقيدتين وصرخاته تزلزل صمت الواقفين...

وردت مرحمة أبوية من الرئيس بالأكتفاء بقطع صيوان واحد بدل الصيوانين قبل تنفيذ العقوبات بالمذنبين بساعة واحدة، وقد أقعى بقية المقيدين بانتظار دورهم.

وكان أحد المساعدين ضخام الجثة يعالج من جز صيوان أذنه بوضع الصليب الحديدي المحمي على النار حد الأحمرار على جبهته، وفي الوسط تماماً، لوشمه إلى الأبد بصليب أسود.

وكان الدخان يتصاعد من جبهة المحكوم لحظة التصاق القرص الحديدي الساخن بالجلد، وتصاعد رائحة شواء حريفة، وفقد المقبوض عليه وعيه.

كانت بعض المنتميات للحزب الحاكم يزغردن للأنتصارات التي يحققها الحزب الحاكم كل يوم على الأعداء، وأمهات المعاقين يصرخن محاولات الوصول إلى أولادهن من خلال السور البشري، الذي صنعه حزبيو الدولة المدججون بالسلاح حول ساحة تنفيذ العقوبات.

وخلال نصف ساعة من ذلك النهار أكمل الجلاد جز صيوانات ووشم جبهة عشرة من الهاربين، ولكن أحد الحزبيين همس بأذنه، وهو في قمة نشوته أن خمسة من العشرة الذين نفذ فيهم الحكم قد ماتوا!

ربما بسبب النزف الشديد فطلب منه المسئول الحزبي السمين، الذي كان بفانلته البيضاء، وقد بقعت قطرات الدم بياضها أن يتصل بقيادة الحزب، ويبلغهم أن بعض المجرمين قد ماتوا، من جراء تنفيذ القرار

فيهم، فما العمل في قيادة الحزب المركزية وفي غرفة العمليات الخاصة بقطع صيوان الأذن ؟

تواترت الإنباء من مختلف الأنحاء عن موت جماعي لكل من نفذ فيه القرار، وأخذت تتواتر الأنباء من القرى والمدن البعيدة عن هذا الموت الغريب نزف شديد ثم موت متشنج سريع.

فأصدر الرئيس الذي كانت التقارير تنقل إليه من غرفة العمليات بشكل مباشر أمره بتحويل تنفيذ القرار إلى وزارة الصحة، وأبلغت مقرات الحزب في مراكز المحافظات، وهي بدورها أبلغت القيادات الفرعية في الاقضية، والنواحي ثم نقلت الأوامر إلى المراكز في القصبات بعد نصف ساعة أخذت تتواتر أخبار غريبة من وزارة الصحة.

فحسم وزير الدفاع تضارب الأخبار، وأختلافها بان طلب من وزير الصحة أن يرأس بنفسه غرفة عمليات مركزية تنقل بشكل مباشر، وعلى خط القيادة الساخن، الذي يرتبط مباشرة بهواتف الرئيس على أن يتم ذلك خلال ساعة واحدة.

ويتم نقل الأخبار السيئة والجيدة مع تحليل واف لكل ما يجري في الواقع، وخلال ساعة بدأت برقيات غرفة عمليات وزارة الصحة تتوالى عن أنتحار بعض أطباء الجراحة والتجميل، ورفض القسم الآخر المطلق تنفيذ أمر القيادة، لأنه يتعارض مع قسمهم الطبي عند التخرج، الذي ينص على معالجة الناس من أمراضهم، وليس تشويههم وقتلهم!

والتحليل الموجز المرفق مع أسماء الأطباء يثبت أنهم خائنون للوطن وأنهم لم ينتموا للحزب الحاكم طيلة حياتهم، وقد وقعت غرفة عمليات وزارة الصحة، وعمليات القيادة في خلاف شديد بشأن العقاب المناسب للأطباء، الذين يرفضون تنفيذ أمر القيادة.

أولئك الذين لم ينتحروا كما فعل غيرهم، فالتبس الأمر على القيادة المركزية، وأخذت الأجتهادات تأخذ دورها بين الغرفتين، وزارة الدفاع من جهة أقترحت أن ينسب الأطباء إلى وزارة الدفاع كجنود أحتياط حتى تستطيع الوزارة أن تطبق بحقهم قانون الجندية القديم، الذي ينص على عقوبة الإعدام للجندي عند عدم أطاعته للأوامر العسكرية، أثناء فترة الحروب!

وأقترحت غرفة عمليات وزارة الصحة طردهم من الوظيفة، وإلغاء شهاداتهم العلمية، ومنعهم من مزاولة مهنة الطب طيلة أعمارهم، وحسم الرئيس الأمر بأن تدخل صوتياً بين المتهاتفين الذين احتدوا في النقاش حد

الشجار:
- يا أخوان لا تختلفوا، الموضوع بسيط جداً.. أقطعوا صيوان أذن الطبيب، الذي يرفض قطع صيوان أذن الجندي الهارب!
وصاح الطرفان من على جانبي الخط :
- أمرك سيدي الرئيس!
وهكذا صار الطبيب، الذي يرفض تنفيذ أمر القيادة يعرض نفسه لعقوبة قطع صيوان الأذن، بواسطة طبيب آخر، وإذا رفض ذلك الآخر تنفيذ العقوبة بزميل مهنته يعاقب بقطع صيواني أذنيه معاً بواسطة طبيب ثالث، وإذا رفض الثالث الأمر يقوم حزبي بدرجة رفيق من العاملين بقطاع الصحة بتنفيذ العقوبة بالثلاثة!

-32-

وحسم الآمر نهائياً في ذلك الصباح الدامي، الذي قطعت فيه صيوانات الأذن لآلاف الشباب ..
خرج المعلم إلى السوق بإلحاح من زوجته، التي ما عادت تعرف عد الأوراق المالية بفعل أرتفاع الأسعار، وبهاجس، الذي يريد أن يعرف مدى أستجابة الناس لهذه المذبحة الجديدة شعر المعلم بالخوف والمرارة، وهو يسمع بائعات الطماطم، وهن يشتمن الرئيس علانية، وبائعي الخضروات وهم يتندرون بما فعله الرئيس بأبناء الناس قال أحدهم:
ـ أن وحش الشاشة العربية (يقصدون الرئيس طبعاً فكر المعلم، وهو يخطي خطواته المتعبة في السوق) ينوي أن يقيم وليمة من صيوانات العراقيين المقطوعة لكلابه الجائعة.
قال أحد الشيوخ :
هذه السنة دارت على الأذانات بدلاً من الحروب يريد أن يمنع القيل والقال فمن لا يسمع لا يستطيع أن يقول شيئا مفيداً وقهقه ضاحكاً.
تسوق المعلم كيلو طماطم وكيلوين من الدقيق، ورجع إلى زوجته وقال لها خائفاً :
ـ ستقوم ثورة في البلاد يا حبيبتي عما قريب، تحيا الحياة.. وتحيا الحرية، فلتحيا الحياة في هذه البلاد المظلومة !
قالت الزوجة، وهي تقلب الدقيق بكفها :
ـ دعنا من ثورياتك وأرجو أن لا يكون الدقيق مغشوشاً كالمرة السابقة.

ـ جئت به من ذات البائع الذي نشتري منه في كل مرة.
ـ إذا وقع العجين في قعر التنور لا تنعتني بالمتخلفة !
وقد دأب في الشهور التي تلت مرضها على نعتها بالمتخلفة، لكثرة الأمور التي تفعلها بحمق شديد فقال غاضباً :
ـ أقول لك الثورة ستقع في بلادنا ضد الدكتاتور قريباً، وأنت تتحدثين عن الدقيق المتعفن .. أقول لك أن الحياة ستحيا من جديد في بلادنا، وأنت تسخرين مني !
ــ أنت يا عزيزي تتحدث عن أشياء لا افهمها، ولا تساهم في أطعامنا.
قال وهو يكز على أسنانه :
ـ حبيبتي أتركيني الآن لأسمع ما تقوله وكالات الأنباء العالمية عن المذبحة، التي أدارها الرئيس بالأمس في بلادنا ببراعته المعهودة وببرودة دم يحسد عليها.
وبأهتمام أدار المعلم موجة الراديو، كانت الإذاعات تتكلم عن كل شيء في العالم إلا ما حدث بالأمس في العراق كأن مؤامرة كونية تنسج خيوطها حول أهل العراق، وكل يوم تغزل خيوطاً جديدة حول أعناق الناس، وليس ثمة أصداء لصرخاتهم في أي مكان ..

-33-

أثناء سنوات الرفاهية القليلة عندما أرتفعت أسعار البترول عمد الرئيس إلى دعوة رؤساء الدول الفقيرة، وكان يدهشهم عند التوديع حين تكون طائرة الخطوط الجوية الوطنية بالأنتظار، وقد ملئت ممراتها وخانات حفظ الحقائب من الأعلى فوق الرؤوس بحزم الدولارات.
وكانت الدهشة تعقد السنة الرؤساء الزائرين لأن العرف العالمي السائد أن تكون المساعدات التي يتلقونها من الدول الغنية تكون عادة بالصكوك، والتحويلات المالية على مصارف عالمية.
ولكن الرئيس أختصر كل هذه الإجراءات العقيمة ليزيد فرح زائريه ويثير دهشتهم، وقد عمد أحد رؤساء هذه الدول طوال رحلة العودة إلى بلاده مع مساعديه أحصاء الرزم الممنوحة لهم كمساعدة.
وكان كلما أحصى مليوناً من الدولارات غمز للمضيفة العراقية، التي كانت تتولى خدمتهم والموظفة المسكينة تنتظر منه أن يقدم لها ولكادر الطائرة من العراقيين رزمة من تلك الرزم، التي توزعت على مقاعد

المسافرين الفارغة من الركاب، لكن ذلك الرئيس الأفريقي بخل عليهم بتلك الرزمة، واعتقد إنه ليس من اللائق أن يكرم أتباع من كنت تستجدي عند رئيسه قبل ساعات!

في تلك السنوات القليلة المليئة بالخيرات امتلأت خزائن الرئيس بعائدات النفط، فراح يبذر المال هنا وهناك.

كان في حينها يخطط ليكون رئيساً متفرداً بين رؤساء العالم الثالث الذين سبقوه وإمبراطوراً على آسيا وأجزاء من أفريقيا، ولا يعرف أحد من مستشاريه من زرع في رأسه فكرة صناعة قنبلة تكون أكثر فتكاً وتدميراً من القنبلة الذرية والهيدروجينية.

وأنقلب كيانه وأخذ يخطط على الورق أشكالاً مختلفة لقنبلة المستقبل الخارقة وبين الحين والآخر يمزق الأوراق، ويكتب غيرها، وأخذت شهيته للطعام بالتناقص، فكان عندما يوضع أمامه الخروف المحشي، وهو وجبته التي يحبها ينظر إليه مكشراً.

فيرفعه من أمامه أربعة من خدم القصر، وهم يرتجفون رعباً ودون أن يغادر كرسيه يطلب ورقاً وقلماً، ويزيد خطوطاً أضافية على قنبلته العجائبية.

ويبقى كذلك يخطط ويحسب على الورق التكاليف الضرورية، وحين يتعب، ويهده الجوع يغفو على كرسيه المذهب عشر دقائق لا غير ثم يهب مذعوراً كأنما لدغه عقرب، ويضيف خطاً جديداً على مسوداته.

أزداد شحوبه يوماً بعد يوم وأخذت عيناه تلمعان، وشعر إنه يسير في طريق مسدود، ولم يعد يستطيع أن يخترع شيئاً جديداً مثلما كان يفعل مع صديقه ابن الحاج سعدون كما في الأيام الخوالي وفكر :

(لماذا يتعب رأسه، ولديه الكثير من المال والعلماء يتسكعون في شوارع أوربا باحثين عن عمل، فلماذا لا يجمعهم في العراق ويغدق عليهم المال ليصنعوا له قنبلته العظيمة، لتحقيق حلمه القديم ؟)

وأخذ يبتسم لهذا الخاطر، وتساءل كيف فاتته هذه الفكرة الحاذقة التي تقربه من تحقيق أهدافه وأنفتحت شهيته للطعام من جديد فأخذ يطلب أنواعاً مختلفة من الطعام، وفي أوقات متقاربة في اليوم الواحد، فأرتبك الكادر المطبخي في قصر الرئيس.

وأختلط حابل الخدم بنابل الطباخين فترى في تلك الفترة ثلاثة يحملون قدراً كبيراً من الرز المحشو بقطع الكبدة، وآخرين يهرولون حاملين خروفاً مشوياً.

ومن ممر آخر يأتي سرب من الطباخات وهن يحملن أوعيه ملأى بالفاكهة، ولم تزل أمامه صحون الحلوى ملأى بمحتوياتها، وثمة سمكة عملاقة مشوية ينز الدهن منها متساقطاً على زرابي القصر الفارسية، ورائحة المطيبات تنثال من حولها، وقد حملها ثمانية من الطباخين السمان بمرايلهم البيضاء يتقدمهم تاسع وهو يحذر القادمين، والذاهبين من الزفر، ويطلب من العاملين فتح الطريق لمرور سمكة الرئيس المشوية، وهو يصلي على الرسول الكريم بين فترة، وأخرى بصوت جهوري رخيم يهز قاعات القصر ويطرب السامعين.

-34-

أبرقت وزارة الخارجية إلى سفاراتها في كل من أوربا وأمريكا بضرورة الاتصال بكل من له علاقة بعلوم الذرات والجزيئات والكيمياء عموماً والفيزياء النووية خصوصاً.

وأخذت السفارات العراقية في تلك الدول الاتصال ببيوت العلماء، وحتى الهواة الذين لم يثبتوا جدارة بعد، وترسل إليهم الهدايا الثمينة ملفوفة بأوراق البنكنوت من فئة المائة دولار، وقد ألصقت بعناية شديدة، وقد هيأت السفارات كادراً كاملاً من خريجي معاهد الفندقة تم التقاعد معهم من الدول المضيفة برواتب مجزية لصنع الزهور بأوراق الدولارات دون أن يتسببوا في إتلافها.

ومع المغلف الدولاري الثمين يرفق عنوان السفارة العراقية، وطلباً بموافاتها في ساعة معينة لحضور حفلة شاي وعمل تقيمها السفارة.

توافد العلماء والدجالون، وأصحاب التخصصات النادرة، ومن لا عمل حقيقياً لديهم والجواسيس أيضاً على سفارات العراق في كل أرجاء أوربا، وأمريكا واليابان والدول الاشتراكية...

أعداد ضخمة من الكوادر العلمية المتخصصة، وغير المتخصصة كان يعطى للواحد من أولئك المدعوين مائة ألف دولار، ويعدونه بمائة ألف أخرى، عندما تنتهي مدة العقد، ويوقعونه على عقد أولي، ويختمون جوازه مع بطاقة سفر مجانية على ظهر الأسطول الجوي العراقي.

وبدأت أعداد كبيرة من العلماء والدجالين، والحالمين بالحصول على الثروة بالوصول إلى بغداد، وتم نقلهم إلى فنادق فخمة في بغداد.

ومن جانب آخر تلقت وزارة الصناعة الأوامر بان تهيئ الورش

والمشاغل، وشركات القطاع العام لتنفيذ أنجاز المشروع السري الخاص بالقصرمع السكن والأماكن الترفيهية للخبراء القادمين.

وخلال شهر واحد ابتدأت المشاغل بإنتاج أجزاء السلاح الجديد الذي سمي باسم الرئيس، وكان يطلع على التقارير الخاصة بالمشروع السري، وهو يأكل بكلتا يديه خروفه المحشو ملوثاً الورق الملون، وإلى يمينه يقف حامل أبريق اللبن، ليعطيه ليشرب بين لقمة، وأخرى لتسهيل البلع السريع..

-35-

في يوم الجمعة من كل أسبوع يلتقي الأدباء في مقهى شعبي يطل على شارع الرشيد وسط العاصمة بغداد يشربون شايهم، وينشغل المدخنون بلف لفافات التبغ، أو شراء سيجارتين من بائع جوال كان فيما سبق شاعراً عمودياً معروفاً، لكن ظروف الحصار والمعيشة الصعبة جعلت منه بائعاً للسجائر المفرد في مقهى الأدباء.

والبعض الآخر من الأدباء كانوا يجمعون ثمن سيجارة ويؤرثونها، وأصابعهم ترتجف، وتدور عليهم كما يفعل الحشاشون بسجائر الكيف، وفي كل يوم جمعة يأتي المقهى يوسف القاص، وحين لا يجد بين الجالسين وجهاً غريباً يفتتح الجلسة كما يقول أحد الأدباء ساخراً بشتم الرئيس، وأيام حكمه، واليوم الأسود الذي أبقاه شخصياً في الوطن.

ويحاول المعلم الذي يكني نفسه بصديق الأدباء، وكان دائم الحضور إلى تلك الجلسات تهدئته، وإنذاره بان ضغطه سيرتفع أن أستمر في خطبته الشتمية تلك، فيقول يوسف:

سأذكر هذا في الرواية، التي سأكتبها لن أنسى شيئاً مما فعله بنا هذا الدكتاتور، وسأله المعلم بصوت واطئ :

ـ ألا تخاف؟

ـ وممن أخاف إنه في نهاية الأمر سيقتلنا جميعاً!

وبعد جمعتين، وبسبب شتم أديب آخر للرئيس طيلة صباح الجمعة، وبعد صلاة الظهر أرتفع عنده الضغط كثيراً، وسقط فاقداً وعيه على منضدة قريبة من منضدة يوسف وبعد قليل عض لسانه ومات، وبدا المنظر الحزين، وكأن الميت يمثل مشهداً في فيلم هزلي يمثل فيه البطل رجلاً مسكيناً يموت فجأة في مقهى مزدحم!

ولم يعد أحد يخاف شيئاً، فسجل يوسف ذلك الحدث الضاج بالألم في

مخطوطته بالرغم من إحساسه العميق أن أولاد الأديب سيتبرؤون من أبيهم في الصحف المحلية حال أطلاعهم أو سماعهم بحكاية أبيهم في الرواية حين تنشر، خوفاً من أنتقام السلطة بسبب الأطنان الكثيرة من الشتم السري للدكتاتور ونظامه.

الذي كان يمارسه المرحوم طيلة سنوات عمره دون أن يعرف رجال النظام بذلك، وسيعاقب وزير الداخلية شخصياً المسئولين عن الأمن والمخابرات في المقهى، وربما سيعلق صاحب المقهى في واجهة مقهاه الزجاجية كالذبائح قريباً من السماور النحاسي الكبير، لسماحه بجلوس أدباء مريبين في مقهاه دون أن يبلغ عنهم أو يشي بهم، خاصة عندما يسمع شيئاً ضاراً بالحكومة، ويحط من قدر رئيس البلاد، فليس من المعقول أن يقدم لهم الشاي دون أن يسمع شتمهم للرئيس، ودون أن يحرك ذلك ساكناً في نفسه.

***

صار يوسف بعد ذلك هادئاً، وتوقف عن الشتم غير المجدي، وحدث المعلم عن السبعينات في تلك الأيام الضاجة بالأحداث، والشعر والتمرد حين كان الأديب أديباً حقاً وله كلمة صادقة فيما يحدث تلك الأيام.

ولم يكن بوقاً لأحد أبداً، وكان مشاركاً فعالاً في أتحاد الأدباء.. حدثه عن ذلك الشاعر السبعيني الذي أتى به رجال الأمن مقيداً بالحديد، وقد فقد نصف أسنانه، وهو يقاوم شرطة الرئيس السابق في أهوار الجنوب مع مجموعة من المعارضين.

وحين أدخلوه على الرئيس بشكل مباشر، وكانت وصية الأخير لوزير داخليته أريده حياً هذا الشويعر، وفي حقيقة الآمر أن ثمة بيت شعر غزلي قال ذلك الشاعر، وحفظه الرئيس قبل أن يصبح رئيساً في البلاد وكان يردده بين الحين والآخر حين يختلي بنفسه.

ومن أجل هذا المقطع الشعري القصير، الذي قاله الشاعر منذ زمن بعيد في لحظة سكر استطاع أن يحمي رأسه من النطع في أهوار الحمار الشاسعة، وسط أسراب الجاموس النافقة بفعل السموم الكيماوية، التي نشرتها الحكومة في مياه الأهوار.

وحين أُدخل الشاعر مكبلاً بالحديد ابتسم الرئيس، وهو يتذكر ذلك المقطع من القصيدة، التي قالها ذات الشاعر، وردد الرئيس المقطع الذي كان يحفظه منذ زمن بعيد، فأكمل الشاعر القصيدة، والدموع تسفح من عينيه سأله الرئيس:

ـ من تعني في هذه القصيدة؟
لم ينطق الشاعر بكلمة أكمل الرئيس سؤاله:
ـ أهي امرأة ؟
ومن جديد كانت إجابة الشاعر الصمت، لكنه أخذ هذه المرة يمسح دموعه بما تسمح القيود لمعصميه من فسحة لتحريك كفيه نزولاً وصعوداً، ضحك الرئيس ساخراً:
ـ الوطن هذا ما قصدته ؟ أنه وطننا وليس وطنك، فلم أنت مشغولاً به كل هذا الأنشغال ؟ حقاً الذي ليس له عمل يلعب ...
لم يكمل الكلمة البذيئة، وقهقه ضاحكاً ضحكته المميزة المعروفة وأكمل :
ـ انتم معشر الشيوعيين تقولون الشعر، والسفسطة السياسية، ونحن نحكم أبقوا على ما انتم فيه، وسنبقى نحن أيضاً نفعل ما نحب ونريد!
رفع الشاعر رأسه وحدق في عيني الرئيس:
ــ ولكن التاريخ سيكتب ما نقول!
ـ فليشبع التاريخ مما تقولون، فلاشيء لديكم غير الكلام، ونحن سنقوم بتغيير مصير الوطن والشعب!
وصمت الرجلان، كأنما يزنان ما قالا، وبعد قليل أكتسى وجه الرئيس بالهدوء، والرضا عن النفس، وانتظر ريثما يكمل الشاعر مسح دموعه وقال مساوماً :
ـ سنعطيك داراً على دجلة، وسيارة جديدة ودخلاً أضافياً، وسرباً من النساء الجميلات، وتكون رفيقاً لنا وليس عدواً، فهل ترضع معنا ؟
قال الشاعر، ودموع جديدة تلتمع محتبسه في الموقين، لأنه شعر أن حياته التي أنفق سنواتها في النضال من أجل حياة كريمة للناس تحولت إلى شريط سينمائي قديم بالأسود، والأبيض قُطع ألف مرة، وأعيد لصق أجزائه.
وهذا الماضي، الذي طالما شرفه يتوقف مصيره على كلمة واحدة سيقولها الآن، ومن دون أن يفكر طويلاً قال بتصميم لا يلين :
ــ لا والله لا أريد أن أرضع معكم، فقد رضعت من أمي وأكتفيت!
حدق الرئيس في عينيه كأنما يريد أن يرى ذلك الشخص القابع داخل الشاعر:
ـ أذن ماذا تريد؟
ـ أريد الرحيل بعيداً عن الوطن!

ضحك الرئيس، وأخرج من مكتبه جواز سفر قدمه للشاعر:
ـ كنت اعرف انك سترفض كل عروض الرضاع، وستطلب الرحيل، وقد طلبت أن يهيئوا لك جواز سفر، لكنني سأعطيك مهلة أثنين وسبعين ساعة لتغادر البلاد، إذ بعد هذه الساعات سأرسل من يقتلك حتى لو كنت في جزائر ألواق واق!

وبإشارة من كفه الموشومة أخذ رجال الحماية يفكون أقفال القيد عن يدي الشاعر.

وبيد مرتجفة أخذ الشاعر جواز سفره غير مصدق إنه نجا، ومخافة أن يتراجع الرئيس عن قراره أخذ الشاعر يتراجع إلى الوراء بخطوات حذرة كأنما كان ينظر إلى أفعى أمامه.

وركض بعد خطوات صوب حديقة القصر معتقداً أنهم سيطلقون النار عليه بعد لحظة، وخرج من البوابة الرئيسية، وهو يلهث باتجاه كراج الحافلات المسافرة إلى دمشق، وفي رأسه ترن ضحكات الرئيس التي تهدده بالموت.

-36-

عاد أبي إلى البيت بعد فترة تشرد دامت ثلاثة أعوام كاملة، لم يسأله احد أين كان أو ماذا فعل، وأمي التي تجللت بالسواد طيلة تلك الفترة التي فارق بها أبي البيت ظهرت على وجهها الذابل أبتسامة، وبدت فرحة مشدودة إلى حلم ما، وهي تضع قدر الماء على البريمزالضخم أستعداداً لاستحمام أبي.

كان جدي في مشراقة البيت وبيده ماكينة حلاقة قديمة، وهو يحلق لحيته، ويجعل هيئتها على شكل مثلث متساوي الساقين متتبعاً آخر تقليعة للحى عند الشيوخ كانت منتشرة في تلك السنة.

أرتجفت كفا جدتي، وهي ترى أبنها مقبلاً دافعاً باب الصفيح الخارجي على سعة الفتحة بملابسه القديمة المرقعة، وعليه تلك السترة العتيقة التي أشتراها من أحد أسواق بغداد للأشياء المستعملة.

وبدا عليه إنه كبر عشر سنوات.. كنت جالساً قريباً من جدي في

المشراقة أسمع أصوات شهقات جدتي، وهي تحتضن أبي وتقبله .. جدي حين رأى أبنه قال ضاحكاً:

- ها هو أبوك، لا يزال فارساً صنديداً كما تركته! ولكن قبل أن تذهب لتقبيل يديه أذهب وأنظر من باب الدار إلى الطريق.. هل أستعاد سيارته المسروقة أم انه أضاف المزيد من العار لعائلتنا بتشرده طوال السنوات الماضية؟

لم أجرؤ على التحرك باتجاه أبي كان يبدو لي غريباً، ولا اعرفه ومازلت أتذكر أني فكرت لحظتها، لو أنني كبرت مثله، وتزوجت امرأة كأمي، وتساءلت، هل أصبح مثله بهذه اللحية السوداء النامية بكثافة والشارب الكث، والشعر الملفوف كالأسلاك الرفيعة المجدولة، وتلك الحدبة الصغيرة الظاهرة بين الكتفين؟

في تلك اللحظة كرهت أن أكون بقذارته ويأسه وحزنه وفقره الظاهر، وعدم مقدرته على التعبير عن نفسه وقت الفشل، كرهت أن أكون مثله تاركاً أمرأته وأبنه طيلة هذه السنوات باحثاً عن شيء يسمونه سيارة مسروقة!

ولم أكن افهم بعد تلك المعاني الكبيرة المترددة على ألسنة الكبار، حول الشرف والعار، ونظرات الشماتة في عيون الأعداء، لا ادري كيف أخذني أبي والفرحة تطل من عينيه، وهو يرفعني إلى صدره صارخاً بفرح حقيقي

-أبني صار كبيراً ولم أعد أستطيع حمله!

كانت أمي في فناء الدار، وبيدها مغرفة الطعام، والحشد العظيم من أبناء عمومتي الصغار، ونساء أعمامي وأعمامي الكبار والصغار يركضون صاخبين بأتجاه القادم.

شعرت بقلب أبي ينبض قريباً من قلبي عندما رفعني عن الأرض بصعوبة، وأحتضنني، وفي تلك اللحظة الضاجة بالحنين غفرت له كل شيء، وتمنيت أن أكون مثل جدتي، التي لم تخف فرحتها، وأشترت بما أدخرت من مال عجلاً سميناً.

وقدم جدي خروفين من خرافه التي يرعى بها أحد أولاد عمي في مزابل المدينة وأطراف المزارع، ووجه جدي الدعوات إلى كل أفراد عشيرتنا، والجيران وأستثنى شيخ العشيرة، قائلا لمن سأله عن السبب في عدم دعوته للشيخ أن الذي يفرق شعره بالمشط من الوسط كما تفعل الصبيات، ويدهن شعره بالزيت لا يحق له الجلوس مع الرجال!

وذهبت مقولة جدي بحق الشيخ إلى كل بطون العشائر وبيوتها،

وتناقلها الأفراد، كما يفعلون مع الشعر الشعبي الجيد، وقد ساهمت هذه الكلمات، التي قالها جدي بالقضاء تماما على مستقبل ذلك الشيخ بين العشائر، وصار أضحوكة، ولم يحترم كلمته أحد بعد ذلك، ونظر إليه شيوخ العشائر حين ألتقوا به أثناء عقد الفصول والحشوم* والأفراح والمعازي نظرتهم إلى مدع، وبدعة من تلك البدع التي يبتلي بها الله العشائر بين وقت وآخر، ليجرب أيمانهم وصبرهم، وتمسكهم بدينهم الحنيف، وعرفهم العشائري.

وأقسم بعضهم على عدم مدَّ أيديهم لمصافحته إلا في وقت الضرورة القصوى، وإذا فعلوا ذلك عمدوا بعد ذلك إلى غسل اليد التي صافحته أربعين مرة، لمسح نجاسته، والتي أشاعوا أنها تبطل الصلاة!

---

* الفصول والحشوم: مفردها فصل وحشم، وهو المال المقدم من قبيلة إلى أخرى دية عن مقتول أو تعويضاً عن خسارة ...

-37-

ظهر أبي في ذلك الأحتفال الكبير، الذي أقامه جدي بمناسبة رجوعه إلى البيت بعد تشرده الطويل بثياب بيض جديدة، وعقال أسود رفيع ويشماغ أحمر، بوجه حليق ذابل تبرز منه عظام الفكين، كأنما عانى طويلاً من جوع وحرمان مريرين.

لن أنسى شكله ذاك أبداً، وكثيراً ما جاءني في عالم النوم، كملاك أبيض له أجنحة كثيرة، وهو على تلك الصورة، التي طل بها على جمع المدعوين في ذلك اليوم البعيد.

وفي تلك الليلة التي ما زالت أصداؤها في راسي غنى الموهوبون من عشيرتنا أغنيات جنوبنا الحزينة عن الفراق، واللقاء الذي يمتد في الزمن للحظة فقط، والجمال، وفورة الحياة وديمومتها، وجمال نسائنا وألحاظهن القاتلة، وإخلاصهن العبودي في تنفيذ وعودهن، وحماية العشيرة للدخيل، وعدم خوفنا من الموت، ومداعبتنا لأهدابه كل يوم من أيام حياتنا..

كانت أمي مسرورة بذلك الأحتفال بعودة زوجها، وقد لبست أجمل ثيابها، وغسلت شعرها من الحناء وعطرت ثيابها بالبخور، ورأيت لأول مرة بعد غياب أبي شبح أبتسامة مستدقة على شفتيها.

وفي هذه الأثناء ضبطت جدتي أبن عمي مرهون، الذي كان أكثر شيطنة من جميع أبناء أعمامي قاطبة، أثناء نقل طعام الدعوة إلى المدعوين كان

جالساً فوق سور البيت قريباً من البوابة التي يمر منها الرجال، وهم يحملون على رؤوسهم صحاف الطعام المعدنية الواسعة، فيعمد إلى سرقة قطع اللحم الكبيرة من فوق تل الأرز، ويضعها في قدر وضعه في حضنه دون أن يشعر به أحد.

وبعد أن يمتلئ قدره يفرغه في أحضان مجموعة من أطفال المدينة الأوغاد من أصحابه، وقفوا بعيداً عن مكان الأحتفال متظاهرين بعدم الأهتمام بما يجري، ولكنهم يزدردون بأكفهم غير المغسولة، ما غنموه من قدر مرهون من اللحم بفظاظة تشبه ما يفعله جيراننا المعدان في الولائم.

أمسكت به جدتي، وهو يسرق أكبر قطعة لحم، وحاول أن يفلت من قبضتها الحديدية فوق السور، وبيده قدر المسروقات ولشدة أرتباكه، وقع من فوق السور فوق رأس أحد أولئك الأوغاد الصغار فشج القدر رأس الصبي، وأخذ الدم يسيل من رأسه.

كان منظر الصبي وهو مشجوج الرأس، والدم يسيل على ثوبه القديم يذيب أكثر القلوب شراسة، وفي حقيقة الأمر أن ذلك الصبي لم يحصل على شيء من الطعام في ذلك اليوم، فحن قلب جدتي عليه وأصطحبته إلى داخل الدار، وغسلت جرحه من الدم، وأحرقت قطعة قماش وأطفأتها واضعة ذلك الرماد على جرحه، فتوقف سيل الدم، وأمرت له بطعام يحتوي على أكبر قدر من قطع اللحم.

وما زلت حتى هذه اللحظة وأنا أرى ذلك الصغير يزدرد قطع اللحم من دون مضغ، والدموع تسيل من عينيه من ألم جرح راسه، ومخاطه يسيل من أنفه مختلطاً بخيط متقطع من الماء والدم، مقرفصاً كالمتسول في باحة الدار، ورؤوس العشرات من أوغاد المدينة الصغار الذين كانوا يحاولون تسلق سور بيتنا لرؤية ما جرى لصاحبهم الذي شُج رأسه، وحين رأوا الحال التي صار عليها أخذوا يطلقون صيحات الحسد، والتمني على الله أن يحلوا محله، حتى لو كلفهم ذلك قطع رؤوسه وليس شجها فقط، وأحدهم صرخ: هنيئا لك يا عم باللحمة الهنيئة ويا ليتنا كنا معك مولاي.. ألف عافية.

-38-

لم يعد أبي إلى وضعه الطبيعي بعد تلك الفترة الطويلة من التشرد، لقد عاد إلينا بمخ آخر يمتلئ بحكايات المظلومين أولئك، الذين تشردوا بسبب امرأة أب ظالمة أو بسبب الإدمان على شرب الخمر، أو أولئك الذين

ضيعهم الهوى والعشق.
وأولئك الذين وجدوا أن الحياة لا تستأهل عناء العمل وإنشاء العائلات، والنوم تحت سقوفها فكل أرض الله صالحة للنوم عليها صيفاً وقسماً من الشتاء.
وليل الشتاء البارد يقضونه تحت الجسور، وباحات الجوامع وبين أكياس الخيش المملوءة بالحبوب في الخانات، التي يؤويهم إليها أصحابها إشفاقاً أو لحراستها من اللصوص، ومن عبث عمال التجار المنافسين.
عاد أبي وجرابه مملوء بالحكايات عن ظلم الإنسان للإنسان، راوياً حكايات أولئك الذين تطلقهم السجون، ويرفض المجتمع أن يقبلهم في نسيجه مرة أخرى، وكيف يندسون في المظاهرات العارمة التي تنادي بسقوط الاستعمار، وتجد أيديهم طريقها إلى جيوب بعض الحاضرين في ذلك الحشد لسرقة ما يحملون من مال وساعات يد، مرددين مع الجماهير كلمات يعيش ويسقط والموت والسحل لهذا، وأكاليل الغار لذاك، وقبل أن تنفض تلك الجموع الغفيرة يتجمعون من جديد لتقسيم ما غنموه ضاحكين من غباء الجمهور وغفلته وتخلفه!
***
لقد حفر أزميل التشرد مخ أبي وثقبه، فما عادت الوجبات الغذائية المنضبطة تقنعه ولا مواقيت الطعام الصارمة، التي تفرضها جدتي تعنيه صار يذهب إلى المطبخ فيأكل ما يصادفه، ويلقي القشور كيفما أتفق هنا وهناك.
ويغادر إلى المقهى القريبة بانتظار أن يجتمع بشلته الجديدة من الأفاقين وبائعي المستعملات، والأطعمة الجاهزة، ولاعبي الورق وشقاوات المدينة، وفي يوم الجمعة لا يتبع أباه إلى الجامع، ولا يحضر فصول العشيرة ولا يساهم في أفراحها، ولا في معازيها.
لقد تحول الناس في نظره إلى ملابس متحركة، وكان يشكو كثيراً أمام أصحابه من الضجيج في رأسه، فينصحونه بالذهاب إلى البار القذر في طرف المدينة الآخر، ليسكت ذلك الضجيج :
- لا يسكت الواوي الذي في رأسك غير ربع العرق الزحلاوي.
ولكن بقية من بقايا التلقيح الديني، الذي مارسته عليه العائلة في أيام الطفولة، والشباب كبح فيه جماح تلك الرغبات.
وكان جدي يراقب عن كثب كل ما يفعله أبنه الكبير، دون أن يبدي تذمراً وجدتي تروي له بحرقة بعض فصول حياة أبي الجديدة، منقولة إليها من

عيون تبعثهم في أثره أينما ذهب.
داعية الله بين الحين والآخر، أن يعمي ذلك الذي دمر حياة أبنها وضيع مستقبله، وجعله يرفض كل مشاريع الأعمال، التي يطرحها عليه أبوه وأعمامه، ويرفض أن يقبل يدي أبيه وأمه في الصباح كما كان يفعل ذلك دائماً، قبل سنوات تشرده.
كما أن نظرته إلى إخوته تغيرت، وصار ينظر إليهم ويعاملهم وكأنهم من الأغراب، ولا يجمعه بهم سوى تلك الجدران القبيحة في بيتنا الكبير، وكانت جدتي وجدي يخططان لإعادة الحياة إليه منذ صدمة ذلك اليوم الذي فقد فيه سيارته.
وأخذت جدتي في غفلة من أهل البيت تتجسس على أمي وأبي، حين يختليان في غرفتهما، وتشهق باكية ماسحة بطرف شيلتها دموعها بعد أن ترى من ثقب الباب أخفاق أبي المستمر مع زوجته، منذ عودته، وتعرقه الخجول حالما يجمعه سرير النوم بزوجته ولا يفعل شيئاً.

-39-

ولم تفد مع ذلك الإخفاق كل الأعمال التي عملتها جدتي عند الشوافين، والعرافين، وكل الحيل التي عملتها لأمي، التي كانت تنصت إليها بحياء، وكانت تردد بينها وبين جدي أن ذلك الإحباط الذي شعره أبي قبل ثلاثة أعوام جعله يفقد رجولته، ومعها هناءات الحياة الزوجية، وأخذت تبعث أصغر أعمامي وراءه عند خروجه من البيت، وذلك العم كان مشهوراً في عائلتنا بحدة السمع وذاكرة لا تنسى شيئاً.
كانت جدتي تسمي أبنها ذاك بالجاسوس، وفي أحيان أخرى تضيف كلمة الجاسوس إلى أسمه الأصلي، فتصيح عليه طارش الجاسوس!
كان كل أخوته يحذرونه ويخافون من تجسسه عليهم، فجدتي عندما يصل إليها خبر عن أحدهم من طارش لا تنتظر أن تجري تحقيقاً فيما سمعت بل تسرع إلى فم التنور، وتستخرج عمودها، الذي تستخدمه في العادة لتقليب جمر التنور، وتضرب المعني بالأخبار، التي أوصلها طارش الجاسوس لها عنه في كل مكان من جسده دون أن تهتم لصرخات الابن، وطلبه الرأفة وسؤاله المرير عن سبب هذا الضرب المبرح.
فهي لا تقول له سبب ذلك إلا بعد أن يستوفي عقابه كاملاً، وبسبب ذلك صار أعمامي يحترمون طارش الجاسوس، ويخافونه، لكنهم في ذات

الوقت لا يعتبرونه أخاً لهم، ويعاملونه بالحذر والريبة والأحتقار، وحالما يقترب طارش من مجلسهم بعينيه الوامضتين، ومنخريه العريضين وشعره الخفيف، وسمرة وجهه الداكنة، وجسده النحيل الذي لا يناسب حجم رأسه الضخم، حتى يتهامس الجالسون طالبين من بعضهم البعض الصمت، لان طارش الجاسوس قد أقترب من مجلسهم.

وفي أحد الأيام أتفق الأخوة أن يأخذوا أخيهم الأوسط الجاسوس بعيداً عن البيت بأتجاه المزرعة، وخططوا لضربه ضرباً مبرحاً يعادل ما سببه لهم من ضرب شديد طوال العام بسبب هفواتهم وطيشهم.

وقد كان المسكين يشعر أن في الجو رائحة مؤامرة عليه، فذهب إلى جدتي سراً وأبلغها أن أخوته سيأخذونه إلى المزرعة، وأنهم يخططون لضربه بسبب نقله أخبارهم إليها.

فقالت جدتي وهي تزم حاجبيها غاضبة:

ـ أذهب معهم وكأنك لم تشعر بمؤامرتهم، وسأتبعكم من بعيد، وسأتدخل في الوقت المناسب ...

وأخفت جدتي تحت عباءتها عمودها المرعب، وحين حانت لحظة ضرب طارش من قبل أخوته، وضحوا له سبب عزمهم على ضربه، فأخذ طارش يتلفت يميناً ويساراً باحثاً عن منقذته.

وقد بدأ أخوته بشد ساقيه بحبل رفيع، ورفعهما إلى أعلى للمباشرة بضربه بخيزران تم تنقيعها بالماء والملح، أستعداداً لهذا الفصل من العقاب قبل يومين، وفي تلك اللحظة الحرجة برزت لهم جدتي من أحد طرق المزرعة، وقد شرعت عمودها الذي لا يرحم أحداً بوجوههم، وحين رأوا أمهم وعمودها الظالم، ارتسم الرعب على وجوههم.

وصرخ أحدهم:

ـ ولوا الأدبار .. جاءت جدتي!

وخمطت الجدة أقرب الواقفين منها بالعمود على أليتيه، فتعالى صراخه وقفز في الهواء بعيداً، وفر الباقون، وغرق طارش الجاسوس بالضحك من أخوته المغفلين.

وأخذت تحل الحبل عن ساقيه شاتمة متوعدة أولادها بالعقاب الشديد في المساء، حين يأتون كالخراف إلى حظيرتهم!

كانت أخبار أبي طيلة أعوام تشرده تصلنا بواسطة أفراد من أفخاذ عشيرتنا في العاصمة، ويتم نقل صورة عن حالته إلى جدتي بين الحين، والآخر عبر أولاد عمنا، الذين نصادفهم في المعازي والأفراح، وجلسات الفصل والحشوم، وأثناء جمع ديات الفصول من أفراد العشيرة في شبكة معقدة من المخبرين، والمعلومات يقوم بجمعها أولئك الأقرباء الذين يعتقدون أنهم بهذا يؤدون واجباً عشائرياً عظيماً.

ويعززون بذلك صلة الدم والرحم الواحد التي تربط بين أبناء عشيرتنا، كونهم ينحدرون من أب واحد وأم واحدة، وفي اللحظة التي كان فيها أبي حمالاً في محطة القطار العالمية قي بغداد، كانت جدتي تعرف ذلك العمل المهين، الذي لا يليق بأبنها، لكنها تجد دائماً التبريرات المناسبة لتبرير عمله ذاك.

قائلة بأن على الرجال أن يفعلوا كل شيء، حتى يصلوا إلى مأربهم، ولينالوا من ظالميهم وأن الذي يفعله أبنها قليل أمام ما فعله أجدادنا من قبل في حروبهم الكثيرة ضد ظالميهم، حين كانوا ينامون فوق صهوات خيولهم ليلاً بكامل سلاحهم، لئلا يأخذهم عدوهم على حين غرة، وليكونوا جاهزين لقتاله في أية لحظة.

وتروي كيف أن أحد أجدادنا لبس ملابس المهرجين حتى وصل إلى الإقطاعي الظالم ليلة عرسه، وطعنه في صدره بالسكين، التي كان قبل قليل يضحكه بها أنتقاماً لمقتل أحد أخوته ظلماً على أيدي أتباع ذلك الإقطاعي.

وحدثتنا عن أحد أجدادنا الذي اخذ يطلب ثأره لمدة أربعين عاماً، حتى نال ثأره من عدوه بعد ترحال ونصب، وحدثتنا عن إحدى جداتنا، التي أحرقت خمسة رجال من عشيرة أخرى غازية، كانوا قد أختطفوها وزوجوها قسراً لأحد شيوخهم.

وبعد أن أظهرت لهم أنها أستطابت ذلك الزواج وحلا بعينيها العيش في مضاربهم، واحتملت المزيد من الذل، وهي تسمعهم يسبون عشيرتها، وأهلها وفي ليلة من الليالي صبت الزيت على خمسة من أكابر تلك العشيرة أثناء نومهم، وأحرقتهم بلا رحمة.

ورجعت إلى عشيرتها بأخبار أولئك الأوغاد، كانت أمي عكس جدتي تماما فقد كانت تنظر صامتة، وحزينة للكثير من المصائب، التي تحل على عائلتنا، لم تتوجع يوماً ولم تقل كلمة آه أبداً.

كانت تخفي كل شيء في صدرها، حزنها الشديد، وضيقها وحسرتها،

أزدحام دارنا الدائم، هجر زوجها وخيبتها من كل عمل فاشل يقوم به، ووضع الكثير من الأعباء المنزلية عليها بالرغم من كونها زوجة الأبن الأكبر.

وذلك حسب عاداتنا يجعل لها حقوقاً على زوجات أعمامي الكبار، والأخريات اللاتي، كن يعشن معنا في دار جدي الكبيرة، لكنها لم تتذمر يوماً أو تبدي ضيقها أبداً.

كانت تنظر إلى عائلتنا الكبيرة كجسد كبير كثير الأطراف متعدد الأفواه، والأقدام، جسد واحد عليه أن يمد يداً واحدة لكل شيء فإذا نكصت باقي الأيدي متراجعة فلا ضير من أن تكون يداها الوحيدتان ممدودتين لذلك الجسد.

لقد عرفت بعد سنوات كثيرة أن أمي كانت مكملة لصورة جدتي لقد كانت الصدى للصوت الثاقب، وهي أيضاً الحلقة الهشة التي تمسك بأزر العائلة وتلاحمها وصراعها في كل الظروف للبقاء برؤوس مرفوعة أمام ما أصابنا من حيف وظلم ومصائب.

كانت أمي الحلقة التي تنفتح لئلا تتهشم السلسلة بكاملها إلى حلقات، وما زلت أتذكر ذلك اليوم، الذي عاد به أبي والفرح يتطاير من كل حركة يؤديها، ويشع من عينيه، وبيده جريدة مطوية بعناية، وهو يريها لجدتي صارخاً بأعلى صوته، انه أخيراً وجد عدوه، وسارقه وعرف مكانه!

-41-

و أخيراً سيسترد كرامته الضائعة، و أنعقد في تلك الليلة مجلس العائلة، وكان جدي وجدتي على رأس ذلك الاجتماع، وضم أعمامي الكبار وزوجاتهم وحتى الأطفال جلسوا ينصتون لما يدور بين الكبار.

وكان الخبر المنشور إلى الأسفل من الصورة يوضح أن السارق القديم قد غدا مسؤولاً أمنياً في الدولة بعد واحدة من الأنقلابات الدموية السريعة التي حدثت في البلاد في تلك الفترة.

وأشار جدي بضرورة طرح المشكلة على العشيرة لحلها، لكن جدتي أشارت، أنه ربما في وضعه الجديد سيعترف لهم بما أخذه منهم، ويعيده إليهم، وهم لا يطلبون سوى ثمن ما سرقه ذلك السارق.

وكانت جدتي تعيد عليه السؤال تلو السؤال أن كان متأكداً من أسمه

وشكله وكان أبي يصرخ بحرقة:
ــ أنه هو، بذات الأسم و الهيئة، وإنه يعرفه كما يعرف الخطوط في راحة يده.
وقرر جدي أن يسافر أبي واثنان من أعمامه إلى بغداد، وتذكير السارق بسرقته القديمة، وتهديده بالفضيحة أن لم يعد إليهم ثمن ما سرقه، وهو في هذا العز الجديد، الذي وصل إليه، ولا يهمه بذل المال لدرء الفضيحة؟
واقترحت جدتي كتم الأمر عن العشيرة، لئلا يشيع الخبر قبل جس نبض السارق، و معرفة نواياه، وفي تلك الليلة لم ينم أبي ولا جدي و لا أعمامي كانوا يتداولون في كل صغيرة، و كبيرة باحثين عن الحل الأصوب.
وبعث جدي إلى أخوته فحضر أثنان منهم وتعلل الثالث بالمرض، وفي الصباح عندما أستيقظنا من النوم لم يكن أبي في فراشه.
وأخبرتني أمي بعينين دامعتين أنه سافر إلى بغداد، وبصحبته أحد أعمامه، وكان ذلك اليوم السابق، هو آخر يوم رأيت فيه أبي في البيت إذ بعده ما رأيت أبي إلا وهو يُنقل من سجن إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى بصحبة الشرطة، والقيود الحديدية توثق معصميه ويتبعه جدي وأخوته و جدتي وأمي وأعمامي من محطة إلى أخرى، ومن معتقل إلى آخر في الشتاء والصيف والربيع و الخريف .....

-42-

بعد رحلة مُعذبة في قطار العادي أستغرقت يوماً كاملاً وسط سف الرمال من نوافذ القطار الخشبية، وسيره البطئ وتوقفاته المتعددة في أغلب المحطات، وصراخ الباعة الجوالين، وهم يمرون ذهاباً و جيئة في ممرات عربات القطار، و بأيديهم مناقل الفحم ويتبع كل واحد منهم صبي يحمل أسياخاً وقد لضمت بقطع الكبد واللحم، و تنقط دماً و ملحاً و أقراص الخبز الساخن في أكياس على ظهورهم واضعين مناقلهم المتقدة في الأمكنة الفارغة من الأرضية، التي أحتلت بعضها الأمتعة والنساء الملفوفات بالسواد والرجال بوجوههم الملفوفة إلى الأسفل من عيونهم باليشماغات أتقاءً لذرات الرمل، التي تحملها الريح التي تجتاح العربات، نافذة من خلال أبواب العربات المفتوحة، والنوافذ المغطاة بستائر خشبية

مشبكة.
وصل أبي و عمه إلى العاصمة بعد تلك الرحلة المعذبة، وكان أختيار جدي لأخيه الأصغر في تلك المهمة غير موفق تماماً إذ أنه بالرغم من لحيته البيضاء، كان يتصف بالشراسة والجفاء في مخاطبة الناس، و ينظر بعيني الشك والريبة لكل ما يقال له أو يراه.
وإضافة إلى تلك الأمور فهو يخاف من السيارات، و عبور الشوارع و قد عانى أبي معاناة ما بعدها من معاناة، وهو يعبر به شوارع العاصمة للوصول إلى تلك الدائرة التي يعمل بها سارقه.
وكان يعتقد أن تحقيق هدفهما يسير، وكان كلما سأل أبي شخصاً في الطريق ليرشده إلى تلك الدائرة أعتقد عمه أن ذلك الشخص، هو الذي سرق سيارة أبي!
فتتصاعد الشتائم من فمه، ويعلو الزبد الأبيض زاويتي فمه ؟ و يعاني أبي أشد المعاناة لتبصير عمه أن ذلك الشخص عابر سبيل، و ليس هو المقصود وترتسم الدهشة على وجه الدليل لهذا الكم الهائل من الشتائم المنطلقة من فم الشيخ الجليل.
وحين يفهم العم أن ذلك الدليل ليس هو السارق يقول لأبي مبرراً فظاظته، أن كل أهل المدينة سراقاً فلا مغبة من سبهم جميعاً، وفي مرة من المرات وقد أوشكا الوصول إلى بغيتهما.
سأل أبي شخصاً سميناً تبدو الشراسة على قسمات وجهه، فأعتقد العم أنهما أخيراً وقعا على ضالتهما.
فخلع عقاله الغليظ عن رأسه، وأخذ يضرب الرجل بلا مقدمات وكأنما كان ذلك الرجل ينتظر تلك اللحظة، فشرع من فوره بتوجيه اللكمات العنيفة إلى وجه أبي وجدي.
وكانت لكماته سريعة مؤلمة، وأخذ يرفسهما بحذائه رفساً لا رحمة فيه ويقول :
ــ شروكية متخلفون، أولاد كلب!
حاول جدي ضربه بالعقال فأصاب أبي على وجهه، و في الحال تورم وجهه من شدة الضربة، وبعد ذلك كان جدي يفخر بأن ضربته شديدة إلى درجة أنه لم يعد يتعرف على وجه أبن أخيه المعتاد.
وقبل أن يزدحم الناس حول المتعاركين تركهم الرجل السمين راكضاً بذات الأتجاه، الذي كان يسير به وهو يسب ويشتم كل قروي متخلف؟
وأخذ يحرك لهما من بعيد يده بحركات بذيئة، فلم يبق لجدي، الذي كان

ممسكاً بخاصرته، وأبي المتورم الوجه سوى السب والشتم لأبن الحرام ذاك.

وكان أسوأ ما في ذلك اليوم، الباقي منه وليس الذي أمضياه ! فقد وقفا أمام تلك الدائرة، وما أن عرف جدي أن تلك البناية تحوي في إحدى غرفها ذلك السارق، حتى أخذ الجد يصرخ بالويل، و الثبور لذلك السارق، و لم يكتف بذلك بل أخذ يرتكز ويقول شعراً شعبياً حاملاً عباءته الصوفية في يده، وأخذ يدور في دائرة ضيقة مهدداً الظالمين بأنه لن ينام ليله والحق قد أظهره الله !

وأنهما جاءا لمعاقبة اللص وأن الله شرع في كتابه العزيز قطع يد السارق بلا رحمة ! و تجمع حولهما رجال حراسة المبنى، غير مصدقين ما يحدث أمامهم وبعضهم غرق بالضحك من رجز جدي، وحركاته و ملابسه الفلكلورية، وسبابه البذيء لأهل المدينة.

وسألهما رجل مهندم خرج إليهم من داخل البناية بعد أن أبلغه احد رجال الحراسة بالإتهامات، التي يوجهها الرجلان لمسؤولهم الكبير! وأبي يشهر الجريدة التي فيها صورة ذلك المسؤول، كأنما يظهر سنداً بالغ القيمة و حجة لا تدحض.

وطلب الرجل المهندم منهما ألتزام الهدوء وعدم التفوه بكلمة زائدة، وأنهما سيحظيان بمقابله رئيسهم، و سينالان ما يريدان !

وبالرغم من كلامه اللين إلا أن جدي بقي يثرثر حول ضرورة قطع يدي السارق وسجنه! عملاً بأحكام القرآن الكريم!

وكان رجال الأمن يحاولون كبت ضحكاتهم خوفاً من مسؤولهم، و الإشارة إليهما، بأنهما يتفوهان بكلام سيدفعان ثمنه غالياً في القريب العاجل، وأعتبر جدي تلك الإشارات تهديداً و تخويفاً لا معنى له، و أمطرهم بشتائم لا أول لها و لا آخر وأخذ ينعتهم بأنهم عصابة، وأن السارق لا محالة من ضمن جماعتهم!

وبصعوبة أصطحبهم الرجل المهندم إلى داخل البناية، وجعلهما يجلسان في غرفة خالية من الأثاث إلا مصطبة يتيمة، و أغلق عليهما الباب، و بعد قليل عاد ليصطحب أبي وحده إلى غرفة ذلك المسؤول.

وحالما دخل عليه تعرفه فوراً، فهو يتذكر تماماً ذلك الوجه الحنطي بالرغم من ملابسه الحالية الغالية ومكتبه الوثير وشاربيه النابتين، سلم عليه فلم يرد تحيته، و تظاهر بأنه مشغول بتوقيع بعض الأوراق أمامه و بعد دقيقة رفع وجهه إلى أبي، وقال بهدوء:

ـ ماذا تريد وما هي حكايتك ؟ !
قال أبي :
ــ ألا تتذكرني أستاذ؟
أجابه وهو ينظر إليه بعينين رماديتين :
ــ لا أتذكرك من أنت ؟!
استغفر أبي الله بصوت مسموع:
ـ إنا صاحب السيارة التي عملت فيها حضرتك مساعداً لي قبل سنوات !
وفي لحظة صفاء برزت في ذاكرة المسؤول المشوشة بالإحداث تلك السيارة القديمة، التي سرقها وباعها إلى إحدى كراجات التفكيك أنتقاما من سائقها، الذي صفعه ذات يوم تلك الصفعة، التي لا ينساها أبدا! وسمعها تفرقع على خده في كوابيسه لعدة ليال!
كأنما تذكر الرجلان في ذات اللحظة تلك الصفعة العظيمة، فقال أبي مرتبكاً ومعتذراً في ذات الوقت :
ـ ما حدث في صباح ذلك اليوم! يحدث عادة بين السائقين و مساعديهم، وإنا أعتذر لك عن ذلك، ولا أريد منك سوى أن تعوضني ما فقدته، و قد فتح لك الله أبواب الرزق والجاه، وقد مضى على ما حدث سنوات كثيرة !
نظر إليه المسؤول نظرة باردة تُجمد الدم في عروق أشجع الرجال، و قال بهدوء عجيب :
ـ انك بالتأكيد تتحدث عن شخص آخر.
وأتبع قوله بضحكة ضاجة! ثم أكمل بلهجة تنطوي على تهديد مبطن :
ـ أتعتقد إني عملت في يوم ما مساعداً لك ؟
ـ أجننت لتقول لمثلي هذا الهذر الثقيل!
قال أبي والحرقة تكويه :
ـ لكنني أعرفك تماما، أنت هو ذلك المساعد، كما أنكما بأسم واحد !
و أخرج أبي أوراقه القديمة من جيبه وأكمل :
ـ لقد أقمت عليك الدعوة في شرطة العاصمة، و مرورها وهذه الأوراق أمامك وعليها أسمك، وهذه هي أوراق سيارتي المسروقة !
ضحك المسؤول وسأل :
ـ هل أغضبت مساعدك ليفعل بك ما فعل ؟
قال أبي متحرجاً :

ـ لقد فعلت ما يفعله غيري! لقد صفعته! وأنا الآن أعتذر عن ذلك و بإمكانك أن تصفعني لتستعيد حقك! لكن بعد ذلك أريد أن تعيد لي ثمن ما سرقته!
قال المسؤول بلهجة رتيبة:
ـ لو كنت أنا من تقصده بكل هذه الحكاية الخيالية، فلن أفعل ذلك أبداً
تساءل أبي :
ـ ما هو الأمر الذي لا تفعله أبداً ؟!
ـ أن أصفعك بدلاً عن تلك الصفعة التي وجهتها إلى مساعدك.
ـ وماذا أفعل لأسترد حقي؟!
أكمل دون أن يأبه للمقاطعة :
ـ الذي سيؤدي تلك الصفعة ذراع كرسي المسؤولية وليست كفي! وبين الاثنتين فارق كبير!
ـ لم أفهم يا أستاذ!
ـ ذلك أفضل لك في الحقيقة بإمكاني أن أعطيك ثمن ثلاث سيارات شبيهة بتلك المسروقة، لكنني لن أفعل ذلك، سأجعلك تشعر بالظلم، الذي شعره ذلك المساعد المسكين حين وجهت إلى وجهه تلك اللكمة الكافرة، لسبب تافه كان يمكنك أن تتغاضى عنه!
قال أبي صارخاً:
ـ الله يعلم كم من الظلم ناشني، وإنا أبحث منذ سنوات عن سيارتي المسروقة وعنك! الله يعلم عدد سنوات تشردي المريرة، التي قضيتها وفاء لذلك الذنب، إلا يكفي إنني لم أنم مع امرأة طوال تلك السنوات متغرباً عن أهلي وعشيرتي ومدينتي ؟!
نظر المسؤول إلى وجه أبي المتعرق، بعينين رماديتين، وضغط زراً كان أمامه و قال لأبي :
ـ لأنك وذلك الشيخ المجنون، قد شوهتما صورتي أمام جمع غفير من الموظفين ورجال الآمن بغير حق، وأتهمتماني بما لم أقم بفعله، فستودعان في السجن حتى أطلقكما!
وفي تلك اللحظة العصيبة، التي فقد فيها أبي أعصابه، وأوشك على الهجوم على ظالمه! دخل أنان من المساعدين بملابسهما المدنية وأمسكا بأبي، ووضعا القيد الحديدي في معصميه أخذ أبي يصرخ منددأ بالظلم، وأن الله سينتقم من الظالمين...
محاولا الإفلات من آسريه، لكن الرجلين جراه إلى خارج غرفة

المسؤول وفي ذات السيارة المحاطة بالمشبك الحديدي، التي حملت أبي و جدي إلى السجن وجدا عدداً من الأكراد الذين لا يعرفون كلمة واحدة من العربية موقوفين أيضاً، وقد حشروا في حوض السيارة حشراً وحملت سيارة أخرى جميع الحراس، الذين سمعوا ما قاله جدي وأبي عند دخولهما البناية، منقولين إلى مناطق نائية إلى شمال البلاد و جنوبه !

-43-

بعد أربعة أيام على تلك الأحداث، التي وقعت على أبي وعمه عاد ذلك الجد المسن إلى بيته في وضع يرثى له، فقد نتفوا له في السجن لحيته البيضاء حتى أدموا حنكه، وضربوه بالسياط على ظهره بلا رحمة، و سرقوا عباءته وعقاله، وسلبوا محفظة نقوده.

وروى جدي كيف أن السجانين أمروا الأطفال بالوقوف على كرشه بأحذيتهم، وكان ممدداً على أرض الزنزانة، وقد أمسك بيديه وقدميه سجناء آخرون والسجانون يضحكون من صراخه وطلبه النجدة!

حتى إنه ليوم كامل بقي يتبرز دماً! وكيف إنه في ذلك السجن الأسود نسي حتى أسمه! وحدثنا عن أبي، وكيف انه كان أفضل منه حالاً، إذ أقتصر عذابه على صفعات قوية يوجهها إلى وجهه سجان أسود.

ووصف لنا كفه قائلاً أنها عبارة عن أربعة أكف بعضها فوق بعض! وقاطعناه سائلين عن الأطفال، الذين صعدوا على كرشه، فأجاب أنهم من أولئك الذين يجمعون القمامة حول بناية السجن، وقد وعدهم المسؤول عن السجن أن يعطيهم خبزاً ساخناً من خبز الشرطة أن فعلوا بي ذلك .

ثم أكمل كلامه بعد أن مسح دموعه:

ـ وعند كل صفعة توجه بوحشية إلى أبي يسمعون دوياً وصدى لها يشبه ما تحدثه قنابل المدافع، كان حين يروي شيئاً عن عذابهما يقطعه بجمل شبيهة باللازمة الموسيقية، كقوله أحترق شيب موتانا! خربوا وجهه خرب الله بيوتهم !

وكانت الدموع تنهمل من عيني جدي والجالسين من أهلنا وسأل جدي أخاه عن السبب، الذي جعلهم يطلقون سراحه من دون أن يطلقوا أبي!

بكى عند ذلك عم أبي بمرارة!

وقال لقد أوشكت على الهلاك، وقد نلت عفواً من ذلك النذل! بسبب شيخوختي، وبرازي الدموي، الذي لم أعد أسيطر عليه!

كما أن المسؤول الأمني في السجن هددني بأنهم سيعيد ونني إلى السجن و يفعلون بي الأعاجيب التي لا يمكن و صفها، لو أنني رويت على أحد قصة سيارة أبن أخي المسروقة، وأسم سارقها!

وقد قص علي أن أبن أخي في سجننا كل ما دار بينه وبين ذلك الظالم، و كانت إحدى عينيه مطفأة بفعل صفعة من صفعات ذلك الأسود العملاق الذي لا يرحم!

ثم قال وهو يمسح دموعه :

ـ ياليتني مت بدلاً عن عذاب أبن أخي في ذلك السجن المظلم، الذي يخرأ فيه المسجون على ثيابه! دون أن يسأله أحد لماذا فعل ذلك لشدة قذارة المكان وروائحه الكريهة! ورفع رأسه ليقول منتحباً:

ـ سأموت يا أخي قريباً بعدما آذت أحذية الأطفال مصاريني، وجعلتني أتبرز برازاً دموياً لا ينقطع!

وطفق جداي بالبكاء عليه، وقد سبقتهما إلى ذلك جدتي، التي كانت تنصت لكل كلمة يقولها الشيخ، لتعرف مصير أبنها! وصاحبتها في البكاء أمي ونساء أعمامي، وتعالى صوت بكائهن وهرعت نساء الجيران إلى دارنا لمشاركتنا حزننا على الغالي المسجون!

وكانت جدتي تولول، ودموعها تنهمل بغزارة مناحاتها، التي تلين لكلماتها القلوب القاسية، وتجعل للصخر دموعاً راوية عن نخوة أبنها، و شجاعته وكرمه، وسوء حظه وشبابه المغدور! مهددة بين مقطع وآخر من مناحاتها من غضب أهلنا، وحتى من قبور أجدادنا من ظلم الظالمين!

وان النوائب تعرف رجالها والأيام السود قريبة جداً من كل ظالم ظلمهم ! وأنهم في لحظة من لحظات الزمن القادم سيلتقون جميعاً ليروي كل واحد ما أصابه من مصائب، وبلايا دون أن تخونهم شجاعتهم، ونخوتهم و كرامتهم.

وبإلحاح من جدتي ونساء أعمامي أخذ جدي أخويه، وأبناءه، وذهبوا إلى شيخ العشيرة، فالمصاب كبير ولا يمكن لبيت واحد من بيوت العشيرة أن يحتمله، وعلى العشيرة أن تفعل شيئاً بالرغم من أن جدي كان مكرهاً على الذهاب إلى ذلك الشيخ.

وقال لجدتي بعد ذلك، إنه كان واثقاً تماماً من جبن شيخ العشيرة، وعدم قدرته على الوقوف بوجه الحكومة، المتمثلة بذلك المسؤول، الذي ظلمهم و قد لطف في ذلك اليوم شيخ العشيرة من غضب جدي وأعمامي وقال أن العشيرة لا يمكن أن تفعل شيئاً لأبي، لأنها لو فعلت ما يمس أمن الدولة

فان ذلك سينقلب وبالاً ضد أبي في سجنه.
وطلب من جدي الصبر حتى يدرس الأمر، و يقلبه من كل الوجوه وكان بين الحين والآخر يضرب الأمثال عن ضعف العشيرة أمام الحكومة، وهي قوية بشرطتها وسلاحها، وأموالها، وأن عشيرتنا لا يمكن أن تضحي بكل أبنائها من أجل فرد واحد مهما كانت الأسباب!
وغضب جداي من منطق الشيخ الجبان، و قالا له بصريح العبارة إنه لا يمثل شعرة من المواقف التي وقفها أجداده من قبل بوجه الأنجليز وقبلهم العثمانيين.
وعلا صوت الشيخ وهو يرد علهما، وهي المرة الأولى التي يسمع فيها أبناء العشيرة صوته العالي، وأثناء غضبه غمز جدي قائلاً عن تلك التقولات التي قالها جدي فيما سبق عن شعر رأسه المفروق، من الوسط، وتزييته الدائم لشعره، والتي قللت من قيمته الأعتبارية أمام رؤساء العشائر الآخرين وصرخ بهم مؤكداً بأن المشكلة هي بين أهل بيتنا، و الحكومة ولا دخل للعشيرة فيها، وعند ذلك ألتفت جدي الأكبر سنا، وقال للحاضرين :
ـ ألم اقل لكم أن شيخ عشيرتنا أجبن رجل في كل عشيرتنا!
وقام من المجلس وتبعه أخوه وأولادهما، ومنذ ذلك الحين صارت مشكلة أبي خاصة ببيتنا، ولا دخل لعشيرتنا فيها، وكانت الخطوة الأولى التي ينبغي علينا اتخاذها هي ضرورة أطمئنانا على أبي في سجنه.
وفي ذات الليلة سافر جدي وأخواه، وجدتي وأمي وأعمامي وقد تمسكت بثوب أمي رافضاً البقاء في البيت، صارخاً بأنني أريد رؤية أبي السجين، فرقت جدتي لبكائي، وكلامي وسمحت لي بالسفر معهم بالقطار العادي المتوجه في المساء إلى العاصمة بغداد ...

-44-

لم تمض على توقيف العميد غير ثلاثة شهور، حتى أُطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة، كان سليبا ينتظره أمام باب الموقف العسكري بصحبة عائلة العميد، ابن العميد و ابنتاه وزوجته، و طيلة فترة توقيفه كان سيلبا يخدم العائلة وينقل أخبار الزوج الموقوف من ضباط المعتقل، وأمنه الداخلي إلى

جماعته.
ولئلا تلفت الجماعة النظر إليها أستخدموا سيلبا لنقل رسائل العميد إلى عائلته وبالعكس بالتعاون مع ضباط الموقف، و بقي سيلبا ينام في شقة العميد المهجورة، وفي الصباح يؤدي طلبات العائلة وحين عانق العميد همس بأذنه :
- أقدم لك شكري، وأخبرك أنك ستكون حارسي الشخصي وسأرسلك إلى دولة أجنبية لتتدرب هناك.
لم يقل سيليبا شيئاً، فقدعقدت الدهشة لسانه وأخذت منه أحلام اليقظة كل مأخذ، وبعد شهرين أكمل العميد لسيلبا كل الموافقات الرسمية المطلوبة، ويوم السفر لم يودعه أحد في المطار سوى العميد، قال له :
ـ سيستقبلك في المطار مستر ماكفي ... جون ماكفي، إنه صديق قديم لي! وأعطاه صورته وصافحه، وهمس بإذنه :
ــ طع أوامره، ونفذ كل ما يطلب منك، قم بتنفيذه بلا تردد، إنه يعرف العربية بإتقان فتعلم منه!
ودس في يده رزمة من الدولارات من فئة المائة دولار، أخذها الشاب ويده ترتجف، و توجه صوب باب المغادرة والتفت إلى العميد وفي عينيه دموع، فلم يجد العميد في مكانه كان قد غادر القاعة.
ونظر من جديد إلى الورقة التي كتب عليها العميد العنوان، الذي عليه الذهاب إليه بعد الوصول إلى تلك العاصمة الأوروبية، وسفحت من عينيه الدموع وفي نفسه ردد:
ـ لن استطيع التراجع، سأذهب!
ونظر إلى الجواز المزور الذي أستطاع العميد الحصول عليه، ونظر إلى الأسم الجديد و ردد من جديد:
ـ سأذهب، أنها فرصتي!
وفي المفاوضات التي جرت بعد ذلك حول أسعارالنفط، وكان الرئيس جالساً عندما كان نائباً، كان أحد المناقشين يحدق به فهو قد رأى هذا الوجه من قبل، ولكن أين رآه ؟ لم يتذكر في ذات الوقت.
لكن في حفلة التوقيع على المعاهدة، تذكر ذلك المسؤول أين رأى هذا الوجه الأسمر فضرب بقبضته على فخذه : نعم انه احد الشباب الثلاثة الذين كان يدربهم المستر هينس! مع جون ماكفي!
همس المستر هينس في أذنه بالانجليزية أتعبتمونا، ها نحن نعد لدول الشرق الأوسط الثورية رؤساء! لحظتها اعتبر المسؤول كلمات هينس

نكتة لا يعنيها أراد إضحاكه بها فقط! أو تهديده بشكل غير مباشر!
وتساءل وقتها هل يعدون الآن أحداً غيره ليتولى كرسيه فيما بعد ؟! و شعر بالصور تتضبب أمام عينيه، وحين وقع على المعاهدة وتبادلا الأوراق، همس في أذن السيد النائب :
ـ مستر هينس .. جون ماكفي، ألا تتذكرهما؟!
أنتبه نائب الرئيس لجرس الأسمين، كأنما تذكر شيئاً عزيزاً فقده! نظر بوجهه وضحكا معاً.
وفي تلك اللحظة تعارفا جيداً، تصافحا مثلما يفعل الأصدقاء القدماء و أرتسمت على وجهيهما ضحكتان مجلجلتان، والتقطت عدسات المصورين صورتيهما وهما يتصافحان وظهرت في اليوم التالي في الصحف والتلفزيونات الدولية، وتحتها مانشيتات كبيرة :
ـ أنتهاء الأزمة بين دولتين نفطيتين! وفي إحدى الدول الأجنبية وقعت الجريدة التي نشرت الصورة بيد المستر هينس، فتطلع إلى الرجلين الظاهرين في الصورة، وأغمض عينيه كان قد أحيل على التقاعد منذ زمن بعيد وهمس لنفسه وهو مغمض العينين:
ـ هل يصدق الأصدقاء أن كل ما أقوله كنكات هي في الحقيقة حقائق!

-45-

في القصر الكبير كان الوزراء يجلسون في قاعة الأجتماعات الكبرى، وقد أحضروا معهم وكلائهم، وقد احتل الوكلاء الكراسي الخلفية.
دخل الرئيس عليهم في ذلك الصباح بوجهه الحاد القسمات وشعره الاكرت وقدمه الملتوية قليلاً وذراعيه المتدليتين، إلى الأسفل من ركبتيه قليلاً وكان وجهه يضج بضحكة واسعة.
وقف الجميع مزحزحين كراسيهم إلى الوراء وهمهمة متصلة تصدر عنهم لم يجلس على كرسيه بقي واقفاً وقال وهو يشير إلى الجدار:
ـ أنظروا صوب الجدار!
وفي اللحظة التي نظرت العيون إلى الجدار رأوه ينشق إلى قسمين و يتنحى القسمان عن بعضهما ببطء، وظهر للجالسين لوح زجاج ضخم يحوي خلفه ماء و أسماك قرش!
كانت تضرب لوح الزجاج السميك بأذنابها الضخمة، وفكر أحد جنود

الحماية، الذي نقل فيما بعد ما حدث في تلك القاعة لو أنكسر لوح الزجاج بتأثير هذه الخبطات العشوائية، لغرق الوزراء ومعهم الرئيس بماء القفص الزجاجي، ولأكلتهم أسماك القرش الجائعة.

وهمس احد الحاضرين لجاره:

ـ ستقول امرأتي .. العزاوي على آخر عمره ومسؤولياته الكثيرة أكلته سمكة !

قال الرئيس :

ـ أجلسوا ولا تقلقوا، ولا تخافوا، فالجدارالزجاجي لا يمكن حتى للرصاص أختراقه !

جلس الوزراء، كان المنظر مهيباً، وحين أعطى الرئيس إشارته أنزلت الأقفاص إلى الماء بوسائل ميكانيكية وداخلها رجال، وأخبرنا رجل الحماية ذاك، أنه تعرف على طارش عمي بين أولئك الرجال المحبوسين في قفص أسماك القرش!

والذي شارك في أنتفاضة شعبية فاشلة ضد الحكومة بالرغم من أن جدتي وجدي منعاه عن ذلك، قائلين له أن ثأرنا هو ثأر عشائري، ولا علاقة لنا بالسياسة.

ولم يسمع كلامهما وشارك الناس في تلك الانتفاضة وقاتل حتى نفد عتاده، وقتل أصحابه، ووقع في أسر الجيش، و تم للحكومة بعد ذلك إخماد تلك الأنتفاضة الواسعة، التي شملت أغلب مدن البلاد ..

كانت الأقفاص تنزل في الماء ببطء شديد ...

قال الرئيس مبتسما :

ـ هؤلاء الخونة من زعماء الغوغاء المتمردين!

وأخذ يوضح لهم عمل الأجهزة مثلما يفعل أستاذ الجامعة وهو يعرض على طلبته الدرس في المختبرات ويوضح لهم بحركات كثيرة من يديه أنواع العمليات.

وتم بعد ذلك أنزال الضحايا إلى الأسفل، فغمر الماء أقفاصه حتى الوسط، كانوا يصرخون ويقولون أشياء لا يسمعها الجالسون خلف اللوح الزجاجي.

وأسماك القرش تدور حول الأقفاص ضاربة بذيولها حديد الأقفاص، و تجرأ طارش في تلك اللحظة ومد يده بأتجاه الوزراء بتحريك يده بحركة بذيئة، مثلما قال لنا جند الحماية إلا أن الرعب وصعوبة الموقف ألجمت السنة جميع الحاضرين حتى الرئيس الذي كان مستمتعاً بتوضيح طريقة

عمل البكرات التي ترفع الأقفاص ونوعية الماطورات المستخدمة، ومقدار الكفاءة لكل ماطور والكوابح الذاتية، ومقدار التوتر في كل حبل، ومقدار الأمانة فيه وتوقف عن التوضيح لحظة و أشار إلى وزرائه :

- أنظروا أعداءكم ! سيواجه هذا الخائن ربه بعد قليل، وقد أدى هذه الحركة البذيئة و بلا خجل !

علق احد الجالسين هامساً :

- من الحريق الذي يشعره في قلبه!

وقلد الرئيس حركة يد طارش وضحك ثم قهقه بعد ذلك مكركراً، وتبعه الوزراء بالضحك المتحفظ أول الأمر ثم غرقوا بعد ذلك بضحك مجنون تعبيراً عن رعبهم الذي لا حد له!

انتظر الرئيس لحظة حتى هدأ الضحك وشعر إنه بعد ذلك سيفقد رغبته بهذه اللعبة الجديدة القذرة ويغادر القاعة، قال :

- " ضحكنا كثيراً، وعلينا أن نكمل عملنا، قبل أن يفقد جديته وألان سترون كيف يغرق الخائنون!

وحرك زراً في جهاز صغير يمسكه بكفه لم يلحظه الوزراء من قبل، فنزلت الأقفاص بحملها في الماء ببطء شديد وحاول الضحايا الإمساك بسقوف الأقفاص لكنها بعد قليل أنغمرت بالماء!

تحول رجال الأقفاص الحديدية من أمكنتهم يبحثون عن منفذ للخروج من الأقفاص، وعم الصمت كان مشحوناً بالخوف، والوزراء يرون عبث محاولات الضحايا وهم يحاولون الخروج من مأزقهم المرعب، وأخذوا يلبطون في المتر المكعب من الماء.

لم يقص احد من أعمامي وأولاد عمي على جدتي ما حدث فعلا، وأكتفوا بنقل خبر إعدام طارش عمي الأوسط دون نقل التفاصيل، كانوا مثل أسماك أخرجت إلى الهواء الطلق وتخلوا عن سقوف أقفاصهم و أخذوا يبحثون عن فتحة بين أعمدة الأقفاص.

وأسماك القرش تراقب ما يحدث أمامها معتقدة أن حيوانات لم تشاهد مثلها من قبل تنافسها مملكتها، فأخذت عيونها الخرزية تلمع محركة أذنابها وزعانفها العملاقة بعنف !

حاول رجال الأقفاص السباحة، لكن تلك المحاولة كانت بلا فائدة، احدهما أنحشر رأسه بين أعمدة القفص، فلم يستطع خلاصاً، فبقي هكذا كالمصلوب، لم يخبرنا جند الحماية هل كان هذا الرجل هو عمنا طارش أو غيره!

وقد تعلل أن الرعب كان يسيطر عليه ولم يستطع أن يتأكد من قسمات الرجال! لكننا مع أنفسنا كنا متأكدين أن ذلك الرجل المحشورالرأس بين أعمدة القفص هو عمنا طارش ولا أحد غيره وقريبنا لم يرد أن يفجعنا بتفاصيل موته المؤسية!

يداه المعلقتان ممسكتان بالقضبان الأفقية، وآخر أندلق لسانه الوردي من فمه، وأخذ يتدلى ويتدلى حتى أصبح طوله قدما وربما انعكاس الضوء وانكساره على الزجاج، والماء أزاد من أنعكاسات الطول الحقيقي، فأصبح الشكل الذي رآه قريبنا.

بعد أنفضاض الأجتماع أقسم الحاضرون لبعضهم البعض أنهم رأوا ذات المنظر من مختلف الزوايا، وأنهم رأوا لساناً يخرج من فم أحد الضحايا بلون وردي بطول قدم تقريباً، وان ذلك الشيء المتدلي بقي هكذا حتى الحركة الأخيرة للجسم المشنوق في الماء.

وتمزق بعد ذلك إلى قطع قرمزية وربما قطعته ذيول أسماك القرش و أخذت تلك القطع الصغيرة تنزل إلى القعر ببطء شديد.

نظر الرئيس إلى وزرائه وتمتم مرتبكاً :

ـ وألان أيها الرفاق علينا أن نرحمهم وننه عذاباتهم فلسنا جلادين!

فتعالى التصفيق من الخطوط الخلفية وأصيبت الخطوط الأمامية بعد قليل بالعدوى! فتعالى التصفيق في أرجاء القاعة.

كان المنظر مرعباً وسط تصفيق الحاضرين، مس الرئيس زراً في جهاز السيطرة، فأنفتحت الأقفاص وهجمت أسماك القرش على الضحايا و أنتثر الدم وأنتشر بعد ذلك كالضباب الأحمر، فعتم المنظر ولم يستطع احد أن يرى ما حصل خلف الزجاج للضحايا.

لكنها كانت مجزرة بحق، ووزير الصحة وحده رأى كفاً مبتورة بشرايينها المشرشرة! خمسة أصابع، وراحة كف ترتفع في ماء الحوض خلف الواجهة الزجاجية.

وأخذت تهبط ببطء شديد إلى القعر كان رجال الحماية مأخوذين بالمنظر البشع؛ ولم يشعر احد بمغادرة الرئيس القاعة أو الجدران وهي ترجع إلى وضعها الطبيعي ببطء شديد وسط دهشة الجميع !!

-46-

قال جاسم احد أبناء أعمامي، لأبيه وأخوته أعمامه، وهم يزورونه في سجن وحدته العسكرية وكان في وضع يرثى له، فقد قطعوا صيوان إذنه اليمنى! ولفوا مكان الأذن المقطوعة بخرقة قماش قذرة.

وأعطاه الطبيب عدداً من كبسولات – المضادات الحيوية – منعاً للإلتهاب الجرح، لكنه كان في تمام وعيه، وهو يقص ما حدث له و للآخرين بعد تنفيذ العقوبة لأهلنا الذين سافروا إليه حاملين الطعام، و السجائر والفراش والملابس للتخفيف عنه في سجنه:

- بعد أن نفذوا العقوبة بعشرات الآلاف من الشباب أمر الرئيس أن تمر مجاميع المذنبين من تحت نافذة قصره! مكبلين بالحديد ليرى منظرهم، و جلس منذ الثامنة صباحاً في شرفة القصر مع عائلته ليتفرجوا على مواكب المذنبين.

كانت زوجه بعقصة شعرها الجديدة، وقد صارت أكثر بشاعة وهي تقف إلى جانبه، و أبنه البكر كان واقفاً وراءه بطوله الفارع و أزواج بناته برتبهم العسكرية الزاهية، وأولاد عمه بأزياء ضباط الحماية.

وبعد أن تعالى صوت النفير وعزفت فرقة الجيش الموسيقية، مقطوعة جديدة ألفت على وجه السرعة بعنوان غفرانك يا ربي! عندها بدأت كراديس المذنبين بالمسير بأقدام حافية وملابس خلقة، ملوثة بالدم.

كان الرئيس مغرماً برؤية المناظر البانورامية المنظمة، وتهزه المشاهد المصحوبة بالموسيقى وخلال ساعتين تخللتها أناشيد عن أنتصارات الحزب الحاكم و شعارات التوبة والرجاء، التي يطلقها بين الحين والآخر أفراد من المجموعات المستعرضة أنتهت طوابير المذنبين من الاستعراض أمامه، ولم يشعر الرئيس بالإعجاب بما رأى:

كان منظرهم بائساً، والدماء الجافة فوق ياقات قمصانهم وهتافهم بحياته وحياة أولاده كان فاتراً، عدائياً، وتجرأ بعضهم ونظر صوب الشرفة متأملين سيدة القصر وبناتها، وهو يعرف معنى هذه النظرات الحاقدة.

وقال الرئيس مع نفسه: لم يكن المنظر ملحميا كما تخيلته ولا يشفى القلب الموجع بالهزائم!

وأشار بيده لأحد أفراد المخابرات، فهرع إليه راكضاً وقال له:

– سجل في ورقة عندك.

أخرج رجل المخابرات على عجل ورقاً و قلماً.

قال الرئيس :

- في هذه الليلة يتم ترحيل عائلات هؤلاء المجرمين إلى خارج حدود

المحافظات، ويتم تجميعهم في منطقة نائية واحدة في صحراء منطقة العظيم.

وصحح وضع النظارات الشمسية على عينيه و أكمل :

- وتترك عائلاتهم في العراء، ولا شأن للحكومة بغذائهم وكسوتهم، و علاجهم، أما المذنبون فيودعون السجون حتى نبت بأمرهم ! أنتهى.

وبعد ساعة واحدة من أستلام الآمر الذي أمر به الرئيس في لحظة غضبه، وخيبته المريرة جرت أغرب وأبشع عملية تهجير عرفها أهل العراق.

أخرجت النساء بثياب النوم، والرجال والشيوخ لم يستطيعوا من غلظة رجال الشرطة والمليشيا الشعبية أن يصطحبوا عكاكيزهم كان الأطفال و الصبيان يصرخون من لسع عصي الشرطة.

وقد بلغت غلظتهم أنهم سحلوا العجائز من آسرة النوم إلى أحواض الشاحنات ولا احد يعرف شيئاً عما يحدث، وماذا سيفعل بهم رجال الحزب الحاكم بسلاحهم وهم يسندون الشرطة و الآمن ....

الشاحنات تقف أمام البيوت التي تم كسر أبوابها، والتي علمت بإشارات الدهان الأسود قبل وقت قصير.

وترجل رجال الشرطة والآمن وخيط طويل من ميليشيا الحزب الحاكم ببنادق مشرعة الحراب، وأخذوا يهرولون من بداية الزقاق حتى نهايته و يطلب رجال الشرطة من العائلات نقل ما يمكنها نقله من أثاث خفيف و لوازم شخصية ضرورية، لقضاء ليلة في العراء إلى الشاحنة الواقفة في الطريق.

وبعد ذلك يدفع أفراد العائلات إلى الشاحنة بأخماص البنادق، وقد حذر رجال الآمن الناس بأن لا يتركوا قطعة أثاث في البيت المتروك! لأنهم سيشرعون بحرق ما يتبقى في البيت من أثاث و لوازم!

وعندما تسأل امرأة بصوت نائح:

ــ إلى أين تأخذوننا؟!

لا احد يجيبها ويكتفون بضربها بأخماص البنادق ودفعها إلى حوض الشاحنة.

وفي ساعة واحدة لا غير كانت الدروب في مدن البلاد المملوءة بصراخ الأطفال والنساء ودعاء الكهول، و سعالهم كان الألم يمتد وينمو من أم قصر جنوباً حتى كركوك شمالاً والموصل الغربية.

وكل القرى الصغيرة والنواحي وفي المدن الكبيرة والمحافظات المتربة

... وفي العاصمة بدأت أرتال الشاحنات السير على الطرق الرئيسية محملة بالأمتعة والأطفال المرحلين إلى المجهول.

كان ليل أواخر أيلول فيه لسعة برد وريح شديدة وقطرات مطر محملة بالغبار كان ليلاً طويلاً مفعماً بالجوع، والذل والبكاء والخوف من المجهول لا احد يدري إلى أين المصير.

وطيلة ساعات السفر كان أنين العجائز وصراخ الأطفال يتعالى مع سعال الجدات والشيوخ ونشيج النساء المفجوعات برجالهن وأبنائهن و إخوانهن وكل هذا الخليط من الأعمار كانوا ينصتون لأصوات محركات الشاحنات وتدويمات العاصفة القادمة.

كانت مراكز الأشراف على الترحيل التي أنشئت بأمر الرئيس على عجل تنقل لمركز الأشراف الرئيسي أعداد المرحلين ببرقيات مستعجلة و تجمع الأرقام النهائية وتنقل إلى مقر الرئيس فوراً.

وفي تلك الليلة العظيمة بلغ عدد المرحلين من بيوتهم مئات الآلاف قال الرئيس بصوت واطئ:

ــ مئات الآلاف! لقد أصبح الموقف ملحمياً، وحتى لا ينسى الشعب إلى الأبد عقاب عدم أطاعة الأوامر، سأرى في الصباح بنفسي ما حصل فعلاً.

-47-

أشرقت الشمس في اليوم التالي بقرص كئيب تغطيه الأتربة، ودوامات الريح الرطبة الحارة، مئات الآلاف من الناس مع النزر القليل من الأمتعة متروكين في صحراء قفراء لا ضرع فيها ولا ماء غير نبات العاقول الشيح البري، هنا وهناك، مؤاخية الآلاف من الناس، الذين رمتهم الشاحنات في ذلك الفضاء المكشوف..

رفع الناس رؤوسهم إلى السماء حين سمعوا هدير طائرة عمودية قادمة لم يعرف أحد من المهجرين أن الرئيس بذاته كان ينظر إلى جموعهم متشفياً من ألامهم، وأحزانهم وخوفهم من الأتي، وكان سعيداً بهذا المنظر البانورامي الذي يظهر بؤس مئات الآلاف من الناس المكومين مع أمتعتهم، والمتروكين على أكتاف الصحراء مثل جذوع نخل خاوية.

وأطفالهم يجلسون فوق الأمتعة مثل فراخ الدجاج الخائف، ويصرخ قسم منهم طالبين الماء والطعام من ذويهم دون أن يعبأ الأهل بصراخهم!

مرت الطائرة طولاً عرضاً بالمرحلين بأستعراض بهيج، وظن بعض تالفي العقول إنها جاءت لتلقي لهم بالخبز، والخيام وأمتعة تعينهم في نكبتهم!

لكنها خيبت رجائهم، وغادرت بعد دقائق متوجهة صوب بغداد! ولم يبق منها سوى هدير مكتوم، ونقطة سوداء في الأفق .

كنت أجلس عند قدمي جدي، وألف له لفافات التبغ، وكان أكثر من واحد من أبناء عمي قد تعرضوا لعقوبة بتر صيوان الأذن!

وبدت جدتي التي رأت في حياتها الكثير من المصائب التي لا يمكن عدها وإحصاؤها شامتة بما يحدث للناس في العراء وحولها، كأنها كانت في سفرة سياحية جالسة فوق بطانية ملفوفة مشدودة بحبل، بثوبها الأسود المزركش رامقة جدي بعينيها المتآمرتين!

وهو محني الظهر وبيده مسبحة السوداء ذات المائة وواحد خرزة، و يعطي أوامره ببرودة أعصاب لأولاده ونسائهم طالباً من عمين من أعمامي الإفلات من الشرك، الذي نصبه الحزبيون من رجال الدولة حول الناس والإفلات للوصول إلى أقرب مدينة لشراء الدقيق؟! وملء جلكان الماء والعودة إليهم بأقصر فترة ممكنة.

فالأمر كما يبدو له أكثر سوءاً، وان حالهم سيكون مثل حال الحسين وأهله عليهم السلام جميعاً في يوم الطف، وان مكوثهم سيطول في هذه الصحراء الجرداء كقرعة عمياء.

وكانت جدتي تتسمع إلى بكاء النساء على بيوتهن وأثاثهن وتصيح عليهن شامتة لاعنة أهلهن وفصلهن وعشيرتهن !

لأنهن يفكرن بأنفسهن وبيوتهن ولا يفكرن بأزواجهن وأبنائهن الذين ذبحوا بسكاكين البتر، وألتصقت صلبان الوشم الحامية على جباههم، وفي ذلك اليوم الأسود الكثير الأحزان، وقريباً من تلك الوجوه الشاكية الحزينة، وكنت وقتها في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، وعيناي تطلان على تلك الأمتعة المرمية هنا وهناك، المنتشرة بين نباتات العاقول وحصى الأرض الصحراوية، و شعوري العميق بالمهانة والصغار في ذلك اليوم سألت نفسي ماذا يعني الوطن؟!

أهو تلك البقعة الضاجة بالتعاسة التي نعيش عليها؟! أهو الناس والأمكنة و الأحداث؟! أهو تلك البقعة الصماء القاسية، التي يدعي ملكيتها و الإخلاص لها كل من جلس على كرسي الحكم، و اعتبر كل من خرج عن طوعه وأوامره خائناً لهذا الوطن ؟!

وهل من دواعي الوطنية أن يتمسك الحاكم بكرسي الحكم حتى بعد أن يثبت فشله في إدارة البلاد، والوصول بالناس إلى مهاوي الهلاك والكارثة ! دون أن يرف له جفن أو تبدر منه بادرة تأنيب ضمير؟!

أي وطن هذا الذي يورثونه كعبد أسود لأولادهم وأقربائهم ويسومونه سوء العذاب ؟!

أي وطن هذا الذي يطلبون منهم الهلاك في سبيله! وهو في حقيقة الأمر ليس غير بنك لأرصدتهم المالية ومزرعة يسكرون، ويعربدون تحت دالياتها ؟!

أي وطن هذا الذي يمثل بأبنائه! ويحمل شيوخه وعجائزه، ونساءه ليلقي بهم كأمتعة زائدة في عرض الصحراء ؟

أي وطن هذا الذي يحكمونه من غرفهم وسيارتهم المصفحة بالخرائط و الهواتف ويقتلعون أشجاره من الجذور؟!

أي وطن هذا الذي يعرون عورات نسائه أمام أنظار العالم جميعاً، و يطلبون من أهله الرقص برغم مهانتهم و جروحهم ؟!

أي وطن هذا الذي يأكله الحاكم وأهل حكمه لحماً بارداً، وفاكهة طازجة و يلقون عظامه وقشوره إلى كلابهم تاركين السواد الأعظم منتظرين العقاب الشديد؟!

وأخيرا أي وطن هذا الذي يحكمه الحاكم بورقة يضع عليها قانونه في أية لحظة يشاء، وتحت أي مزاج كان ؟!

في ذلك اليوم الذي كثرت أهواله قررت قراراً لارجعه عنه الكفاح ضد الرئيس ورجاله بطريقة جديدة لم يعرفها جدي ولا أعمامي مستنتجاً أن ما كان يفعله أهلي لا يعدو أن يكون عبث صبيان يعاقبنا عليه الرئيس بقسوة لا مثيل لها.

ولم يكن عمي طارش يرحمه الله خاطئاً حين شارك في انتفاضة الشعب ضد حكم الرئيس وأكلته أسماك الرئيس المتوحشة فيما بعد! كان خاطئاً لأنه وجماعته لم ينتصروا على الدكتاتور وحاشيته.

لم يدركوا أن الرئيس يقاتل مناوئيه بوسائل غير تقليدية! ومع وسائله لا يفيد كل تراث الثورات العالمية! ولا طرقها في إسقاطه، فهو مثلا أن لم يستطع إخماد تمرد إحدى مدننا بالبنادق والدبابات، والرشوة، فأنه سيشرع فوراً بإبادتها بصواريخ أرض –أرض وبالغازات الكيميائية.

ولا بديل عنده غير أستخدام كل ما هو غير تقليدي في حربة ضد الشعب!

وأمام عدو كهذا يصير لا معنى لمحاربته وجهاً لوجه، بإمكانات الشعب المتاحة!

ولا تنفع معه غير طريقتين، الأولى تأخذ على عاتقها قطع أطرافه من الأنصار و المعاونين بأغتيالات فردية هنا وهناك!

والثانية استعداء كل دول العالم ضد نظام حكمه بشعار" تحيا الحياة ! "وتوضيح ما يعانيه الناس في بلادنا في ظل حكمه.

وذلك يحتاج كتاباً وصحفيين من نوع خاص! جربوا خوض المأساة في ظل حكمه حتى أعناقهمم، وذاقوا طعم ظلمه المر، وعاشوا لحظات فتكه بالناس لحظة بلحظة، ونالوا ما نالوا من العواقب؟

شعرتُ أن المآسي أنضجتني بشكل مبكر! نعم كبرتُ بشكل مبكر وجعلتني المآسي أفكر ويدي قابضة على مكان معدتي المتضورة جوعاً، ويدي الأخرى على رأسي لأتقاء ضربة أخمص بندقية يوجهها لي مواطن من أهل بلادي، لا ميزة له علي سوى انه من أتباع حزب الرئيس، ونال بعض القشور، التي يغدقها عليه بين وقت وآخر، ونأى بنفسه عن صفوف المقهورين إلى صفوف القاهرين!

-48-

عند عودة سيلبا من الخارج بدا لمن يعرفه شخصاً مختلفاً، وأخذ يتبع خطوات العميد المتقاعد عن بعد، وبدأت مجموعة هيثم من الضباط وباقي الشلة تعطي الشاب الصامت قيمة أكبر من التي يستحقها فعلا، خصوصاً بعد أن سمعوا أنه نال تدريباً خاصاً خارج العراق.

لم يكن سيلبا يتحدث عن شيء وطيلة الوقت يصغي إلى ما يقال دون أن يعلق على ما يسمعه، فقد ترك الأفكار والتفكير لأفراد الشلة، ورضي أن يكون منفذاً لأفكارهم.

ولكن كانت له أحلامه الخاصة، التي لا يفصح عنها لأحد وداخله كان يكن احتقاراً شديداً لأفراد الشلة لأيمانه الكامل بأنهم مجموعة من الجبناء والأفاقين، وحالما تحين الساعات الصعبة سينفضون دون أن يتركوا أثراً يدل عليهم.

كان سيلبا ينتظر بفارغ الصبر الفرصة المؤاتية لم يتخيل كيف تكون تلك الفرصة لكنه كان واثقاً أنها ستأتي لا محالة.

وبالفعل جاءت الفرصة في ليلة من الليالي، حين قال أحد أفراد الشلة أنهم لو أغتالوا رئيس الوزراء، لتغيرت الكثير من الأمور في البلاد لصالح

الجيش!
فكر سيلبا أنها فرصته الذهبية، التي لا تعوض، ولأول مرة سمعه أفراد الشلة، وهو يتحدث بصوت طليق:
ـ أنا من سيقوم بهذا العمل!
سأله العميد هيثم مشككاً بقدراته:
ـ وحدك؟!
قال سيلبا:
ــ سأجد ثلاثة أو أربعة يساعدونني في هذا الأمر! وعليكم دفع الأجور لهم!
وعقدت الدهشة ألسنة الجالسين وفي رؤوسهم دار سؤال يبحث عن إجابة: أيمكنه أن يفعل شيئا كهذا ؟! لن نخسر شيئاً إن لم ينجح في عمله، فمن هو سيلبا؟! هو ليس غير المتسكع، الذي وجده العميد المتقاعد في الطريق! إن نجح أزاح رئيس الوزراء عن الطريق وأعطى بذلك الفرصة لغيره من أصدقائنا في الجيش لتولي مقامه! وإن لم ينجح فلن نخسر شيئاً، سنشتري صمته بالمال، أو بسم ندسه له في الطعام، فيهمد طاوياً في قبره على أسرارنا!
كان سيلبا يعرف تماماً ما يدور في رؤوسهم من أفكار لئيمة بحقه، ولكنه قال لهم بهدوء :
ـ وفروا لنا السيارة التي تقلنا بعد تنفيذ عملية الاغتيال والمال اللازم لأوزعه على أفراد الجماعة التي ستنفذ الأمر وأعطونا المعلومات الكاملة عن تحركات رئيس الوزراء اليومية وأذهبوا بعدها إلى بيوتكم، لتسمعوا خبر نعيه من المذياع!
و بالفعل وفر أفراد الشلة لسيلبا ما يريد، و في اللحظات الأخيرة أراد أفراد الشلة التراجع عن تنفيذ تلك المؤامرة، التي ستزعزع أمن البلاد لما يتوفر عليه رئيس الوزراء السابق من شعبية بين أفراد الشعب.
وعندما شعر سيلبا بذلك النكوص أخبرهم مهدداً لو أنهم تراجعوا فسوف يقوم بتبليغ السلطات عن تخطيطهم لأغتيال رئيس الوزراء ! وليحدث بعد ذلك ما يحدث وحين ذاك لم يعد أمامهم غير المضي في هذه الورطة التي تورطوا فيها مع ابن الحرام هذا!
وفي يوم التنفيذ كانت أيديهم على قلوبهم من شدة الخوف والأضطراب، صحيح أنهم كانوا يكرهون رئيس الوزراء ذاك، وربما بوصول رئيس وزراء جديد قد تنفتح لهم آفاق جديدة في الحكومة والمناصب العسكرية

التي ستكون شاغرة لشمول الضباط بترفيعات جديدة وذلك ما يفعله عادة أي رئيس وزراء أو حاكم جديد!

ولكن بالرغم من كل ذلك الأغراء فإنهم لا يغامرون برؤوسهم و مستقبلهم بهذه البساطة ! ولكن ماذا يفعلون مع تهديدات سيلبا المتكررة بإفشاء أمرهم وأسرار جلساتهم للاستخبارات العسكرية في حال نكوصهم عن تنفيذ ما اتفقوا عليه؟!

كانوا يعرفون، كما يعرف غيرهم من الضباط المتواجدين في بغداد ، أن رئيس الوزراء يمر في شارع الرشيد كل يوم خميس بعد الظهر ليتفقد وزارة الدفاع في نهاية الشارع، وقد كانت وزارة الدفاع مناطة به إضافة لرئاسة الوزارة.

كان يمر بسيارته الشفروليت دون حماية تقريباً، وتم أبلاغ سيلبا وجماعته تلفونيا حال تحرك سيارة رئيس الوزراء من بيته قبل المرور بشارع الرشيد للتوجه إلى وزارة الدفاع.

وكمن سيلبا و جماعته من المأجورين ينتظرون في شقة تطل على شارع الرشيد وهم يرتجفون خوفاً ورهبة من تنفيذ أمر الاغتيال، والمجموعة التي تم استأجارها لم تكن تعرف إنها ستقوم باغتيال رئيس وزراء البلاد.

كانوا يعرفون فقط أنهم سيقتلون ضابطاً من الضباط الكبار، وعلى هذا الأساس أستلموا نصف مبلغ أتعابهم مقدماً، و بعد تنفيذ الآمر المتفق عليه سيستلمون النصف المتبقي!

عندما وصلت سيارة رئيس الوزراء حيث المجموعة تنتظر، نزلوا إلى الشارع شاهرين سلاحهم وأخذوا يطلقون نيران أسلحتهم باتجاه سيارة رئيس الوزراء..

سيلبا بقي وراء المجموعة مدعياً إنه سيشرف على حماية المجموعة عند أنسحابها، وليغطيهم بإطلاق النار بعد انتهاء تنفيذ العملية! وبعدها يصرف لهم مستحقاتهم المالية!

كانت المجموعة تعرف أن سيلبا لو قتل أثناء تنفيذ العملية لضاعت عليهم حقوقهم المالية المتبقية!

فكان من المنطقي أن يوافق أفراد المجموعة على بقائه خلف المجموعة أثناء التنفيذ وأفتدى السائق الذي يقود سيارة رئيس الوزراء حياة رئيس الوزراء بحياته وقتل السائق وهو يتلقى الرصاصات بجسده وأشهر رئيس الوزراء مسدسه الشخصي وكذلك رجال المرور، الذين تصادف وجودهم في تلك المنطقة أثناء المحاولة، أخذوا يقاومون تلك المجموعة وأصيب

سيلبا بطلقة طائشة في قدمه اليسرى، وأنسحبوا بعد أطلاق النار بعشوائية في الأزقة الضيقة وفي الجانب الآخر عبر الأزقة الضيقة كانت تنتظرهم سيارة الأجرة في جانب من شارع الجمهورية الموازي لشارع الرشيد وأقلتهم إلى الجانب الآخر من المدينة عبر الجسر!

-49-

حين كتب بعد ذلك كاتب كلفته الدولة بالكتابة عن الرئيس، ونضاله أورد هذه الحكاية بعد أن لفق الأحداث وأعطى سيلبا قوة خارقة !

وصار هروبه عبر الزقاق مادة أستغرق فيها الكاتب عشرات الصفحات، وصار موضوع الكتاب فيلماً روائياً أشرفت وزارة الإعلام على أنتاجه، وأعيد عرضه على الشعب مئات المرات وفي كل المناسبات الوطنية والشعبية والأيام الرمزية كيوم الشجرة ويوم العاشر من محرم! و يوم ميلاد الرئيس! ويوم توليته في موقعه السياسي، ويوم أنجبت زوجته أبنه البكر! ويوم وفاة عمه! ويوم زواج أبنته!

آلاف المرات عرض الشريط السينمائي، حتى أن الناس حفظوا أحداثه عن ظهر قلب! و أخذوا يرددون مقاطع طويلة من السيناريو والحوار مع الموسيقى التصويرية الضاجة، التي وضعها موسيقي يوناني شهير بملايين الدولارات، وقد أنصب أهتمام الجمهور على حفظ قول بطل الفيلم و هو يركض في الأزقة الموحلة بفمه المعووج :

- أحنه دنلعب؟!

حين رأى الرئيس الفيلم لأول مرة أعجبه الممثل الذي تم أختياره من بين مئات الممثلين، لكونه يشبهه عندما كان شاباً، و أرسل الرئيس يطلب حضور الروائي والسينارست ومخرج الفيلم وأمر لهما بمكافأة سخية، و بقصرين يطلان على دجلة وسيارتين من أحدث طراز لشركة مرسيدس، و أعطى المؤلف شيكاً مفتوحاً.

وخيره بوضع الرقم المالي المناسب له وبعد تفكير طويل كان المؤلف يعرف إنها فرصة لا تعوض أو يجود بها الزمان مرة أخرى، وهو يعرف انه من كتاب الفئة العاشرة في البلاد.

والفرصة جاءت إليه ولم تذهب إلى أحد غيره وبعد تردد قصير كتب في حقل المبلغ الفارغ من الشيك عشرة ملايين دينار.

وفي ذلك الحين كان الدينار يساوي ثلاثة دولارات، وانه بذلك الرقم قبض أكثر من ثلاثين مليوناً من الدولارات لقاء كتاب من مائتي صفحة

أحتوى على مجموعة كبيرة من الأكاذيب والمبالغات المأخوذة من السينما الهندية، الممزوجة ببطولات سوبرمان الخارقة!
وكان ثمن كل صفحة أكثر من خمسين ألف دولار أمريكي وأضاف إليها السينارست الحوار والمخرج الحركات المفتعلة، والموسيقى الضاجة و إطلاق الرصاص بمناسبة ودون مناسبة عن حياة الرئيس الدراماتيكية.
وعين الكاتب فيما بعد بوظيفة كبيرة في وزارة الثقافة والإعلام، و أهديت إليه مزرعة من عدة فدانات على نهر دجلة يطل منها قصر منيف و أعطي الكثير المسؤوليات الحزبية، والإعلامية وسمي توقيعه على الأوراق الرسمية بالتوقيع الذهبي!
لأنه لا يُرد في الدوائر الرسمية، وكلما فكر بالذي جرى عليه من أحداث سعيدة يقرص يده ليفيق من النوم إن كان نائماً غير مصدق ما ناله من مال وجاه وصار أسمه على لسان الجميع.
وطيلة السنوات التالية كان يحلم حلماً سعيداً لا نهاية له وهو في كل مناسبة وبلا مناسبة يقرص يده! حتى يتأكد من إنه يعيش حقاً ولا يحلم حتى صارت هذه عادته الدائمة ومشكلته في ذات الوقت!
ومن دون أرادة منه كان يقرص فخذه ويده بالتناوب كل خمس دقائق! كمن أصيب بمرض عصبي! وصار بسبب حركاته غير الإرادية تلك مثلا بين السينمائيين والكتاب وكان الجميع يتندرون على حالته القلقة في مجالسهم الخاصة والعامة ويقولون عنه إنه أصيب بمرض لعنة العراقيين الذي يصيب كل مَنْ يتسبب بأذى مادي أو معنوي لهم ..
وعندما رأت عائلة الرئيس الفيلم لأول مرة، قالت أبنة الرئيس المدللة المصابة بعقدة ألكترا منذ طفولتها، إنها ترغب بالزواج من الممثل الذي أدى دور أبيها في الفيلم!
وكان الأب يلبي طلبات عائلته كأوامر لا يمكن ردها! فأرسل في طلب الممثل وحين أُحضر إليه أمر بإدخاله إلى الحمام ليستحم، ولم يكن الفنان يعرف ماذا خطط له القدر في السنوات القادمة أو ماذا يدور حوله من أمور في تلك الليلة العجيبة!
وحين فرغ من الأستحمام عطروه بماء الورد وقدموا له الملابس البيضاء الموشاة بشرائط الذهب ليرتديها!
وعندما أكمل ذلك صار وجهه كالليمونة من الخوف، ومن عاقبة ما يجري له من أمور غير معقولة.
أبلغه حاجب القصر انه سيعقد قرانه في هذه الليلة على أبنه الرئيس و

أخذ المسكين يمشي بين موظفي القصر بحلته الذهبية كالحالم!
وكان يتعثر بدرجات السلالم الرخامية، وبالفرش الوثير، وتمت الإجراءات بسرعة، ليجد نفسه عريساً لأبنة الرئيس!
وعندما فر هذا الممثل بعد سنوات طالباً اللجوء السياسي مع أبنة الرئيس، بعد سنوات هانئة أمضاها في صيد الوعول، والبذخ على موائد القمار، والسعادة التي لم يكن يتخيلها من قبل، وقد سرق في أخريات أيامه شيكاً قابلاً للدفع بمبلغ كبير، فطلب الرئيس بامتعاض إيقاف عرض الفيلم الذي يمثل فيه زوج أبنته الخائن دور سيلبا.
وبذلك توقفت الهبات السخية، التي كانت تغدق باستمرار على سينارست الفيلم، كلما عرض الشريط السينمائي في المناسبات الوطنية والأعياد الدينية.
فسكر السينارست في ليلة باردة زاد بردها وضعه سوءاً وأخذ يسب زوج أبنة الرئيس الخائن، الذي تسبب بخيانته غير المتوقعة قطع رزقه ورزق عياله من عرض الفيلم، الذي كان يدر عليه مالاً كثيراً، وأوقفته المخابرات، لأنه كان يشتم أفراداً من عائلة الرئيس.
وكان الرئيس وبالرغم من خيانة زوج أبنته له قد أنزل تعميماً على الحزب والأجهزة الأمنية، والمخابراتية يمنع فيه سب زوج أبنته وسمي الشتم بجريمة قذف عائلة الرئيس، والمساس بشرف وهيبة الدولة.
وقد أطلق سراح السينارست فيما بعد ولكنه كان يشعر في دخيلة نفسه أن عصره الذهبي قد أنتهى، وأن أيامه الرمادية قادمة لا محالة.

-50-

كان سمير عبد الدايم المدير العام في وزارة المواصلات يعيش أجمل أيام حياته وهو المؤمن تماماً بما قاله جلال الدين الرومي في وصفه للعشق والعاشقين، وحفظه لمقوله محرفة عن ذلك الرومي تقول:
ـ من سمع أخبارك صعق شغفا بك وأصيب بالجنون من وصف جمالك!
وقد تزوج سمير قبل أشهر قليلة أجمل أمرآة في بغداد وربما في العراق. و قد شهدت لها جميلات نساء بغداد بهذا لا رجالها! والنساء كما هو معروف أكثر بخلاً في إطراء جمال الجميلات!
أن لم تكن المرأة جميلة حقا في تقاطيعها وقوامها فلا جمال حقاً في بغداد ولا يدري أحد من أطلق عليها تسمية حورية بغداد الفاتنة.
وكان المهندس سمير حين يجمعه الفراش بعروسه يمد كفه المرتجفة

ليلمس جسدها البض جزءاً جزءاً غير مصدق أن كل هذا الثراء من اللطف، والجسد الخارق الجمال، والعذوبة والرقة صارت له شرعاً وعرفاً ويمكن له أن يتملاه و يتحسسه، ويغرف من ينابيعه الصافية، ويخترقه بنظراته و يحتضنه وينام معه في دثار واحد قرير العين.

إضافة إلى جمالها الآسر، فهي سليلة أسرة غنية معروفة في بغداد وقد اعتنت هذه العائلة بتربية أبنتها الوحيدة فائقة الجمال وعلمتها تعليم الصفوة، فهي كانت تعزف على البيانو كل الكلاسيكيات القديمة لبتهوفن وموزارت وجايكوفسكي، وغيرهم بمهارة فائقة وترقص باليه كجنية رائعة الجمال، و تركب الخيول كفارسة لا يشق لها غبار!

تعلمت الفرنسية والانجليزية، والألمانية، وأتقنت هذه اللغات و تخرجت من كلية الهندسة معمارية، وأكد أساتذتها أن مستقبلاً لامعاً ينتظرها وكان يكفي سمير عبد التواب أن ينظر إلى عينيها عندما يعود من عمله، لتتبخر كل متاعبه وإحباطاته!

وحين كان يقبلها في الصباح، وهو ذاهب إلى مقر عمله، كان يشعر أن خسارة يومه ليس لها حد، ولا تقدر بثمن لأنه لا ينفق ساعات ذلك اليوم في تقبيل فمها الشهي! والبقاء في أحضانها الدافئة، لا يغادر منزلهما على الإطلاق لآي أمر من الأمور.

-51-

في مساء بارد من مطلع السنة الجديدة، وكانت الريح الباردة تدوم في الخارج، والقمر قد غاب وراء غيوم كثيفة!

وضع سمير رأسه في حضن زوجته يحدثها عن عمله وأسنانه تلوك حبات اللوز المشوية، و هي تلعب بأصابعها النحيلة بخصلات شعره عندما رن جرس الهاتف!

شعرا بالأنقباض، فهو لا ينتظر مخابرة من أحد! وهي كذلك، تحركت زوجه صوب سماعة الهاتف، وملأ عطرها النفاذ صدره عند مرورها و بقي الزوج في حالة أسترخاء وقد أغمض عينيه نصف أغماضة.

وهو يتخيل اللذائذ التي ستقدمها له زوجه في هذه الليلة الباردة، لقد وعدته أنها ستقدم له شيئاً من موزارت بأصابعها الرقيقة على البيانو بروح جديدة وأنتظر أن تقول له شيئاً عن هوية المهاتف.

وحين حرك رأسه بأتجاهها رأى في عينيها خوفاً إلى درجة أن أصابعها الممسكة بالسماعة كانت قابضة بتشنج ظاهر عليها، كأنما تبعد عن أذنها

أفعى! أبعدت السماعة عنها وهمست بخوف و ارتباك :
- الرئيس! الرئيس على الخط!
جفل سمير غير مصدق وجلس في موضعه نصف جلسة وسأل :
- مَـــــــــنْ ؟
قالت كمن تستعجله :
- الرئيس!
وبقفزتين صار قريباً منها وأخذ سماعة الهاتف، لم يستطع أن يرد بكلمة ! صحيح انه كان مديراً عاماً في إحدى دوائروزارة المواصلات، لكن لم تكن من الأمور المألوفة أن يتصل به رئيس الجمهورية بشكل مباشر!
وفي أقصى الأحتمالات يتصل به وكيل الوزارة، ومن الجانب الآخر كان الرئيس يتحدث ببرودة أعصاب مع الرجل، الذي فقد القدرة على النطق كان الصوت واضحاً :
- المدير العام .. الأستاذ سمير .. سمير عبد التواب ؟!
لم يستطع إلا أن يقول بصعوبة بالغة وهو يبلع ريقه متلعثماً :
- نعم سيدي أنا هو !
عندها ضحك الرئيس ضحكته المشهورة، والتي يقلدها أفراد كثيرون من الشعب نكاية به، وبغضاً له، وهم يلوون شفاههم، مقلدين فمه المعوّج وهو يضحك!
ساخرين من ذلك الصوت الذي كان يطلقه والرئيس في تلك اللحظة كان عارفاً كمية الخوف التي شحن بها الصوت، الذي كان يهاتفه من الجانب الآخر!
قال وهو يلطف جو المخابرة :
- في الحقيقة ليس من الجائز أن أتصل بك بشكل مباشر! لكن شاءت الظروف النفسية، التي أمر بها أن يكون حواري معك شخصياً و مباشراً ! من رجل إلى رجل.
وبلع سمير ريقه بصعوبة ونظر إلى زوجه التي أضافت رؤية وجه زوجها المصفر إلى خوفها مزيدا من الخوف!
وأخذ سمير يردد بغباء:
- نعم سيدي نعم سيدي الرئيس! أمرك سيدي الرئيس!
أكمل الرئيس :
- كنا قبل أيام في جلسة خاصة جداً بمناسبة رأس السنة الميلادية، و

في هذه المجالس كما تعرف يدور الحديث في كل المواضيع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية.. هل أنت معي على الخط ؟

وسمع سمير من الجانب الآخر صوتاً بعيداً يحدث الرئيس قائلاً بصوت هامس مدير الآمن الخاص على الهاتف الأحمر، وسمع الرئيس يقول له أن ينتظر قليلاً!

ثم قال سمير من جديد : ألو ..

- نعم سيدي أنني معك على الخط !

- قلت لك أن الجلسات الخاصة تبدأ عادة بالموضوعات السياسية و تنتهي بالنساء!

وعندها ضحك الرئيس ضحكة مصطنعة، وشعر سمير بوخزه في قلبه، وسمع الصوت يقول محاولاً بلع ضحكته:

- وجاء ذكر الجميلات عبر التاريخ من كيلوباترا إلى ملكة سبأ، و عرجنا بعد ذلك إلى جميلات بغداد في العصر الحديث وقد ورد أسم حرمك المصون ضمن جميلات هذا العصر.

أمتقع وجه سمير كأنما سقطت على رأسه قنبلة لم تنفجربعد لتريحه إلى الأبد وكاد أن يقع على وجهه لولا بقية من خوف أمدته بالقوة ليبقى صامداً حتى النهاية ممسكاً بسماعة الهاتف، كما يفعل الجندي المصاب بجروح بليغة، لكنه يبقى ممسكاً بعلم البلاد وأكمل الرئيس :

- الأجمل من هذا كلما سمعت ما أثار أهتمامي بها حقاً، لقد قالوا في ذلك الاجتماع أنها تجيد العزف على آلة البيانو وترقص بمهارة.

لم يستطع الزوج الصمود، وهو يسمع الرئيس يمتدح زوجته بذلك الإعجاب الآثم!

فجلس على ذراع المصطبة وهو يرتجف ممسكاً بالسماعة، كما يمسك الجندي بسارية علم وطنه، وقد أوثقته الجروح، وأثقل كاهله الوهن وشل حركته، وكأنه مقيد إلى صخرة ثقيلة بالكاد يستطيع تحريكها، وهي تهوي به إلى أسفل سافلين، وسمعه يكمل :

- لن أطيل عليك فمديرالآمن العام ينتظر أن أرفع سماعة الهاتف الأحمر، أريد منك بصراحة ومن دون مداورة يا أستاذ سمير أن تطلق زوجتك في هذه اللحظة! وتبعثها لي! أحد رجالي ينتظر أمام داركم منذ الصباح، أرجو إلا تجعله ينتظر طويلاً ! فالجو بارد كما تعرف، والرجل جم الأدب، ولن يغامر بالضغط على جرس باب داركما، وسينتظر خروجها صابراً محتسباً، و لا تنسى .. أنا أيضاً أنتظر قدومها.. تحياتي لك رفيق

سمير!
وضع الرئيس سماعة الهاتف وسقطت السماعة الأخرى من يد سمير عبد التواب! وأحدث الجهاز الساقط على البلاط صوتاً مكتوماً!
هرعت إليه زوجه، وفي عينيها سؤال وقد أرعبها حال زوجها السيئ :
ــ ماذا يريد الرئيس منك ؟!
ــ مصيبة... ماء من فضلك لم أعد أفهم شيئاً!
هرولت زوجته مسرعة إلى المطبخ وعادت إليه بقدح ماء وكل عضو فيها يرتجف.
شرب كأس الماء مرة واحدة، كأنما يطفئ حريقاً لا عطشاً! وأخذ بعد ذلك يتمالك نفسه شيئاً فشيئاً، وهو يتذكر أن ثمة شخصاً قد أرسله الرئيس ينتظر عند باب الدار منذ الصباح، قالت زوجه متسائلة من جديد:
ــ وما الذي أراده منك ؟!
قال والدموع تنهمل من عينيه، كأنما كان ينعي نفسه :
ــ طلب أن أطلقك وأبعثك إليه!
- ماذا ؟!
- وعليَّ أن أطلقك الآن!
- هل جن هذا الرجل ؟!
- لا أدري.. وأنا الذي سيفقد عقله!
وبعد فترة صمت قصيرة اعتملت فيهما مشاعرهما فسألته:
- وماذا سنفعل ؟!
سفحت دموعه، قال :
- لست بطلاً لأقتلك وأقتل نفسي!

-52-

ومن جديد عاد السؤال الضاري على لسانها بصيغة أخرى:
- ماذا سنفعل ؟!
تحامل المديرالعام واقفاً كأنما سينفذ فيها حكم الإعدام، وينتحر بعدها مباشرة، قال بصوت متحشرج منخفض:
- أنت.. طالق!.. طالق!.. طالق!
وأطرق وأخذ يبكي بكاء مراً بدموع غزيرة، نظرت إليه طليقته بخيبة أمل مريرة وبدت مثل نمرة جريحة قررت أن تترك صغارها للصياد :
- أأنت رجل؟! مستحيل أن تكون رجلاً، بل من المخزي أن تكون زوجا

لي!
- أسمعي لا تطيلي العتاب! أرجو أن ترحمي ضعفي! الرئيس بعث شخصاً ليصطحبك إلى قصره، أرجو أن تسرعي بمغادرة الدار لئلا يظن أننا نماطل في تنفيذ أوامره!

كانت تنظر إليه مشدوهة للحظات ثم رآها تدخل إلى غرفة النوم وهي تمسح دموعها مرددة كلمة:

- جبان!

و سمعت صوته المرتجف وهو يقول لها :

- أرجو ألا تقترفي أية حماقة! كأن تؤذي نفسك... لا تنسي أنه سيؤذي عائلتك.. سيؤذي أباك وأمك وأقاربك! كل عائلتك وعائلتي سيمحوهم من الوجود!

لم ترد عليه كانت تغير ملابسها لبست ملابس الخروج، فبدت أمام المرآة كفلقة القمر وأخذت حقيبة يدها، وقبل آن تغادر الدار نظرت إلى طليقها، قالت بصوتها الابح، الذي يثير فيه مكامن الشهوة :

ــ سأذهب إلى أهلي، وهم سيحمونني أن لم تحمني أنت، يا زوجي السابق العتيد!

ــ لن يستطيع أحد أن يحميك من هذا المجنون، وستدمرين أهلك أن جعلتهم بمواجهة هذا الطاغية!

حين دارت لتخرج من الدار شعر بأن قدميه لا تحملانه وسقط على وجهه منتحباً يعض كفيه وكل عضو فيه يرتعش ..

ثم سمعها تبصق بأتجاهه وتغادرالدار، أراد أن يقول لها أنا مجبر على ما فعل، لكنه لم يقو على الكلام وسمع وقع خطواتها الواثقة المبتعدة وصوت الباب الخارجي والبستاني يفتحه لها ومن ثم صوت إغلاقه.

وفي تلك اللحظة العصيبة أنفجر سميرعبدالتواب يبكي بكاء لم يفعله بشر قبله ولن يفعله أحد بعده.

كما كان يعتقد، يقول ابن عمي عبود، الذي كان يعمل بستانياً في تلك الدار أنه تلك الليلة عرف من مغادرة سيدة البيت بذلك الأرتباك وراقبها، وهي تصعد سيارة فارهة عليها علامة قصر الجمهوري، وكان ثمة رجل ينتظرها قريباً من البيت مرتدياً زياً زيتونياً يدل على انه يعمل في إحدى المؤسسات الأمنية.

وقد رفضت في البداية الذهاب معه، لكنه أجبرها على الصعود إلى السيارة معلناً انه سيوصلها أولاً لترى أهلها.

وأراد البستاني أن يتدخل، ولكن سيدته أمرته أن لا يتدخل، وبدا له أن الأمر أكبر من أن يستطيع منعه، وأن ثمة رائحة غير طيبة يثيرها ذلك الذهاب المريب لتلك السيدة الجميلة المستورة في هذا الليل وحدها مع رجل غريب، وثبتت في رأسه تلك الشكوك أنها لم تعد بعد ذلك إلى بيتها وغدا زوجها بعد فراقها حزيناً يقضي الوقت مخموراً في داره أو يتفرج على التلفزيون، وتزوره بين الحين والآخر فتيات ليل يغادرنه في الصباح بشعور مشعثة، وبين أصابعهن سجائر بدت وكأنها لا تنطفئ أبداً ....

-53-

طقاطيق ساخرة كثيرة، قالها الناس سراً حول هذه الحادثة المخزية، بعض الساخرين وضعوا على لسان المرأة ما لم تقله، ولكن إمعانا في أهانة زوجها المستسلم لعاره قالوا على لسانها :

ــ الليلة يا مطلقي العزيز سأجعل الرئيس الرجل الوحيد في هذا الوطن الذي يعيش كديك!

سأجعله يعيش أجمل ساعات عمره سأريه من اللذات، التي لا يمكن أن تهبها أنثى لرجل سأعطيه روحي، وجسدي معاً سأعطيه عطاء لم يذقه من أنثى قبلي أو بعدي سأكون قحبته الأثيرة، التي لا يمكن له أن يتخلى عنها حتى لو أراد ذلك، أما أنت فأتصل بأمي وأبي وأبلغهم بعارك الأبدي.

أنا لا استطيع أن أقول لهما شيئاً قل لهما أيضاً أن ثمة قرنين صغيرين نبتا في جبهتك، وبعد ذلك يا عزيزي أبق في شجنك، وعجزك.

أخذت دموعها تنهمل، وهي تتحدث، وأكملت بصعوبة، سأطلب من الرئيس في ساعة أنس أن يجعلك المدير العام الوحيد المدلل في البلاد كلها، فلا تقلق على منصبك الرسمي أبداً.

الم تضح بزوجتك من أجل راحته ؟ ألم تهرق شرفك ورجولتك أمام مذبح شهوته ؟

-54-

أكملوا في قصر الرئيس الفحوصات الطبية الروتينية، التي تجري عادة على حالة مثل حالة مطلقة المدير العام سميرعبد التواب قبل أدراج أسمها في سجل موظفات القصر.

وأدخلتها الحمام امرأة سوداء سمينة حممتها باعتناء كبير، وأدخلنها

بعد ذلك غرفة أخرى وعطرنها هناك، وكحلنها ومشطن لها شعرها وساعدنها في أرتداء حلة نوم خاصة، فغدت بعدها حورية رائعة الجمال مشرقة القسمات عذبة الامتلاء، كأنما لم تقع عليها عين من قبل وكانت الوصيفات الثلاث يفعلن كل شئ بسرعة وهدوء، وهن يؤدين أدوارهن بمهارة فرقة موسيقية تعزف حركات صعبة من سيمفونيات مشهورة، وبين الحين والآخر تقول أحداهن شيئاً ممازحة زميلاتها، متأملة جمال المرأة الحزينة، مرددة سبحان الله الخالق، فتنهرها الأخرى بالقول :

ــ أستعجلي انه ينتظر على جمر بأقدام حافية!

فترد ثالثة ساخرة :

ــ أنها تتعمد التأخير ليفعل بنا ما فعله في المرة السابقة تلك العقوبة التي لن أنساها أبداً.

وأخذن يتضاحكن، وأيديهن لا تتوقف عن تحضير الحورية وتجميلها للرئيس وقد جمدت الدموع في عينيها واحتبست الآهات، وحين أكملت الوصيفات زينتها قادتها من يدها رئيسة الوصيفات في باحات وممرات القصر الداخلية الصامتة إلا من وقع خطواتهن وهمست المرأة بأذنها بصوت خشن أمر :

ـ كل ما يطلبه منك أفعليه بلا تردد ! وان لم تفعلي ما يطلبه منك سيفعله بالقوة الغاشمة، ولن تنالي بعد ذلك سوى الندم وليس في بلادنا امرأة رفضت له طلبا وأبقى أهلها أحياء يرزقون هل فهمت؟

ـ مصير أسرتك و نفسك بين ساقيك منذ الليلة!

وهزت الحورية رأسها رافضة، والدموع في عينيها وقادنها في الممرات حتى وصلن أمام باب غرفة موصد فتحته الوصيفة بمفتاح كانت تخفيه في جيب مريلتها البيضاء، قالت هامسة:

ـ ستمكثين في هذه الغرفة.. كوني مرتاحة، فهو سيأتي حتماً وعندما لا يكون موجوداً و تحتاجين إلى شيء أضغطي زراً بجانب السرير، فتجئ إليك خادمة لتلبية طلباتك لكن لا تستخدمي ذلك الزر، وهو موجود تذكري ذلك.

ونظرت المرأة من فرجة الباب إلى داخل الغرفة فرأت إضاءة خافتة و شمت رائحة لوز خفيفة معتقة ودخلت الحورية تقدم قدماً و تؤخر أخرى وأغلقت الوصيفة الباب عليها ومضت.

كانت الغرفة واسعة بنوافذ مرتفعة عن الأرض ومطلة على حدائق القصر الغناء وفي وسطها سرير نوم واسع وثمة أدراج عديدة من خشب

الصندل لتبديل الملابس ورائحة بخور هندي معتقة تشربها المكان.

ورأت أصص زهور في كل مكان تعطي المكان صفات غابة موحشة لا تسكنها غير الوحوش الضارية.. أقتربت من السرير وجلست على طرفة تنتظر، كانت خائفة وخجلة كالليلة الأولى من ليالي عرسها، لكنها سرعان ما هدأت، وانتقلت إلى الجانب الآخر من السرير شاعرة بالخجل من عريها خلف تلك الغلالات الشفافة التي ألبسنها، ومدت يديها إلى أغطية الفراش وفي تلك اللحظة وقبل أن تغطي عريها ودون سابق إنذار أنفتح باب الغرفة الداخلي الثقيل وأطل الرئيس عليها...

-55-

بالرغم من إضاءة الغرفة الخافتة عرفته كان وجهه يميل إلى سمرة غامقة وليس كما تظهره الصور وشاشات التلفزة بقسمات متوحشة، و حاجبين كثيفين وفم يميل إلى الأعوجاج من جهة اليمين أكثر من اليسار.

أطمأن إلى وجودها وجمالها الآسر في لحظة وقوفه أمامها وغمرته شهوة الصياد، الذي أصطاد فريسته بعد كفاح قصير أقترب من السرير و أخذ يخلع معطفه وقميصه ورمى ملابسه بفوضوية قريباً من السرير.

لم ينطق كلمة واحدة ولكنها كانت تسمع أنفاسه اللاهثة الشبقة المتقطعة، كأنما صعد تلاً بركضة واحدة.

شعرت لحظتها بخوف حقيقي من هذا الأغتصاب العنيف القادم، لكنها تمالكت نفسها متذكرة وصايا الخادمات، قالت في ذاتها مهما كان فهو رجل، ولن يستمر عذابي في اسوأ الحالات أكثر من عشر دقائق لا غير!

وستموت هذه العاصفة، كما يموت كل شيء، أكمل خلع ملابسه و صارعاريا كما ولدته أمه وصعد فوق السرير وأخذ يتقدم نحوها زحفا على ركبتيه، وهو يلهث بصوت مسموع مدَّ أصابعه الطويلة المرتجفة أولا إلى جسدها المغطى بالشراشف.

أزاح الشراشف ورفع غلالتها وبدا وكأنه على وشك أفتراسها، ولا تدري كيف استطاعت أن تمنع نفسها من الصراخ أمام سيل لعابه الهاطل على فخذيها، و صدرها بفمه المعوج المتوتر !

كانت خائفة من ألام لا حد لها ستتعرض لها وشيكاً، لكنها شعرت شعور الشهيدة التي ينبغي عليها أن تكمل المسير في طريق الآلام، حتى تفوز برضائه فتحمي أهلها من بطشه.

أمسك بأصابعه الخشنة جسدها فأنطبعت بصماته على لحمها البض، و

صارت مناطق اللمس أكثر حمرة من غيرها وسمعته يهمس لأول مرة أيسعدك هذا ؟! لم تقل شيئا !

كانت مستسلمة ومخدرة وتنتظر أن ينطلق صراخها دون إرادة منها، رأته يفتح عينيه على سعتهما ويغمضهما، وهو يدس أنفه في شعرها المعطر الناعم وهمس لها :

ـ أعترف لك! نعم أعترف! أنت أول امرأة تلفت أنتباهي إليها! لم يسمع إجابتها، لكنه أحتضنها بقوة وسرعة، فسمع شهقتها مثل خفقة جنح طائر مذبوح في سكون الغرفة وغابتها الوحشية!

-56-

بقي معها على هذه الحال أسبوعاً كاملاً لا يغادر سرير جنته، وكان الطعام يحمل إليهما في أوقات محددة من اليوم، وقد ذاق خلالها جنساً لم يجرب مثله أبداً من قبل كانا شاحبين طوال النهار.

وهو يريد أن يثبت لها انه الفحل الوحيد في العالم والأفضل! وهي تريد أن تبرهن له إنها الأنثى المستسلمة لقدرها الأسود، والتي لا تستطيع إلا أن تعطيه ما يريد دون أن يبدو عليها الضجر أو التأفف أوأظهار الأنسحاق أو الملل.

كانا يشعران أنهما في مباراة لكأس العالم وعليهما أن يحققا الفوز فيها، في البداية كانت تشعر بالألم و الدونية لكنها في اليوم الثالث أعتادت كل ما يفعله بها، و شعرت بلذة خارقة فيما يفعلان، و أستطاع بسهولة أن يفجر فيها من ينبوع الأنوثة الحقيقية ما كان خافياً عليها في جسدها وعواطفها، وجعلها تتذوق لأول مرة في حياتها ذرى المتعة الجنسية الأنثوية!

وأخذ يخطط للبقاء عاماً كاملا على هذه الحال دون أن يهتم لكل الأنباء التي تأتيه وهو في غرفة لذائذه، والتي أبلغته في إحدى الليالي أنكسار جيوشه المقاتلة وأندفاع القوات المعادية إلى الجنوب صوب مدينة البصرة بحشود مرعبة، أرعبه ذلك الخبر، وجعله يخرج من تلك الغرفة المسحورة مترنحاً، وفي رأسه تنمو صورة حوريته، التي لم يخلق مثل حسنها في البلاد، والتي لا يستطيع أن يمل أو يضجر من التمدد معها أبداً في ذلك الفراش الوثير...

ذلك القصر ذاته ظهر داخله وخارجه على كل شاشات التلفزة العالمية ولجنة من الأمم المتحدة تبحث عن مخططات الرئيس السابقة لمدفعه العملاق.

وتبحث عن مخططات أجزاء ذلك المدفع، التي أخفاها تحت سرير عشقه ذاك، طبعا لم تكن الحورية موجودة..

كانت غرفة النوم تلك محاصرة بزهورها الوحشية وعدسات الكاميرات! وأظهرت الشاشات التلفزية موظف الأمم المتحدة، وهو ينحني تحت السرير، ليستخرج جزءاً صغيراً كهربائياً من ذلك المدفع العملاق ومع ذلك الجزء الصغير وردة ذابلة.

كانت الوردة تحت السرير قطعتها من غصنها فيما مضى الحورية، و سقطت منها إلى تحت السرير، فلم تكلف نفسها إخراجها من مكانها ذاك حتى جاء موظف الأمم، لتحكي لنا تلك الوردة الذابلة قصة ذلك العشق الآثم القديم.

-57-

كان حسن يضع خطته الجديدة لأغتيال الرئيس قبل أن ينام، فهو يأخذ بالتفكير بتلك الخطة طويلاً بكل تفصيلاتها وأحتياجاتها.

وحتى الإشكالات البسيطة، التي من الممكن أن تقع أثناء تنفيذها فهو يفكر بإيجاد الحلول المناسبة لها، ويبقى هكذا كل ليلة يفكر حتى يغلبه النوم والإجهاد وقد اعتاد ذلك السلوك منذ فترة طويلة حتى صارت فكرة الاغتيال حبته المنومة التي يأخذها كل ليلة قبل النوم وبالرغم من بعد المسافة بين الموصل وبغداد.

وكذلك اختلاف الأشخاص والأمزجة وطرائق التفكير فقد كان في بغداد رجل آخر يعمل مدرساً للغة العربية يفكر بذات الموضوع!

وقد أستخدم هذا الضرب من الأنشغال ليجلب لنفسه النوم الهانئ بعد إحباطات النهار المؤلمة، و أستمر هكذا سنوات كثيرة دون أن يجرؤ على أخبار زوجته بما يفكر به أو يخطط له بالرغم من أنها شاطرته الحياة لمدة ثلاثين عاما بكل مسراتها وأحزانها.

وطيلة الوقت كان يكبح داخله رغبة مصارحتها بما يدور في رأسه بسبب نيات، وأفكار وخيالات بوليسية لا سند واقعياً لها وبالرغم من أن حسن كان روائياً وقاصاً ويحسن وضع الخطط المتقنة لتنفيذ عملية الأغتيال إلا أن أستاذ اللغة العربية فاقه في التخيل والتصور، ووضع الخطط الروائية المحكمة.

لم يكن الأول يعرف الثاني ولا الثاني يعرف الأول، و كان بيت الأول يبعد عن بيت الثاني أكثر من أربعمائة كيلومتر، لكنهما حين كانا يأويان إلى

سريريهما في ذات الوقت تقريباً يبدأن بالتخطيط لأغتيال الرئيس.
وفي كثير من الأحيان يقعان معا على خطة متشابهة، وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة فكر الروائي بحفر نفق طويل يوصل إلى قصر الرئيس و على بعد أربعمائة كيلومتر كان الأستاذ عباس منطرحاً على فراشه يحدق في السقف ويفكر بحفر نفق مشابه يؤدي إلى قصر الرئيس، والى غرفة نومه.
وفي اللحظة التي كان فيها الروائي يحفر في الناحية الأخرى ألتقى بالآخر، ورآه يحفز بذات طريقة المدرس المتقاعد جفل أول الآمر وكذلك صار حال الآخر.
وببطء عرف كل منهما هدف الآخر، فضحكا و أخذا يحفران معاً بحيوية أكبر والدموع في عيونهما أما مدرس اللغة العربية، فقد ألتقى هو الآخر بالخيال وبنفس الطريقة بزميله من الموصل.
وتعارفا في الأفكار، قال له انه من مدينة بعيدة وقد قدم لتنفيذ أغتيال الرجل الذي دمر البلاد، و أذل الشعب وعرف منه انه كاتب متحمس من أجل بلادهما.
لم يقل انه روائي قال انه كاتب، وذلك كان قريباً جداً من الحقيقة و وضعا في أيام كثيرة وعلى مدى شهور عديدة الخطط المتنوعة، وكل واحد منهما يفكر بشكل مستقل عن الآخر.
وكلما ألتقت خططهما في خطوطها الرئيسية ألتقيا معاً بالأفكار أثناء التنفيذ! وراحا ينفذاها معاً في الخيال، ولم يعرف أحدهما الآخر قط، لكنهما تعارفا في عوالم نسجها الفكر والخيال، والهدف المشترك، وحين عثر الروائي حسن بعد ذلك على مجموعة من الضباط الوطنيين يخططون فعلاً لأغتيال الرئيس أنخرط في صفوف الثائرين لتحقيق حلمه.
وعندما لم تنجح محاولاتهم، وقبض عليه مع الضباط، وإعدم الكاتب الشاب من دون رفاقه برمية لكلاب الرئيس الجائعة، فمزقته شر تمزيق.
عندها تشوش تفكير المدرس المتقاعد، و أخذ كلما تمدد على سريره لينام ويفكر ليأتي بفكرة جديدة للأغتيال كما أعتاد أن يفعل هربت منه الأفكار.
وبقي معلقاً بين السماء والأرض لا يدري ماذا حصل له، ولأفكاره وأخذ يهب من نومه خائفاً، و يبقى يتمشى في الممر الضيق فتنتبه إليه امرأته و تسأله خائفة :
- ماذا جرى يا رجل؟ ألا تنام ؟!

فيقول لها :
- نامي.. أنا لا يأتني النوم.. شيء ما حدث بلبل أفكاري! نامي أنت أرجوك!

فتسأله عما حدث؟ وماذا يعني بقوله ذاك؟ فلا يجيب عن أسئلتها، فتنام و يبقى مستيقظا طيلة الليل.

وفي الصباح يخرج إلى عمله الجديد بعينين حمراوين لم تذوقا طعم النوم، كان يبيع الكتب القديمة في دكان صغير وسط بغداد، وكانت من بين الكتب التي يبيعها رواية قصيرة، لذات الكاتب زميله في محاولات الأغتيال.

كان يشعر بأنجذاب غريب لتقليب تلك الرواية! بالرغم من أعتقاده الراسخ بأن كل روائيي البلاد والشعراء، هم من ذات نسيج الرئيس و نظامه وحزبه، مما ضاعف كرهه لكتاباتهم إلا أنه مدَّ يده و أخذ الرواية و بدأ يقرأ صفحتها الأولى.

فقرأ شعاره الأثيرالذي يردده دوماً: " تحيا الحياة" وهو يعرف أن من يعرفه من الأصدقاء يسميه بهذا الشعار!

فيقولون بينهم " أني ألتقيت اليوم بتحيا الحياة، وحادثته حول كيت وكيت، فيفهم السامع أنه يقصد صديقهم المدرس المتقاعد " لترديده الجملة طوال يومه بسبب أو من دون سبب.

فقط ليزرع الأمل في نفسه والناس، ويطرد اليأس مما يعيشه الجميع من ظلم، ولكن من أين عرف هذا الكاتب، الذي يعيش في محافظة بعيدة شعاري الأثير؟ الذي يعطيني بعض السلوى وأنا أعاني مع الناس حكم الطاغية.

فقرأ بشغف الصفحة الثانية والثالثة عند ذلك شعر بالنعاس الحقيقي، لأول مرة منذ أيام كثيرة.

ونام على كرسيه في دكانه، فرأى في الحلم صاحبه في خطط الأغتيال و ذئاب متوحشة تتبعه ورآه يسقط والذئاب تنهشه! ممزقة جسده، وسمعه يطلق صرخات عالية، ويهتف " تحيا الحياة ".

أستيقظ مرعوباً وتعوذ من الشيطان، أكمل قراءة الرواية وصار بعد ذلك اليوم دائم السؤال عن كاتب تلك الرواية، وعرف أخيراً انه أعدم قبل فترة قصيرة! بسبب محاولة فاشلة لأغتيال الرئيس.

فعادت إليه حالة القلق وعدم النوم من جديد وقرر أن يترك البلاد ويهاجر إلى بلد آخر يجد فيها السلام والأمان، فباع دكانه بسعر زهيد و

كذلك سيارته القديمة وأجهزة بيته الكهربائية وملأ شوالاً من الأوراق المالية من العملة الوطنية، وقدم ذلك المال لمكتب الجوازات ليسمح له بالخروج من الوطن كضريبة خروج فرضها الرئيس على المواطنين.

وسافر بعد ذلك إلى الأردن ومن هناك طار إلى تونس بما تبقى له من مال وسلك بعد ذلك الطريق البري حتى وصل ليبيا، وقدم طلباً للعمل في إحدى المدارس الثانوية الليبية البعيدة عن العاصمة.

ولم يصطحب معه من الكتب غير رواية ذلك الكاتب المعدوم، شريكه في وضع الخطط الليلية! ولأول مرة وضع الرواية أمامه، وقلب صفحاتها، و أنفجر باكياً! وهو يقرأ في إحدى صفحاتها: قال تحيا الحياة مع نفسه بصوت مسموع :

- كان من المفروض أن أشاركك المصير ذاته مثلما كنت أفعل معك ذلك طيلة سنوات الأحلام، و ها أنا أفر كالفأر تاركاً الكلاب المسعورة الجائعة تنهش لحمك، آه يا صديقي، الذي لم أتعرفه إلا في الحلم!

ومن جديد أخذ يبكي على نفسه وأطفاله وزوجه ووطنه! وذلك الرجل الذي لا يعرفه، الذي شاركه أفكاره وقتل من أجل الناس دون أن يشعر به أحد أو يرثيه أحد!

-58-

عندما ذهب جدي وبصحبته أخويه لزيارة أقرباء لنا في النجف المقدسة، للتوسط عند شيخ مجتهد في الدين، ليذهب بدوره إلى نائب رئيس الجمهورية، ليطرح عليه مظلومية أبي السجين.

الذي كان مسجوناً بلا ذنب ولقدر المجتهد الكبير عند الناس والحكومة، فقد اعتقد جدي انه سينال بغيته ويحصل على عفو عن أبنه ويطلق سراحه من سجنه، حالما يتبنى ذلك الشيخ المجتهد هذا الموضوع، و يطلبه من نائب رئيس الجمهورية للنظر في قضية أبي!

وعند وصولهم إلى النجف المقدسة، وجدوها في أضطراب شديد! والناس في الشوارع في هياج شديد ولا عمل لهم غير الكلام !

والدكاكين مغلقة فيما يشبه الأضراب العام، وثمة لافتات سوداء مرفوعة فوق الدكاكين تطالب بالحرية لشيخ المجتهدين ذاته، الذي كانا يقصدانه!

وحكى لهم قريبهم، الذي أستضافهم في النجف تلك الليلة قصة ذلك الشيخ و سبب أضطراب المدينتين المقدستين كربلاء و النجف قائلاً :

ــ حين آمر نائب الرئيس باعتقال ذلك الشيخ المجتهد قبل مجيئكم بليلة بسبب علو صيته، وأجتهاده في الدين، وشعبيته الواسعة بين صفوف الناس!
أضطربت المدينة وهاج الناس، وأغلقوا دكاكينهم وتوقفت الحياة تقريباً.

-59-

نظر بوجهه مدير الآمن العام، ليتأكد من صحة الآمر الذي سمعه، فقال نائب الرئيس :
ـ أني أعني ما أقول!
فإجابه :
ـ يا سيادة النائب سيهب الناس بوجوهنا!
ـ الشعب معنا ألا تعرف ذلك ؟!
ـ اعرف ذلك يا سيدي ولكن هذا الرجل صار جزءاً من عقائدهم؟
ــ ولهذا السبب بالذات أريد رأسه!
ـ بالصبر وحده يا سيدي نصل إلى هذه النتيجة حتماً.
ـ ثورتنا لا تعرف الصبر مع الرجعيين!
ــ لنجرب في البداية المسايسة.. سنستدعيه إلى مديرية الآمن ونرى ردة الفعل الشعبية .. سنجس نبضهم!
ــ بالرغم من أني لا أومن بطريقتك في التصرف لكني أملك الصبر اللازم لأرى نتائج ما تفعله!
وأستدعي الشيخ المجتهد إلى مديرية الآمن، وكان بالفعل الرجل النابه الذي استطاع أن يحل إشكالات الفائدة في البنوك الإسلامية، وأستطاع باجتهاداته وتوصياته ومؤلفاته أن يؤسس الصيغ القانونية للبنك الإسلامي في أكثر من قطر عربي.
كما أنه وحد الكثير من الحركات الإسلامية المتفرقة في جماعة واحدة مهمة، أخذت الدولة تحسب لها ألف حساب، وعرف الناس بأمر هذا الأستدعاء، فخرج مع الشيخ أكثر من مئة وأربعين ألف من الأتباع غير النساء و الأطفال...

-60-

كانت مظاهرة كبيرة، صامتة مرعبة دخل الشيخ المجتهد بناية مديرية الآمن وبقي الناس ينتظرون خارج البناية.

أصيب مدير الآمن بالمحافظة بالهلع من هذا العدد الكبير فاتصل بمديره في العاصمة، فاتصل بدوره بالمدير العام، فاتصل الأخير بنائب الرئيس :

ـ تبعه أكثر من مئة ألف مواطن!

أجابه بفرح :

ـ هذا ممتاز ألتقطوا الصور لرؤوس هذا الجمع الكبير!

ـ فعلنا ذلك سيدي!

ـ ألتقطوا المزيد من الصور واطلبوا منه أن يملأ استمارة معلومات!!

ـ سنفعل... و ماذا نفعل بعد ذلك ؟

ـ أتسألني؟ أطلقوا سراحه وليرجع مع حاشيته ورجاله معززاً مكرماً، حتى نرى بعد ذلك ما سنفعله مع أنصاره و مريديه! مائة ألف هذا جيش كامل.

ـ وإذا رفض التوقيع على الاستمارة؟

ـ حتى لو رفض أطلقوا سراحه واعتذروا منه؟ مبررين كل شيء بأن ثمة خطأ قد و قع.

ـ آمرك سيدي!

-61-

رفض الشيخ المجتهد أن يوقع الاستمارة المقدمة إليه، فأعتذروا منه بصفاقة، وودعوه حتى باب مديرية الآمن وشيعه الناس فرحين إلى داره وهم يهتفون بحياته وبالإسلام دين الحق ويصلون على محمد وآل بيته الطيبين الأطهار.

وقد لاحت على قسماته أمارات النصر وكبرياء المجتهد، الذي رفض أن تذله السلطة الغاشمة!

وفي مديرية الآمن العامة في تلك الليلة كان العمل يجري على قدم وساق لتحميض الصور الملتقطة لمريدي الرجل ورؤوس جماعته وإظهار الصور بأكبر وأفضل وضع ممكن وبعد ذلك يتم التعرف على الأشخاص الرئيسيين في ذلك الجمع الجماهيري، ومن ثم يتم تحديد عنواناتهم و أماكن تواجدهم، ومقرات أعمالهم.

وخلال أربع وعشرين ساعة تم اعتقال أكثر من ألفين من رؤوس المتعاونين مع الشيخ، وتم في الشهور التالية أغتيال عدد منهم دعساً

بالسيارات المسرعة في حوادث مرور متفرقة بواسطة رجال سكارى.
أو قتلوهم رمياً بالرصاص بواسطة رجال أمن يتصنعون الجنون وقد تركت بأيديهم بنادق سريعة الطلقات.
وقتل القسم الآخر حرقاً في بيوتهم مع أطفالهم، ونسائهم بأنفجار عبوات غاز الطبخ أو زرقا بإبر مسمومة تقوم بها مجموعات ترتدي زي الممرضين، والممرضات في مفترقات الطرق وقريبا من بيوت المجني عليهم، وعند نواصي دكاكينهم وأبواب الجوامع.
كما أن فرق مكافحة الكلاب السائبة نشطت فجأة في المدينة المقدسة و ظهرت في الشوارع بأعداد كبيرة وأخذت تقتل خطئاً إثناء مطاردتها للكلاب الرجال المطلوبين، وكانت هناك فرق أمنية أخرى تقوم بإطلاق كلاب مصابة بالسعار من أقفاص تحملها سياراتهم.
بعض رؤوس مجموعة الشيخ المجتهد وهم يمرون إلى دورهم، وفي الأربع والعشرين ساعة ذاتها كانت فرق لشرطة الأخلاق تطارد أربعة ألاف من التابعين الأقل خطراً من المجموعة الأولى، وتليها في الأهمية.
وكانت التهم تلصق بهم جزافاً، كشتم الرئيس الدولة أو الأنتماء إلى حزب معاد أو يعتقلون بتهمة اللواط، وجرائم الزنا بالمحارم.
ولا يدري المتهم من أين تأتي الشرطة بالمجني عليهم، ليتهم ببرودة أعصاب المقبوض عليهم والمتهم لم ير المجني عليه، طيلة حياته أو يلقى عليه القبض بتهمة المقامرة في أمكنة غير مرخصة أو بسبب تطويل اللحية أو الغمز لأبنه الجيران أو بالرشوة وخيانة الحيازة المالية بالنسبة للموظفين، وأخذت سيارات الموطا تقوم بواجباتها الأمنية.
وشرح ذلك القريب لأجدادي ما تعني تلك السيارات المشبوهة، قائلا أنها سيارات مغلقة لنقل المثلجات ويستخدمها رجال الآمن لنقل السجناء السياسيين من محافظة إلى أخرى ومن سجن إلى آخر دون أن يشعر احد ما بداخلها !
وأكمل ذلك القريب بعد هذا الشرح الوافي عن سيارات الموطا سيئة الصيت، التي أخذت تزيد من نشاطاتها بين النجف المقدسة والعاصمة حتى أن احد رجال السيطرة في بوابة بغداد قال متعجباً وهو يرى هذا العدد الضخم من شاحنات الايس كريم والمثلجات الموصدة الأبواب تدخل بغداد و تخرج منها في كل ساعة.
فتساءل بسخرية:
ـ وأين هي الموطا؟ والمثلجات ؟! أننا نرى شاحناتها فقط ! أما هي فلا

نجدها في الأسواق!
وتمت المرحلة الأولى من العملية وقد اشرف نائب الرئيس عليها بنفسه واتصل بالمدير العام للأمن العامة وأمره :
ـ الآن أطلب من شيخنا العزيز! أن يشرف إلى مديرتكم من جديد لنرى نتائج ما فعلناه!
أستدعي الشيخ المجتهد مرة أخرى، فتبعه عشرون ألفاً ووقفوا أمام المديرية وأفترش بعضهم الشوارع الخلفية وأندس بين جموعهم رجال الآمن وشاعوا بينهم :
أن الرجل سيتأخر بعض الوقت في المديرية ومدير الآمن يريد أن يسلم عليه قبل أن ينقل إلى دائرة أمنية أخرى ولإجراء بعض الاستفسارات منه حول أوضاع الناس.
وتأثر بعض الناس بتلك الإشاعات وتفرقوا وما أن حلت الساعة الثانية عشرة ليلاً عندها لم يبق منهم قريبا من مديرية الأمن سوى خمسة ألاف! نقلت برقية إلى العاصمة خبر ذلك فجاء الجواب سريعاً، أطلقوا سراحه الآن.
فأطلقوه وخلال الأربع وعشرين ساعة التالية تم اعتقال أكثر من ثلاثة ألاف إنسان!
فكثرت الأحزان وضجت المدينة بالبكاء حتى أن احد شيوخها المسنين تساءل في إحدى التجمعات :
ـ ماذا جرى لناس هذه المدينة؟ أهو غضب الله قد حل عليهم أم امتدت إليهم يد الشيطان؟ فقبل ساعة كنت في معزى الشيخ سعدون، الذي انفجرت في بيته قنينة غاز! وفتكت به وعياله وأطاحت بيته من أساساته والآن أتاني خبر سيء عن ناجي الحسيني، فهو في حالة خطيرة بسبب مس كهربائي في باب داره الحديدي، وقد جعل من يدخل بيته تصعقه الكهرباء غير هؤلاء الذين اعتقلتهم الدولة جهراً، أخبروني ماذا جرى في العراق لتحدث لنا كل هذه المصائب مرة واحدة ؟!
كثرت الأحداث المؤسية في المدينة وكانت محاضرالشرطة تختم فقراتها بعبارة حدث ما حدث قضاء و قدراً!
وكان المحافظ يزور المعازي ويحمل أفراد حمايته خروفاً أو خروفين للمعزى، حسب علو صيت الميت، وعلو شأنه، وعدة أكياس من الرز و السكر وعلب الدهن وصناديق الشاي مع إكرامية مالية كبيرة لصاحب المعزى.

مما يجعل كبار السن الحاضرين في المعزى يرفعون رؤوسهم إلى السماء حامدين الله على فضل الحكومة، ومتمنيين للسيد الرئيس و نائبه عمرا مديداً!

في المرة الثالثة حين استدعي الشيخ لم تحضر معه إلى دار الآمن سوى أخته الشابة وبضعة رجال من المقربين، فرحب مدير الآمن به.

ووضع رجال الآمن في أيدي الحاشية المرافقة للشيخ القيود الحديدية و شحنوا في سيارة موطا عتيقة إلى مكان مجهول.

وحين عرف أهل المدينة بأن شيخهم قد ألقي القبض عليه هذه المرة حقيقية، وليس مناورة كما تفعل الحكومة في كل مرة، فهبت عن بكرة أبيها وأحاطت بالمديرية شيوخاً وشباباً ونساء، وأطفالاً بالرغم من أرتدائهم ملابس الحداد على أقربائهم المعتقلين والمقتولين.

واخذ قسم كبير من الحاضرين يرمي بناية المديرية بالحجر وعلب الصفيح والمشاعل النفطية التي أبتكروا صناعتها في دور قريبة من المبنى الأمني.

وأستمر توقيف الشيخ ثلاثة أيام أخرى، والناس لا عمل لهم غير إحاطة المبنى وأطلاق الشعارات المعادية للحكومة، وتكديس القناني الفارغة لغرض صناعة المشاعل النفطية، وجمع الحجارة من بناية قريبة منهارة لأستخدام تلك الحجارة في المعركة المحتملة مع شرطة وحرس مديرية الآمن.

وسؤال كل داخل إلى تلك المديرية من المعارف العاملين في سلك الشرطة والآمن والخارج منها عن حالة شيخهم الصحية وهل يعامله رجال الآمن معاملة حسنة فيأتيهم جواب و احد لا غيره:

- أنه بخير وقد أحضر لأمر خاص بالحكومة وسيطلق سراحه عما قريب!

وعندما يئست عيون الدولة من انصراف الناس السلمي أخبرت القيادة بذلك فأمروا بوضع الرجل، وأخته في سيارة مدير الدائرة الأمنية و أعادوهما إلى دارهما وأقاموا عليهما الحجز في دارهما.

ووضعوا عدداً كبيراً من رجال الآمن حول البيت وداخله يمنعون الناس من الاتصال بالرجل أو مخاطبته واطمأن الناس إلى رجوع شيخهم إلى داره حيا يرزق وانفضوا إلى بيوتهم وأعمالهم.

وكل يوم تقريباً يبعثون من يتقصى رجال الآمن المحيطين بالبيت ناقلين للناس أخبار سيارة المسواق وهي تدخل كراج البيت حاملة الخضار وما

تحتاجه عائلة الشيخ.
وعندما كانت العيون ترى ذلك وتبلغه لكبار أهل المدينة وشيوخها فيتنفسون الصعداء، و يمضون إلى أعمالهم مطمئنين على صحة الشيخ الكبير المحتجز في داره معتقدين، أنه كان يأكل ويشرب ولم يكن أحد يعرف أن الحكومة خدعتهم ونقلت في سيارة مدير الآمن رجلاً من الآمن يلبس جبة الشيخ ويضع لحية مستعارة وعمامة الشيخ ذاته مع واحدة من حزبيات الحكومة على أنها أخت الشيخ بينما في حقيقة الأمر أن الرجل و أخته نقلا سراً من باب مديرية الآمن الخلفي في ساعة متأخرة من تلك الليلة ذاتها إلى بغداد.
وقابلهما نائب الرئيس وآمر رجاله بالقيام بالواجب مع الشيخ وأخته، فقيدوهما إلى كرسيين ووضعوا في فمي الرجل وأخته قمعين وملئوا لهما جوفيهما بالبانزين، وحين امتلئا تماماً أطلق عليهما نائب الرئيس الرصاص من مسدسه فانفجرا كقنبلتين.
وسقطت بقعة دم كبيرة على حذاء نائب الرئيس، وفي المدينة لم يكن احد يعرف أن هذه الولائم ورائحة الشواء، التي يشمونها عندما يعودون من أعمالهم، والمنبعثة من دار الشيخ هي في حقيقة الأمر ولائم يعدها رجال الآمن الساكنين الجدد في الدار، محتفلين بالإكراميات الضخمة التي قبضوها من الدولة جراء أشتراكهم في حملة التطهير الدموية التي تعرض لها أهل المدينة المقدسة في الفترة الأخيرة.
وجزاء لجهودهم الكثيرة التي بذلوها لإخفاء آثارعملية القبض على الشيخ وأخته.
وهنا انفجر الرجل بالبكاء وشاركه جداي وعلا النحيب من أهل الدار على المصير الذي آل إليه شيخهم، وعلى محنة أهل المدينة في تلك الأيام العصيبة..

-62-

منذ تلك الليلة التي أعطت العجوز الدميمة فيها الحصاة المسحورة التي إذا فركها المرء وطلب شيئاً تحقق، ولو بعد حين فهم سليبا أن في العالم غير المرئي أقوياء آخرين لا تلحظهم العين البشرية.
وينبغي للمرء الطموح تعرفهم ووضعهم في جيبه للاستفادة من قوتهم وكيدهم ومن يبحث عنهم يجدهم وبقي ذلك الحلم يراوده فترة طويلة من الزمن.

وحلم برؤية مجمع من السحرة يرى عجائبهم ويفرح بتنبؤاتهم ويأنس برأيهم، وعندما صار نائبا للرئيس السابق آمر بالاتصال بكل من يهمه هذا النوع من العلوم، وأصحاب الخوارق العجيبة..

في البداية جلبوا له المشايخ الذين يضربون بالسيف، ويشقون الرجل إلى نصفين ثم يعيدون لصقه ببصاق شيخهم، ويطعنون بالحراب المدببة فتخترق البطون دون أن تترك أثراً وراءها عند خلعها.

ولم يعجبه هذا الضرب من السحر وأتوا له بالرجال الذين يقرؤون بألسنتهم فتظهر الأرواح، فيسألونها عن أسرار الماضي والحاضر فتجيب فقال لهم لا بأس بوجودهم، وانتخب أكثرهم علماً بصنعته وأمهرهم حيلة بفنه.

وقال لتابعيه هل هناك من مزيد؟ فأتوا له بالمنجمين الذين يعرفون أبراج الناس من خلال النجوم، والكواكب وتحركاتها وأنعكاس تأثيراتها على سلوك الناس.

فقال لا بأس بوجودهم وأنتخب منهم أكثرهم علماً بصنعته وأمهرهم حيلة بفنه، وسأل أعوانه مجدداً هل هناك من مزيد وأتوا له بمجموعة أخرى مهيمنة على قبائل من الجن وهي جماعات من الجن تعيش في طبقات الجو المختلفة، وقبائل أخرى من الجن تعيش في المقابر والخرائب والمناطق الموحشة.

وتكمن قوة الساحر ومقدرته بعدد الذين يتبعونه من الجن ودرجاتهم كملوك وأمراء وشيوخ قبائل أو أفراد عاديين من الجن، فقال هذا مدهش مرحباً بكم.

فجمع أكثرهم أتباعاً وشيعاً من أهل الجن، وقال هل من مزيد قالوا مرتبكين هناك غيرهم أكثر خبرة من هولاء جميعاً.

ـ ولما لم تجلبوهم؟

ـ طلبوا منا أمراً.

كان الرئيس يحترم في قرارة نفسه من لا يذعن لأوامره بسرعة

ـ وماذا طلبوا؟

أن تعيد بناء مدينة بابل القديمة، وتعيد آثارها الدارسة إلى الوجود كما كانت من قبل.

ـ وما علاقتهم بخرائب بابل؟

يقولون أن ملكيهم هارون وماروت مقيدان في إحدى آبار هذه المدينة

ـ سأعيد بناء تلك الخرائب هذا وعد!

وتساءل من جديد:
ـ وهل هناك غيرهم؟
ـ أنهم جماعة صاحب الطاووس!
وكانت تسميتهم لهؤلاء لها وقع شديد في نفسه فقال:
- هاتوهم لي بسرعة!

وأعطى أوامره بعد ذلك بأن يعطى كل من أنتخبه أو قرر مجيئه منحة مالية، ويُعين بدرجة مستشار دولة، واختار لجمعهم بناية لتكون مركزاً لنشاطهم وأبحاثهم، ويخدمهم فيها سعاة وخدامون.

وتوفر لهم الدولة ما يحتاجونه من أعشاب وأنواع البخور وحاجاتهم الأخرى، التي يحتاجونها في عملهم ، وطلب من احدهم أن يسجل قائمة ما يحتاجونه.

فسجل الكثير من أنواع الأعشاب وأجزاء صغيرة من عظام الهدهد وإضلاع الذئب، وعيون النسور، ومرارات الأسود، وعاج الفيلة ورصد الرئيس لدائرتهم أموالاً طائلة.

وبعد ذلك جعل عليهم وزيراً أختاره من بينهم ووكيلاً أقدم ومدراء عامين، وجهزهم بكل ما تتطلبه الإدارة الحديثة من تنظيمات وأجهزة اتصال وطرائق اوتوماتيه لحفظ الملفات ومخازن لحفظ المواد والأجهزة.

وسمى وزارتهم (وزارة التكامل العلمي والبحث والتطوير) ونظراً لطول الأسم فقد أكتفى الموظفون بتسمية وزارتهم بوزارة البحث والتطوير، وحدد الرئيس يوماً لبدء الوزارة مهماتها بشكل رسمي..

-63-

كانت الأسئلة والاستفسارات تجيء من مقر الرئيس مباشرة، فتدخل في فوضى الوزارة، وقد كان الطابق الأول من البناية مخصصاً لأصحاب الطاووس.

فتراهم في أروقة الطوابق بملابسهم الزاهية بألوان الطيف الشمسي، وعلى رؤوسهم عمائم ثبتوا في أعلاها ريش الطاووس الملون، وأيديهم تلوح بمنشات كالإعلام الصغيرة.

ولديهم مثل لاقطات صوتية صغيرة يتصلون بواسطتها بالطاووس الأكبر ولا يستطيعون الجلوس في غرفهم، لأنهم مضطرون طيلة الوقت لمتابعة أولاد الطاووس الكبير العابثين في الممرات، ودورات المياه، وفتحات غرف تفتيش المجاري، وسقوف الزوايا، وفي الطوابق المتعددة في

البناية.
وفي الطابق الثاني ترى جماعة هاروت وماروت، وقد أطالوا لحيهم ووضعوا المئازر البيض على رؤوسهم وأمسكوا مركوباتهم بأيديهم وتركوا مكاتبهم، وجلسوا على الأرض يطرقونها بحصى كبيرة للإتصال بهاروت وماروت.
وقد علقوا على حيطان مكاتبهم صوراً خليعة لنساء ورجال يندى لها الجبين، وتعافها النفوس لفرط بذاءتها.
ووضع أستوديو القصر الكبير لطبع وتحميض الصور البذيئة بالحجم الطبيعي تحت تصرفهم لحين أستيراد المكائن، والمعدات الحديثة اللازمة لهذا العمل، لافتتاح الأستوديو الخاص بالسحرة.
وكانوا يطالبون القصر بالمزيد من الصور المكبرة وبالألوان الطبيعية لنساء ورجال عراة لتحديث وسائلهم بالاتصال.
ويلي ذلك الطابق الثالث الذي امتلأ بأقفاص الطيور من كل نوع: الهدهد، الصقر، ألباز، الزرزور، الخفاش ،وأنواع أخرى أكبر حجماً جلبت من أهوار الجنوب.
وقد تم إرسال طلبات كثيرة إلى دول افريقية وتم فتح أعتمادات مالية في تلك الدول لأستيراد المزيد من الطيور النادرة، التي تستخدم عظامها ومخالبها وعظام صدورها ومفاصلها في أعمال السحر والتنبؤ.
وفي بعض الأحيان يؤخذ العظم من الطائر، وهو لايزال حياً فيبقى متألماً حتى يموت ...
في الطابق الرابع ينتابك الرعب من الأرواح المحضرة، والتي تظهر كسحابات صغيرة ملونة حمراء وخضراء وبيضاء أو كظلال بشرية وثمة أرواح لم يكتمل تحضيرها لأنتهاء الدوام في الوزارة.
فبقيت كدخان أحمر ينتشر ويتجمع في حركة مضطربة وتأخذ وضعاً دورانياً كما سورات النهر الجاري.
وتدهشك الأصوات الغريبة، التي تسمعها والنداءات والآهات والصرخات والقهقهات.
وفجأة ينفتح احد أبواب الغرف فترى احد الموظفين بدرجة مدير عام وبيده مقشة مخلوعة من كثرة الأستعمال منفوشة وهو يطارد بها روحاً جاءت إلى مبنى الوزارة بالخطأ.
وتسمعه يقسم عليها بأغلظ الأيمان بانه سيحرقها أن لم تغادر البناية حالاً وبدا عليه بعد دقائق من التوسل انه فقد أعصابه تماماً وأن الروح

ترفض العودة وهي ترجوه أن يعطيها الفرصة بالبقاء.

لكن توسلاتها كانت بلا جدوى، وعندما يشعر الموظف أن كل شتائمه وأسماء ملوك الجان، ومشايخهم لا تجدي نفعاً في طرد تلك الروح الغريبة يضطر إلى استخراج علبة كبريت من جيب سترته، ويقول كلاماً غريباً، ويرمى بعود الثقاب المشتعل أمامه فينفجر الهواء القريب من الروح متوهجاً بنور شديد للحظة وينطفئ.

فيهدأ الساحر ويقول لائماً:

ـ أنت الذي اضطرني إلى استخدام السلاح الذري، أنت السبب في الدمار الذي حصل لك.

ويدخل غرفته بعينين مطفأتين ويصفق الباب وراءه بعصبية، وكان السعاة طيلة الوقت في حركة دائبة بين الطوابق ينقلون الأوراق، وحزم الأعشاب تحت آباطاتهم.

ولأول وهلة وأنت في الوزارة تشعر انك في متاهة حقيقية، ولا تعرف ما هي ضوابط هذه الوزارة الغريبة، ولا يستطيع احد من خارجها أن يصل إلى الطابق الخامس من دون أن يفقد عقله، فهي تبدو كمشفى لأصحاب الأمراض العقلية.

ففي طريق المرء إلى الطابق الرابع تبدأ درجات السلم الرخامية وجدران الموزائيك بالكلام والتحرك، وكثيراً ما تسمع الجدار يقول مزحة أو يناديك بأسمك وغرضك من الزيارة.

وتنقلب بلاطات الممشى في الردهات إلى أفاع تدوس بطونها اللينة بقدميك فتضحك عيون متوحشة، وشفاه غليظة تحدثك بعربية فصيحة وأحيانا تتحدث بلغة غربية، لم تسمعها من قبل.

لكنهم يعرفونها وتبدو لسامعها وكأنها أو بعضها لهجات أقوام أقدم من أولئك الذين عاشوا قبل آلاف السنين.

في الطابق الخامس من البناية وضعوا تمثال الطاووس الكبير في نهاية الصالة، ومنه تنبعث زفرة شديدة في أرجاء الصالة، وكان التمثال بمثابة الكمبيوتر الرئيسي الذي يجمع كل المعلومات الواردة إليه من الطوابق الأربعة السفلية.

ويعطي النتائج النهائية إلى وزير البحث والتطوير ولا احد يعرف كيف يلتقط التمثال الورقة من الطابق الأرضي ليدون عليها بقلم أخضر الاستنتاجات الممكنة والمعلومات الضرورية لتقديمها إلى الوزير بشكل مباشر.

ليتخذ قراره كإضافة شكلية وبعد ذلك ترفع إلى الرئيس ليتخذ قراره النهائي.

-64-

كانت تنافسهم في أتخاذ القرارات النهائية وزارة أخرى تقع بنايتها قبالة وزارتهم.
وقد جمعت كل أصناف التخصص العلمي وجمع فيها من كل أختصاص علمي من الكوادر الوطنية، والتخصصات الأجنبية، وجهزت بأفضل الأجهزة ومعدات الاتصال الحديثة.
وارتبطت بالدوائر العلمية في بقاع العالم المختلفة بروابط البحث العلمي عبر مراسلات، واتصالات مباشرة ولم تكن تمر عليها إحصائية أو ظاهرة في مكان من العالم دون مناقشتها بشكل علمي وتستوفى من كل أبعادها وقبل أن يقرر أي شيء بخصوصها.
وفي أحيان كثيرة يقع الخلاف بين الوزارتين حول الكثير من القضايا الملحة، وهذا واقع لا يمكن إلا الركون إليه والرئيس يعرف ذلك وفي الكثير من القضايا التي يقدمها للوزارتين طالبا البت فيها يأتيه الرد مختلفا مائه وثمانين درجة من كلتا الوزارتين.
فيبتسم مسروراً وهو يعرف أن وزارة البحث والتطوير اعتمدت في أطروحاتها سحر الهدهد، وتنجيم المنجمين وإحضار أرواح الأولين وشطارات الجان وهرطقات جماعات هاروت وماروت.
واعتمدت وزارة البحث العلمي على المعطيات العلمية من أرقام وحقائق وتصورات علمية للمستقبل، ودراسة مستفيضة في الأرقام والإحصائيات وواقع الحال، ولئلا يغضب وزارة من أخرى يتخذ في الموضوعات المختلف حولها قرارين مختلفين.
وينتخب خبير لغوي لدمج القرارين المتناقضين في قرار واحد والقرار المتناقض بذاته ينجح نجاحاً منقطع النظير.
وتفرح الوزارتان بان رأي كل منهما قد أخذ بالاعتبار ولولا هذه الحلول المؤقتة لعادت المعارك بين الوزارتين من جديد.
وبالذات بين موظفي الوزارتين المتجاورتين، وعادة تبدأ تلك المعارك بان يبدأ موظفو وزارة البحث العلمي بنعت موظفي وزارة البحث والتطوير بالسحرة والدجالين.
وجماعة وزارة البحث والتطوير تنعت جماعة البحث العلمي بالمثقفين

الجبناء وعبيد السنتمتر والمتر وذيول العار والاستعمار الغربي ومستهلكي المساطر المستوردة وخدم الصهيونية العالمية وقائمة طويلة ومنوعة من الشتائم والسباب البذيء.

ولم تتطور المشادات بين موظفي الوزارتين إلى أكثر من هذا الحد إلا مرة واحدة حين استخدم السحارون وسائلهم، وفنونهم ففاضت مياه المجاري في حمامات بناية الوزارة الخصم وأنخلعت إقفال الأنابيب وتطاير غاز التبريد كالغمامات واستقر عند سقوف غرف الموظفين.

فخرج العلماء والباحثون وعلى رأسهم الوزير وبعد اشتداد الأمر ركضوا إلى خارج البناية وقد لوثتهم قذارات المجاري وأرعبتهم ضحكات الجان وعويل غريب لقرود ضخمة، وكان في مقدمتهم الوزير الذي لا يدري كيف أنفتح سقف غرفته.

وكان وقتها يحدث سكرتيرته ملاطفاً وهو يمسك بأصبعه قماش تنورتها ليعرف نوعية القماش وينظرساقيها الدعجاوين.

ورأى في الوقت ذاته فتحة المجاري الهائلة تنفتح في سقف غرفتها وقاذورات كثيرة تنصب على رأسيهما، ولم تمر تلك الحادثة دون انتقام إذ آمر الوزير المهان مهندسي الصيانة التابعين له بإطفاء أجهزة التبريد المركزية في الوزارة المقابلة، وقلبها إلى تدفئة ورفع درجة الحرارة إلى أكثر من خمسين درجة مئوية.

فحاول السحارون معالجة هذا الخلل في المكائن والآلات، وبكل ما أوتوا من علم وسحر، فلم يستطيعوا زحزحة مؤشر الحرارة الذي يشير إلى الخمسين، وعند ذلك خرجوا من بناية وزارتهم كالنمل الذي سحقت ثقوبه تسبقهم طيورهم وأفاعيهم وحميرهم وزواحفهم، وبقوا تحت شمس تموز المحرقة أغلب ساعات النهار...

وصل خبر الموضوع للرئيس فأوصى بالمصالحة العاجلة، وضرورة التراضي بين الوزيرين، فتم ذلك بعد ساعة تحت شجرة السدر التي تتوسط الساحة بين البنايتين وسط نعيب الغربان ورفيف أجنحة الصقور وتصفيق الموظفين.

وتمت بعد ذلك إعادة وسائل التكييف إلى مبنى وزارة البحث والتطوير فعاد السحرة مع قططهم وغربانهم وثعابينهم والأرواح الملونة التي لم تكتمل بعد تتبعهم وقطيع الماعز الجبلي، وهم يشتمون العلماء والمهندسين وأجهزة التكييف المركزي، وكل من له علاقة بالفيزياء والرياضيات.

وكلما أعاد وزير الحكم المحلي رواية هذه الحكاية التي حدثت بين الوزيرين منذ سنوات على الرئيس غرق الأخير بقهقهة طويلة وعميقة...

-65-

صار سيلبا يد جماعة الضباط السرية وخصوصاً عندما كانوا يقعون في ورطة، فلا يحلها لهم غيره، وعندما يصطدمون بمعارض لا يستطيعون كسبه لجماعتهم، ومن غير الممكن تحييده.
فليس غير سيلبا ليكون له بالمرصاد عند باب بيته أو بين ذراعي زوجته ليرميه برصاصات الموت من مسدس (أبو البكرة) الذي لا يبدله في كل الظروف.
وحين يسأله احد أفراد الجماعة عن سبب تعلقه بهذا المسدس العتيق الماركة؟ يجيبهم هذا مسدس مبارك، وسيبقى معي حتى أقتل أو أموت.
وازدهرت أحوال جماعة العميد هيثم حين أستطاع سيلبا أن يجري اتصالات سرية مع الكثير من السفارات الأجنبية، وكانت هناك سفارة أجنبية لا يبوح بأسمها لأحد ساعدت المجموعة مالياً وتقنياً لفترة طويلة فقد أمنت لهم الاتصال بالكثير من الضباط المعارضين في وحدات بعيدة عن العاصمة.
لم تكن مجموعة الضباط في البداية حزباً سياسياً ولم تكن لديهم أهتمامات سياسية كانوا مجموعة من الضباط، وقسم كبير منهم قد أحيل على التقاعد لعدم الكفاءة أو لتورطهم بفضائح أخلاقية.
وبدأوا بالألتقاء في كازينو قريباً من نهر دجلة يجمعهم الكأس والنكتة وتبادل أطراف الحديث عن أمجاد الماضي ومغامراته، وعادة إذا حصل احدهم على قحبة مميزة، جميلة وصغيرة السن مر على الجماعة في الكازينو ليصاحبونه لتمضية وقتهم.
وتطورت العلاقات بينهم وتشابكت وأخذ الضباط من الرتب الكبيرة يتوسطون لذوي الرتب الصغيرة من أجل الترقية والنقل إلى مناطق قريبة من سكناهم، وإشراكهم في دورات خاصة خارج البلاد.
وكان البعض منهم يهتم ببعض الأمور التي لها قشرة سياسية وربما أخرت ترقية احدهم بسبب أنه قال رأياً مخالفاً لو جهة نظر الحكومة، وهو في حالة سكر.
وكان يمنع على العسكريين الحديث في السياسة، وتحولت هذه المجموعة خلال سنتين إلى مافيا عسكرية حقيقية بعد أن وجدوا يداً طويلة

أسمها سيلبا، ومعه مجموعة منفذة من القتلة، وأصحاب السوابق.
ولا يدري احد كيف جمعهم أو كيف يديرهم فلا شان لأحد بهم المهم كان عندهم انه يزيل الأشخاص الذين يقفون حجر عثرة في طريقهم من الوجود بسرية تامة، وأخذت المجموعة بالنمو السريع يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة.
وبدأت المجموعة تجمع رشى ضخمة من الذين تقدم لهم خدماتها الخاصة، وفاجأهم سيلبا بأقتراحه عليهم أن يكونوا حزباً سياسياً معارضاً للحكومة، فعقدت الدهشة ألسنتهم وأخذ سيلبا ينظر في وجوههم واحداً واحداً.
كان كل واحد منهم قد قدم له خدمة ما فيما سبق، ويملك عنه من المعلومات، والشهادات مما يؤدي به إلى ضياع مستقبله، أن عارض ما أقترحه.
فوافق الجميع على مضض وقال أكثرهم معرفة وثقافة لكن يا أخوان لكل حزب من الأحزاب نظرية وأهداف، وأفكار، وصحافة.
ونحن وهنا ضحك بسخرية مرة لا نملك غير قصص القحاب وولائم الخمر، ومن سيدفع ثمن مشروبنا هذه الليلة؟
وقهقه الجميع ضاحكين من نكتته إلا العميد هيثم، فقد بقي صامتاً، وبعد أن هدأ الضحك والتعليقات، وكان معظمهم يحترمونه لكونه يملك أكبر رتبة عسكرية بينهم.
قال بصوت هادئ:
ـ لن يغطي يا إخوان ذنوبنا غير تأسيس حزب يوفر لنا المبررات لما فعلناه، وما سنفعله مستقبلاً لكن من المهم أن نضع أفكار الحزب وأهدافه وهنا نظر الجميع من جديد إلى سيلبا صاحب الأقتراح.
فابتسم وقال:
ـ في مقاهي علاوي الحلة الكثير من الأساتذة الشيوعيين المطرودين من الحزب الشيوعي يجلسون في المقاهي ليلاً ونهاراً بلا عمل والجوع يكاد أن يميتهم.
وهم يخربشون على الورق طيلة الوقت كما أنهم طردوا من تنظيمات الحزب الشيوعي بسبب اجتهاداتهم المعارضة للحزب، وبعضهم لم ينتم للحزب الشيوعي أصلاً، وعندهم أفكار عظيمة، وليست شيوعية.
وهي أيضا ليست رجعية سنعطيهم المال وسيكتبون لنا أفكار الحزب الجديد، وكل الأشياء المتعلقة به.

وبالفعل فقد ألتقيت بواحد منهم قبل سنة وحاول كسبي لأفكاره، وخصص لي جزءاً من وقته للحديث يومياً عن النظريات والأفكار السائدة وستجدون عما قريب كل شيء جاهزاً قال ذلك بطرقة السمسار الذي سيتحمل كل شيء على كاهله، وهو يعد زبائنه بأن عمله سيكون نظيفاً سأجعلهم يحررون لنا جريدة سرية أيضاً اعتمدوا علي في هذا الموضوع وخلال شهر واحد سنكون حزباً قوياً يسيطر على الشارع.

نظر الحاضرون بوجوه بعضهم البعض غير مصدقين، وكل واحد منهم قال في قرارة نفسه:

ـ كيف لم نفطن إلى هذه الفكرة الذكية من قبل؟

وأنفض الاجتماع بعد أن كلفوا سيلبا بهذا الآمر، وخصصوا له المال اللازم وأغمض سيلبا عينيه في ذلك المساء، وهو يشعر انه تقدم بأتجاه تحقيق هدفه البعيد خطوة كبيرة إلى الأمام...

-66-

بعد شهر واحد على ذلك الاجتماع نزلت إلى شوارع بغداد بشكل سري جريدة صفراء الورق تبشر بميلاد حزب وطني جديد سيقود البلاد من حالة الفوضى، والتخلف والجوع، والتبعية للمستعمر البريطاني إلى الأزدهار الاقتصادي والرفعة الوطنية والكرامة ..

حزب سينقذ الأمة العربية مما ألم بها من محن وأنكسارات، وكوارث وقد أشارت السفارة الأجنبية على سيلبا أن يهاجم الشيوعية في الوطن العربي في أولى مقالات الجريدة، وبمانشيتات كبيرة، وطلبت تخصيص مكان في كل إصدار جديد للجريدة السرية لمهاجمة الشيوعية العالمية لقاء مبلغ كبير من المال.

وسجلت السفارة هذا المبلغ في حساباتها المالية وجعلته على ميزانية الإعلام المضاد للحركة الشيوعية في العالم، وعقدت الدهشة ألسنة المجموعة وهم يرون العدد صفر من جريدة حزبهم الوليد.

وذلك المخطوط الهائل الحجم، الذي يمثل أفكار الحزب، ونظريته في الحياة والسياسة وتخطيطه للأقتصاد ووجهات نظره في الدين والأقليات العرقية والقوميات.

وبرنامج الحزب التثقيفي لأعضائه الجدد وكل المتطلبات الفكرية والتثقيفية لتسيير حزب وطني معارض، وهنا نظر سيلبا إلى المجموعة بعينين تشعان فرحاً وقال :

الآن أصبحنا حزباً ومن هذا اليوم نحن رفاق درب طويل لا يفرق بعضنا عن بعض غير الموت، والحزب عادة يا أخوان يحتاج إلى رئيس وأنا أرشح العميد هيثم لهذا المنصب!

فلم يكن من المجموعة إلا أنها وافقت على الأختيار وأختاروا بعد ذلك لجنة عليا للحزب، ولجنة اقتصادية، وإعلامية، وأخرى لكسب الأفراد أما اللجنة الأمنية للحزب فقد أنيطت مهامها بسيلبا وجماعته.

وأنفض الأجتماع بعد أن أخبرهم عضو لجنة العلاقات، بأنه على موعد مع قحبة أتت حديثاً من الريف.

وبأنها مازالت جديدة حسب قول القوادة وأنه بهذه المناسبة العظيمة يوم تأسيس حزبهم يدعو كل من حضر الأجتماع التأسيسي، وعلى حسابه الخاص الألتحاق بركبه، للذهاب إلى هذه القروية البائسة، التي تركها تنتظر في بيت القوادة على أحر من الجمر.

فضحك الجميع ورددوا قسم الحزب بأن لا يبقى في الوطن فقير ولا قحبة ولاشيوعياً ولامتديناً ولا رجعياً، وفي عروقهم نبض ينبض، وخرجوا من الشقة هاتفين بحياة ريف وطنهم، وجميلاته، وسقوط الحكومة العميلة للأستعمار.

-67-

في البداية لم يجازف أحد من عائلتنا بالتفكير للأنتقام من سيلبا حين كان مسؤولاً أمنياً وعندما صار من رجال حماية الرئيس السابق.

فقد توصلت العائلة في أجتماع صاخب على ألتزام الهدوء، والبحث عن منافذ أخرى للشكوى ضد ذلك السارق.

وحاول أعمامي وجدي رفع العرائض إلى وزير الداخلية في ذلك العهد، والى مكتب الرئيس السابق دون نتيجة، وجميع الدوائر التي أشتكوا فيها أبلغتهم أن لا سجين في الداخلية باسم أبي.

وانه قد أوقف في سجن أبي غريب بأمر جهة غير جهة وزارة الداخلية، وان لا دخل لأحد بأستمرار حجزه وإطلاقه، كما أن ملفه خال من أية تهمة، وأنه لا يُطلق من سجنه في هذه الحال إلا بأمر من المسؤول الذي آمر بإلقاء القبض عليه أول مرة!

وهكذا دارت الدوائر وتقاطعت لتصب في نقطة البداية ونقطة البداية هي سيلبا إبراهيم ذاته، ولم تصب العائلة باليأس ووكلت محامياً بمبلغ كبير لكن المحامي بعد أيام أعاد المال لجدي رافضاً متابعة الموضوع

مدعياً أن لديه أطفالاً يريد أن يربيهم!

وأن التعامل مع أحد المسجونين من طرف الآمن العامة سيعرضه إلى مالا تحمد عقباه، وكلما ذهبوا إلى محام وعرف تفاصيل الواقعة وتحمس لها.

في البداية إصابتهم الخيبة بعد فترة قصيرة حين يتخلى عنها بعد ذلك مدعياً أن ملف المتهم خال، ولا يمكنهم الدفاع عن شخص بلا تهمة.

وعند ذلك تأكدت عائلتنا أن ثمة مسؤولاً أمنياً كبيراً في الحكومة يهدد المحامين الذين نستعين بهم ويطلب منهم إهمال قضية أبي لأنها قضية خاصة بأمن البلاد، ولا ينبغي الخوض بها في المحاكم، وتداول حيثياتها في المجالس.

وتجرأ احد المحامين وسأل جدي أن كان أبي جاسوساً يعمل لصالح إسرائيل؟

فاستغفر جدي الله، وحوقل، وخرج من مكتبه دون أن يجيب عن سؤاله الأحمق.

لقد همس بعد ذلك أبي لجدي وأعمامي في إحدى زياراتهم له في سجنه قائلاً أن السجناء، الذين عرفوا حيثيات سجنه أشاروا عليه بقتل سيلبا ذلك المسؤول الأمني والسبب الأول في سجنه.

وحين ذاك سيُخلى سبيله بعد فترة بسبب أن لا احد سيتحمل مسؤولية بقائه في السجن بلا ملف، وتهمة محددة!

كان خيار أغتيال سيلبا من الأمور الرئيسية التي أخذت تلوح في أفق تفكير العائلة، وقد نوقشت الفكرة من كل جوانبها، وانقسمت العائلة بسبب ذلك أنقساماً حاداً.

فالشيوخ اعتقدوا أن العقاب يجب أن يكون من جنس العمل، وبما أن سيلبا مجرد سارق، وظالم، فلا ينبغي وقوع جرمه تحت عقاب القتل، فالقتل في شرع الله وناموس العشائر يكون جزاءً للقتل!

ولا يصح أقتراف الظلم حتى لو كان خصمك ظالماً، كما أن محاولة أغتيال سيلبا إذا فشلت، فأنها ستعرض حياة أبي في سجنه للإعدام أو في أحسن الأحوال إلى فترة غير معلومة من الأعتقال.

ووقف شباب العائلة بدمائهم الفائرة مع الأغتيال وانحازت جدتي إلى ذلك التيار المتطرف، الذي يطالب بالموت للظالم، وكان أبي في سجنه يغذي ذلك الطرف المطالب بإيقاع عقوبة الموت بذلك الذي كان سبباً في تحطيم حياته.

وقد تضمنت رسائل أبي الشفهية وتوصياته لهذا وذاك من أخوته عند زيارته في سجنه هذا المضمون، وأخذت جدتي تغدي في أعمامي روح الأنتقام لأبي المظلوم في سجنه، ولم يكن قد أمضى أبي في سجنه بعد سوى عام واحد.

وأخذت بين فترة وأخرى تسافر إلى بغداد وبصحبتها أبن من أبنائها وتطوف في الشوارع القريبة من دائرة سيلبا الأمنية.

كانت بالرغم من كبر سنها شعلة متوهجة من النشاط، وقد غذت فيها مشاعرالأم المنكوبة بولدها كل الغرائز الفياضة بالقبح وروح الأنتقام.

وفي جولاتها تلك تضع النقاب حول وجهها، فلا يظهر من ذلك الوجه المخدد سوى عينيها، وتطوف باحثة عن أماكن تطل على مبنى تلك الدائرة وقبل ذلك أخذت كل عنوانات أقاربنا في بغداد.

فدرجة القرابة لاتهمها بقدر أهتمامها بقرب بيت ذلك القريب من دائرة المطلوب لنا، ودون أن يدري احد من أقاربنا بغاياتها الحقيقية كانت تنتقل من بيت إلى بيت باحثة في خيالها عن الأعوان الذين يمكن أن تثق بهم وتبوح لهم بما جاءت من أجله وقت الحاجة.

وهي تقول للرجال حين ينعقد ديوانهم في دار جدي الكبيرة أن أمر تخليص ولدها من سجنه لا يتم إلا على يديها، وأن عليهم تركها لتعمل بهدوء ليروا النتائج الباهرة فيما بعد!

وكان الجميع ينصتون لهذه المرأة العجوز الداهية، وكان جدي يعرف أن زوجته ستفعل ما لم يستطع الرجال القيام به، وفي يوم من الأيام، ويبدو أنها خططت لكل شيء ووضعت في خيالها من يساعدها.

فطلبت من عمي نوري الذهاب معها إلى بغداد كما أنها جمعت مسدسات أعمامي بعتادها وقمطت تلك المسدسات مع مخدة صغيرة، ولفتها بقماش أبيض وجعلتها على هيئة طفل رضيع، لئلا يكتشف ذلك السلاح أثناء التفتيش في القطار، ووسائط النقل الأخرى.

وفي مساء مغبر وضعت ذلك السلاح المقمط تحت عباءة إحدى زوجات أعمامي، وسافروا إلى بغداد، وكانت بين فترة، وأخرى تطلب من امرأة عمي أن ترضع ذلك الشيء المقمط تحت عباءتها، ومناغاته، ومداعبته.

كان المسافرون من حولها يعتقدون أن امرأة عمي تحمل طفلاً حقيقياً وتخشى عليه من عواصف الرمل، التي تجتاح عربة القطار الخشبية، حتى أن رجال الشرطة والأنضباط العسكري الذين فتشوا أمتعة المسافرين مروا مرور الكرام على أمتعة جدتي وامرأة عمي وعمي.

وكان جدي قد أشار عليها بعدم سلوك هذه المغامرة غير المضمونة العواقب، وقال لها أن تستعين بأقاربنا في بغداد للحصول على السلاح المطلوب، لكنها رفضت أن تستعمل سلاحاً غير مضمون لأخذ ثأر العائلة.

وكانت خطتها في تلك المحاولة في غاية البساطة، ينتظر عمي مجيء السيارة الحكومية التي تقل سيلبا، وحالما يترجل من سيارته يأخذ عمي نوري المسدس من زنبيل الخوص، الذي كانت تحمله جدتي، ويشرع أثنان من أقاربنا بإشهار مسدساتهم، وإطلاق النار في الهواء للفت الأنظار عن الفاعل الحقيقي.

ويعيد عمي مسدسه بعد الأغتيال إلى زنبيل جدتي، ويندس في أزدحام الشارع المجاور، وتتبعه جدتي، وتنطلق دراجة نارية من مكان قريب يقودها قريب ثالث، ليستقلها، الحاميان.

ويمر بهما في زقاق أمامي ضيق لا تسلكه السيارات حيث يلتقي الجميع في دار قريب لهم، ماعدا الدراجة النارية التي ستتعرض للتفكيك بعد المحاولة وتباع كخردة في مكان آخر...

-68-

في الليلة التي سبقت التنفيذ أقامت جدتي للذين سيشاركون في تنفيذ العملية جلسة سمر طويلة أكلوا خلالها الدجاج المشوي المحشو باللوز والجوز، والخبز المحمص وشربوا الشاي بالهال.

وهي تذكرهم بما فعله أجدادنا من قبل بحق ظالميهم، وكيف أنهم لا ينسون ثأرهم لمدة أربعين عاماً، وأن نهاية كل حي الموت، ولا يبقى إلا ذكر قصص البطولة والرجولة، وما فعله الرجال خلال حياتهم.

وفي ذلك الصباح الذي حددوه، كانوا ينتظرون سيلبا وعلى وجوههم علامات تصميم لا تلين ببلوغ الأرب.

وكانت جدتي تقف قريبا من البوابة ممسكة بيد عمي نوري، الذي تصنع العمى ووضع على عينيه نظارة سوداء بأنتظار مجيء السيارة، التي تقل عدونا.

وقد كان موعد مجيئه في الثامنة صباحاً والربع ولم يكن من السهولة على القريبين في الجانب الآخر من الشارع التعرف على شكل سيلبا فصورة الجريدة القديمة لم تكن تعني شيئاً.

أما جدتي فان الصورة لا تمثل لها حياً يتحرك ويتنفس كما تراه وجهاً لوجه، لذا فهي استعانت بكل من نعرفهم لتمكينها من رؤية سيلبا، كما هو

في الواقع ودليلها إلى عدوها مقر دائرته وأسمه.
وحين أرشدوها في الأيام السابقة إليه، ورأته عن بعد استمرأت القدوم كل يوم بعد ذلك مع أبنها بأنتظار قدومه، والتحديق إلى ملامحه لحظة نزوله من السيارة، التي كانت تقله والخطوات القليلة، التي يخطوها داخل الدائرة قبل أن يختفي عن الأنظار.
وكانا يحاذران من أن يلفتا نظره إليهما متأكدين من أن أية نظرة شك ربما تجعله يبعث أحداً في إثرهما ليعرف صلتهما بذلك المسجون في سجن أبي غريب، وعندما يكتشف تلك الصلة سيخمن ما كانوا يخططون له، وتكون النتيجة لغير صالح ولدها.
وربما يتسببان في هلاكه واستطاعت مع ابنها أن يحفظا قسماته جيداً ومنذ تلك اللحظة أخذت تردد على مسمع أبنها سؤالاً شديد المرارة:
ـ متى تفرح قلبي يا ولدي برؤية أخيك طليقاً.. أبعد أن يزول هذا الظالم من الوجود؟
وشاءت الأقدار أن لا يأتي سيلبا كالمعتاد في ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي تلاه ولا في اليوم الذي بعده، وكانت جدتي وعمي وأثنان من أقربائنا يودعون في كل ليلة أهلهم ومعارفهم ويأكلون الدجاج المشوي ويشربون الشاي المعطر بالهال، ويحرقون ثلاث علب من السجائر الأجنبية ساهرين حتى ساعة متأخرة من الليل، وكأنهم سينفذون في الغد ما خططوا له لكنهم في كل يوم بعد الظهر بقليل يعودون بوجوه كئيبة، وأرواح خائبة فسيلبا لم يأت اليوم أيضاً.
فيناموَن ظهراً كالقتلى حتى تغيب الشمس، وبدأت جدتي تتقصى أخبار عدونا، فعرفت انه رقي إلى درجة أعلى، وصار مقر عمله قريباً من قصر الرئيس حيث لا يمكن الوصول إليه بالطرق العادية.
وكأنما ضاعت الفرصة من جدتي إلى الأبد، لكنها لم تيأس أبداً حتى بعد معرفتنا أنه صار نائباً للرئيس، وبدأ يظهر على شاشة التلفزيون كل يوم مع حمايته وأتباعه.
وميزة ذلك التأخير أن أفراد عائلتنا صاروا يرون عدوهم كل يوم ويعرفونه إذا ألتقوا به في أي وقت، وتلك كانت فائدة من فوائد تلك الأيام الخائبة المريرة.
كانت الشهور تمضي بسرعة، وأبي الذي أشتعل رأسه شيباً كان ينظر إلى القادمين مرحباً غير مصدق أن ثمة عالماً في الخارج يعيش حياة الحرية بلا قيود، ولا أوامر، ويستطيع فيه الناس أن يذهبوا إلى دار الخلاء

في أي وقت يشاؤن من دون تحديد ذلك بوقتي الصباح والمساء.
وصار أكثر حباً للحياة ويفكر بجزئيات الحياة خارج السجن، ويسأل عن أخبار ذلك العالم المفعم بالحرية قائلاً في كل مرة نزوره فيها عن السجن أنه مقبرة الأحياء.
وطاش عقل جدتي، وصار شغلها الشاغل الأنتقام حتى أنها نسيت مواعيد زيارات أبي في سجنه، وكان أجدادي، والمحامي يأتون من البصرة لزيارته.
ولا يرون جدتي في باب السجن عند كل زيارة كما اعتادوا من قبل حتى أن الظنون ساورت جدي متذكراً تلك الصغيرة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها حين تزوجها!
والتي كان يخطب ود أبيها العرسان من كافة العشائر لملاحتها، وخفة دمها، وكيف أنه في أيام الزواج الأولى حين كان يجاريها ألعابها في غرفة عرسها.
وهرش لحيته البيضاء، وهو يتذكر تلك الأيام الحلوة، ولم يطلع احد من إخوته وأبنائه على شكوكه وذكرياته!

-69-

حالما أنتهت الزيارة طلب من أبنائه أن يأخذوه إلى الأقارب الذين يبيتان في دورهم جدتي وعمي نوري، وكان أخواه الأصغر سناً منه يضحكان من غيرته الحمقاء، وخلو باله، إلا من هذه السفاسف.
وعدم معرفته زوجه بعد هذا العمر الطويل، الذي قضاه معها، وكان ينصت لضحكهم من وساوسه، لكنه كان يجيبهم أنه قلق على صحتها، فهي امرأة كبيرة، وتبذل جهداً كبيراً وتقوم بعمل عجز عنه أصحاب اللحى الكثيفة الوسخة غامزاً أخويه الملتحين!
فيضحك أخواه من أشارته إليهما، ويعاودان السخرية منه، ومن غيرته الحمقاء، وحالما يرى جدتي تتبدد شكوكه، وتدمع عيناه ويبكي معها من أجل ولدهما المسجون ظلماً تاركاً زوجته وأبنه.
ويصغي أخوانه وأولادهم لبكائهما، الذي يذيب أشد القلوب قسوة ولا يجرؤ احد على مقاطعة هذا البكاء، مكتفين بلف لفافات التبغ، وتدخينها.
ومر أبي السجين بعد ذلك بمرحلة أخرى توقف فيها عن السؤال، عما يدور في الخارج، وترك لحيته تطول وأمسك بمسبحة سوداء من ذلك النوع، الذي يستخدم في التسبيح بعد الصلاة.

وعرَّفنا على رجل معمم يجلس وحيداً بلا زائرين، وقال عنه أنه أخوه الجديد الذي جاد به الزمان عليه، وهو مثله لا ملف له، ولا أهل يزورونه فحييناه، وقبلنا جبهته، وأعطيناه بعض ما كنا نحمل من خيرات.

كنت أثناء تلك الزيارة في السنة الأخيرة من دراستي الثانوية، وقد أصطحبني جدي مع أعمامي ونسائهم، وأطفالهم، لزيارة أبي في سجنه.

وقد بدأت منذ فترة قصيرة بتسجيل أنطباعات لغوية غائمة، وصور أدبية تتحدث عن الحياة بأفراحها وأحزانها، وكنت متفوقاً طوال سنوات المتوسطة والإعدادية بدرس الإنشاء، عكس أولاد أعمامي، فسجلت في ذلك اليوم صفات ذلك الرجل المنزوي بدفتر صغير أحمله معي أينما ذهبت:

الرجل ذو النور بأبتسامته الدائمة وطلاقة وجهه بدا لنا جميعاً انه احد أمراء زمن مضى تجسد فجأة في تلك الزاوية من السجن.

قال أبي عنه انه يعلمه الصلاة، وأصول الدين، ويروي له عن البهاليل الذين يمشون على الماء، والنساء اللاتي كُشف أمامهن الحجاب، والأرواح التي تطير فوق الغيوم، كانت لحيته قصيرة سوداء، ووجهه يميل إلى الاستدارة، وأجفانه متورمة قليلاً، وتحت عينيه جلد مكرمش يميل إلى السواد، وكلما مشى تكفأ في مشيته كأنما يوشك على السقوط إلى الأمام.

يقول عنه أبي انه لا يأكل إلا القليل القليل، ولا يتضجر من سجنه كأنما خلق لتلك الزنزانات السود، ولا يترك فرصة دون أن ينال ثواباً بروايته لأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أجمعين، أو لأحد أئمة الأطهار عليهم أفضل سلام وصلاة.

أحمر الخدين، وعلى جبهته ندبة كالوشم، ويبدو كل رجل يتعرّفه وكأنه تابع له أو خادم، ومن بركاته، انه حين يتقدم سجانيه إلى زنزانته يبدون وهم يسعون وراءه، وبأيديهم المفاتيح، والسياط، كأنهم مجموعة من العبيد والخدم يتبعون أميرهم وسيدهم.

كان الجميع يهابونه ويحترمونه، وإذا أشار إلى احد السجناء، وقال له انك ستخرج اليوم، ولا تمضي أكثر من ساعة حتى يجيء أمر الإفراج عن ذلك السجين، وعندما تلتقيه لا يهمك أن تعرف اسمه أو يعرف اسمك ويبدو لك، وكأنك عرفته منذ زمن بعيد.

عرّفنا أبي عليه كمن يرشد أهله الجائعين إلى قطعة جبن وعسل، في بداية الأمر خشي أعمامي أن يكون ذلك الرجل المبارك من رجال الآمن المدسوسين فهمسوا في إذن أبي شيئاً عن شكهم ذاك، طالبين منه عدم

البوح بأي شيء من أسرار عائلتنا له.

لكن وجه أبي تعكر وتمتم قائلاً بصوت مسموع أنكم لا تفهمون شيئاً، وضحك بعد ذلك حتى أستلقى على ظهره، وأشار إلى صديقه بيده وبدا على وجه ذلك الرجل المبارك أنه فهم كلامنا، وما قلناه عنه من تلك الإشارة التي بعثها له أبي في الهواء، فضحك هو الآخر بأدب، كأنما سمع نكتة واضعاً يده على فمه.

وعلق أبي على ذلك انه يستحي أن يرى الناس أسنانه أثناء ضحكه وتساءل هل التقيتم برجل يستحي أن يراه الآخرون وهو يضحك ؟

فكيف يقوى على رؤية الله له كل لحظة، وهو يتجسس على مساكين مثلنا ؟

وبعد تلك الزيارة قال جدي، وهو يمسح دموعه لقد رأيت أبني، وقد صار أكبر مني عمراً، أيصدق أحد أن الأبن يصير في سجون الحكومة أكثر شيخوخة من أبنائه؟ !

-70-

ما عاد أبي يسأل احداً عن المدة التي عليه أن يقضيها دون محاكمة أو معرفة متى ينتهي زمن هذا الحبس؟

وأهملت جدتي المجيء إلى زيارة أبي في سجنه، وترك هو عادة السؤال عنها أو عن احد آخر من أفراد عائلتنا لا يأتي إلى زيارته بل أنه اخذ يوبخ أفراد عائلته القادمين لزيارته طالباً منهم أن يوفروا مبلغ المواصلات، ويتوقفوا عن زيارات عقيمة لا تفيد أحداً.

قائلا أنه يقضي أفضل الأوقات مع صديقه الجديد، وان صديقه في السجن يومياً يغيب عن سجنه ليصلي في مكة المكرمة صلاة المغرب والعشاء.

ويظهر من جديد في السجن ليحكي له، عما رأى قريباً من البقعة المطهرة، وهمس أبي لنا أنه عما قريب سيصطحبه في رحلاته.

وأخذ أعمامي يضربون أكفهم بالأخرى معتقدين أن مساً من الجنون قد أصاب أبي جراء محنته القاسية، إلا أن جدي قال لأولاده أن ذلك من لطائف الله على عبده.

وقد جاء بذلك الرجل الصالح ليعلمه الصبر على البلايا، ويكون صديقاً له ويقربه من الله سبحانه، وتعالى.

ويعلمه أصول الدين وقراءة القرآن الكريم ويحفظه أحاديث الرسول

المصطفى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.
وقد حدث من قبل لنبينا يوسف على نبينا محمد وآله وعليه السلام، انه كان له أصدقاء في سجنه، وانه كان يعلمهم ما يقربهم إلى الله، وكذلك ما حدث لموسى بن جعفر، الكاظم عليه السلام حين سجن لأكثر من أربعة عشرعاماً بلا سبب حقيقي سوى خوف خلفاء بني العباس من أهل بيت رسول الله عليهم الصلاة والسلام.
وفي كل زيارة من زيارات الأهل للسجين كان كلامه يقل، وصمته يطول ، ووجهه يشع نوراً وندبة سمراء تظهر على جبهته ولا تفارق وجهه الأبتسامة.
وكنا نأتي لنتكلم، ونتكلم وهو ينصت لنا والأبتسامة لا تفارق ثغره وكان ذهنه مشغولاً بشيء آخر، وكنا في بعض الأحيان نشعر أن ساعة الزيارة الشهرية كانت تضايقه.
وطلب منا في إحدى الزيارات أن نسامح من ظلمه، وأن لا أحد منا يسعى ليؤذيه بشيء، فقد تركه إلى الله تعالى، وهو سيأخذ له حقه من ظالمه.
وطلب منا عدم المجييء لأن ذلك الوقت يضيع منه هدراً، وحين سمعت جدتي بكل ذلك خمشت خديها وقالت أن أبنها ضاع، وإذا لم تستعجل في أخراجه من ذلك الجب المظلم، الذي أسقط فيه ظلماً.
وأخيرا وكأنها وقعت على ضالتها عرفت أن سيلبا الذي غدا مهماً في الدولة سيكون حاضراً في أحتفال كبير وسط بغداد بعد أيام قليلة.
فأرسلت من يبلغ ثلاثة من أعمامي بموافاتها إلى العاصمة، وعندما وافوها بعد يومين أبلغتهم أن فرج الله أصبح قريباً وأخذتهما إلى ذلك المكان الذي سيكون ميداناً للأحتفال، ومكاناً لأخذ ثأرهم من الظالم أيضاً، وتبعهم عمي نوري إلى ذلك المكان، ودرس أعمامي مسرح الأحتفال، والشوارع المؤدية إليه.
ووضعوا خطة محكمة لايفلت منها المجرم، وفي يوم التنفيذ أعطت أعمامي عشباً يابساً من كيس تشده حول رقبتها بعينين دامعتين طالبة ممن يقع من أولادها بأيدي رجال الآمن مضغ ذلك العشب السام، الذي يسمى خانق الذئب.
الذي لا يعطى فرصة لمتعاطيه، ويموت قبل أن يدلي باسم احد من أخوته، وأهله تحت التعذيب، وطلبت منهم أن يتجردوا من هوياتهم الشخصية أو أية أوراق تدل عليهم، وعلى عائلتهم.

وطلبت من قريبين من أقربائنا أن يقودا دراجتين ناريتين قريباً من المكان لتقوم أحداهما بنقل نوري بعد تنفيذ الأغتيال، والأخرى تنطلق بأتجاه مخالف للتمويه على المطاردين.
وكانت جدتي تضع مسدس نوري في جيب ثوبها الأسود لتناوله ذلك السلاح في اللحظة المناسبة، وفي ذلك اليوم تم كل شيء مثلما خططت له العجوز.
واندفع نوري بعد أن اخذ المسدس من كف أمه، وتقدم صوب سيلبا وأرتبك أفراد الحماية والجمهور الحاضر، وهم يرون احد أفراد الشعب يندفع إلى موكب المسؤول، وقد شرع مسدسه بوجهه، وزغردت جدتي وسط الجمهور لتشجيع أبنها وأطلق نوري ثلاث طلقات على سيلبا عن بعد خمسة أمتارفإصابته جميعاً.
وبعد تلك الأطلاقات اخذ رجال الحماية يطلقون النار من بنادقهم صوب عمي الذي أصيب، وسقط وضج الجمهور بالصراخ، وتفرق الناس راكضين.
وأختلط الحابل بالنابل، وأحاط رجال الحماية بسيلبا ونقلوه إلى سيارته وضُرب طوق أمني من رجال الشرطة حول عمي نوري، الذي سقط مضرجاً بدمه، ونقل بعض الجرحى من المواطنين، الذين كانوا في الصفوف الأولى من الجمهور الحاضر، وقد أصيبوا برصاصات رجال الحماية الطائشة.
وشعرت الجدة أن غيوماً بيضاء تصير أمام عينيها، وتحجب عنها الرؤيا، ولم تعد ترى شيئاً في ذلك الأزدحام، والصخب غير أنها كانت تشم عرق الرجال من حولها، وصنانهم فتشعر بالأختناق.

-71-

عماي حسن وحسين، اللذان كانا يقفان مشدوهين، وقد بدا لهما أن دورهما غامض ومربك في عملية الإغتيال، ويتحدد بإطار حماية عمي نوري بعد التنفيذ، والهرب معه، وقد أصيبا بأرتباك حقيقي، وهما يشاهدان أخاهما يسقط على الأرض مضرجاً بدمه، ولا حركة تصدر عنه، وحوله عدد كبير من رجال الشرطة، والحماية ببنادق مشرعة، وأصابع مستعدة على الازندة.
فأضطرا إلى الركض بأتجاه أمهما، التي سقطت على وجهها متعثرة

بأذيال عباءتها بين الكراسي المقلوبة، معتقدين أن عياراً طائشاً أصابها، وكان حولهما الناس يركضون في كل أتجاه.

ونقلا أمهما إلى سيارة أجرة كانت قريبة من المكان، وهمس حسن لأخيه أن يذهب مع أمهما إلى نهاية السوق، وهناك يغادران ليصعدا إلى سيارة أجرة أخرى مخافة أن يكون سائق السيارة الأولى من رجال الأمن، وان لا يتفوه بكلمة مع السائق تشير إلى معرفته بما حدث في الأحتفال، وحين سأله إلى أين يذهب؟

أجابه انه سيسعى لتخليص أخيهم الجريح، وحالما أنطلقت سيارة الأجرة بأمه، وأخيه هرع إلى مكانه قريبانا، وهما على دراجتيهما الناريتين سائلين ماذا يفعلان؟

فهمس لهما حسن بضرورة تخليص أخينا من أيديهم، ومن بعيد بدا رجال الحماية، وهم يقلبون عمي، ويتحدثون بينهم بصوت عال، وحملوه من يديه وقدميه، ورموه في حوض سيارة بيك آب متوقفة.

وطلبوا من سائقها أن يتبعهم، وعندما سألهم إلى أين؟ أجابوه المستشفى المركزي، وصعد إلى جوار عمي في حوض السيارة احد رجال الحماية.

وتبعهم عمي وقريبانا على الدراجتين وقبل الوصول إلى المستشفى، وعند أشارة المرور الحمراء أقترب عمي حسن من رجل الحماية ذاك ووضع مسدسه قريباً من رأسه وأطلق النار عليه، وتحركت الدراجة الثانية لتقف أمام السيارة لتمنع السائق من التحرك إلى الأمام، وقد أشهر مسدسه بوجه السائق، فرفع الرجل يديه عن مقود السيارة، وهرع عمي حسن وقريبنا الآخر إلى حوض السيارة وأنزلا عمي الذي كان مجروحاً في مواضع كثيرة من جسده.

واخذ قريبنا بندقية ذلك الشرطي، الذي امتلأ وجهه بالدم، وكان السائقون في الشارع العام ينظرون إلى ما يجري أمامهم، وكأنهم يرون مقاطع من فيلم بوليسي.

ونفذت الدراجتان في أزقة ضيقة، وكانت وجوه بعض النساء الشاحبة تطل من وراء ستارات الأبواب المشرعة صوب ذلك السباق المجنون بين الدراجتين، وذلك الجريح المحصور بين سائق الدراجة الأولى وعمي حسن، وقد أصفرت وجوههم وتجمع الزبد الأبيض حول زوايا أفواههم، ولا واحدة عرفت حقيقة ما يحدث أمام عيونهن المشربة بالجزع..

-72-

في تلك الليلة أنقطع البث التلفزيوني لحظات وأعتذر المذيع عن الأنقطاع لأعطال فنية ثم عاود البث بعد أنقطاعه ساعة كاملة، وعاد من جديد هذه المرة بنصف صورة للرئيس مغطية الشاشة الفضية، وصدحت موسيقى مارشات عسكرية.

فأسرع احد أولاد عمي الأوسط، الذي كان ماراً مصادفة أمام مقهى الحي، ورأى الجو مشحوناً، والناس ترى نصف صورة الرئيس المتقلبة على الشاشة.

وقرب الرجال كراسيهم من الشاشة الصغيرة، وتركوا العاب الدومينو والنرد على المناضد الدبقة ببقايا دوائر الشاي ومشروب الحامض، وأخذوا يدخنون لفائف تبغهم متوجسين، مما يحدث في العاصمة ألان وحالما أبلغ ابن عمي ذاك جدي، الذي كان يحرم على عائلتنا رؤية التلفزيون معتقداً أن تلك الشاشة الفضية تنقل صور الراقصات، وعريهن المحرم طوال الوقت!

توجس جدي خيفة، وهرش لحيته مفكراً أن كانت العجوز قد فعلتها، وأخذت لنا ثأرنا من ذلك الظالم ولم يسعه أرتباكه ذاك إلا أن يلبس دشداشة الوجاهة البيضاء بالمقلوب، وأتنبه إلى ذلك الخطأ، فنزعها من جديد ليرتديها بوضعها الصحيح.

واخطأ مرة أخرى حين وضع باطن ياشماغه على رأسه بدل الظهر وهرع أعمامي إليه يستفسرون عما حدث، فقال جدي بلهجة توحي بأشياء كثيرة، لكنها لا تقول شيئاً معيناً وهو يركز عقاله على رأسه :

- أظن أن العجوز فعلت شيئاً هاماً في بغداد!

وخرجت عائلتنا في موكب كبير إلى المقهى البعيد عن دار جدي الكبيرة وأستغرب صاحب المقهى لمجيء جدي بلحيته البيضاء، وعصاه التي إذا أستند إليها في وقوفه، بدا مائلاً إلى جهة اليسار أكثر من اليمين بسبب قصرها الشديد.

وحاول الترحيب بجدي، وكانت الكراسي كلها مشغولة بالزبائن فبقي جدي واقفاً وقفته المائلة، وهو ينظر إلى جهاز التلفزيون، الذي بدأ يبث أناشيد وطنية، وأخرى تتغنى بتحرير فلسطين مع مقاطع قلقة وسريعة الحركة من حرب 1948 بين الدول العربية وإسرائيل.

وأخيرا تنازل احد الجالسين من الشباب، الذين يعرفون احد أعمامي عن كرسيه لجدي، فجلس من دون أن يشكر المتبرع، ووقفت خلفه مع

أعمامي ننتظر أن نعرف شيئاً مما حدث في العاصمة.
كنا كأننا ننتظر نتيجة يانصيب سنوي شاركنا فيه أو مباراة كرة قدم يخوضها منتخبنا الوطني، وفي ساعة متأخرة من الليل جاء البيان المنتظر قال المذيع أن مجموعة من أتباع المستعمرين، القدماء قد أقدموا على جريمة بشعة، وإثناء ذلك تم عرض فيلم ألتقطته كاميرا التلفزيون التي كانت في الأحتفال، فظهرت جدتي في اللقطات بشيلتها السوداء، وسط الناس في ذلك الأحتفال، وهي تمد يدها في جيب ثوبها الأسود وتخرجها وبين أصابعها مسدس ضخم، وتعطيه إلى عمي نوري، الذي ظهر بشاربه الكث وجبهته العريضة، وهو يهجم على موكب من الرسميين، ويبدأ بإطلاق النار من مسدسه بأتجاه موكب الرسميين.
ومن ثم عرض التلفزيون صوراً للفوضى في ذلك الأحتفال عقب الهجوم والجرحى، وكنت أراقب وجوه أعمامي وجدي وهم يرون أمهم وعمي وهما ينفذان ما حلمت به عائلتنا طويلاً، فرأيت تلك الوجوه صفراء بشفاه مرتجفة، وعيون متألقة بالفخر والفرح السري، وأصابعهم تستقر على أفواههم، لئلا تكشف للجالسين في المقهى هوية المنفذين، وصاح احد الجالسين في المقهى مخاطباً عمي الأوسط :
- ألا يشبه الذي ظهر أبنكم نوري ؟
فتصنع جدي وأعمامي الضحك سخرية، مما قال ذلك لئلا يشك بهم ويبلغ السلطات!
وقال جدي بصوت متآمر :
- تركنا نوري ينام في غرفته كالبغل المتعب.
- فصمت الرجل على مضض، وكادت الدموع في عيوننا تفضح حقيقة ما جاش في صدورنا من عواطف، وكنا جميعاً نريد أن نعرف ماذا حل بالظالم سيلبا!
وأكمل المذيع قائلاً أن المجرمين نجحوا بإصابة أحد المسؤولين الأمنيين، ولكن إصاباته سطحية، وانه يعالج في احد المستشفيات.
وتم إجراء عملية مستعجلة لأستخراج طلقة نفذت إلى ساقه وأخرى في صدره، وحالته الآن مستقرة ولا خوف عليه، وسيغادر المستشفى خلال أيام قليلة ثم ناشد المواطنين القبض على السيدة العجوز المجهولة الهوية التي ساعدت المجرم في تلك الحادثة الإجرامية.
وبث التلفزيون صورة جدتي المشوشة لعدة دقائق وطالب المواطنين الإدلاء بأية معلومات عنها، وفي أي مكان من البلاد لقاء مكافأة مجزية!

كاد الغضب أن يعمي عيوننا جميعاً فخرجنا من المقهى لا نلوي على شيء، للوصول إلى البيت لنقرر ماذا نفعل؟ واحدنا يقول للآخر أصمت ولا تتحدث في الطريق عن شيء.

ولشدة أنفعالنا وعمانا زلت قدم جدي في ساقية للمياه الوسخة قريباً من المقهى، وكاد يسقط على وجهه لولا أن أولاده أمسكوا به، لكن ثوبه تلطخ بالوحل الأسود النتن.

فاعتبر جدي أن ذلك فال شوؤم على العائلة جميعاً، وفي تلك الليلة قررنا ترك دار جدي الكبيرة خوفاً من الاعتقال.

وتشرذمت عائلتنا الكبيرة إلى عائلات كثيرة صغيرة العدد، في البداية نزلنا ضيوفاً عند أقربائنا هنا وهناك، وبعد ذلك أكترى كل عم من أعمامي داراً صغيرة وسكن فيها مع زوجه وأولاده.

أما جدي فقد سكن في دار صغيرة قريبة من الجامع لا تحتوي غير غرفة واحدة تقع في الجانب الآخر من المدينة، حيث لا يعرفنا احد.

أما بيتنا الكبير فقد بقي موصد الأبواب والنوافذ، ولا يدري احد من الجيران ما حل بأصحابه، ولا إلى أين رحلوا، أما بالنسبة لأمي ولي، فقد ارتأت العائلة أن تكتري داراً في بغداد لنكون قريبين من سجن أبي، ولنواجهه كل شهر ونقضي حاجاته، وذلك ما فعلناه على وجه السرعة....

-73-

عاد الرئيس بعد أسبوع من المعارك الملحمية في جبهة البلاد الشرقية، واستطاع أن يصد أكثر من هجوم، ويحوله إلى هزيمة منكرة.

ركب طائرته العمودية، وطلب من سائقه أن يعيده إلى قصر الورود حيث تنتظره حوريته، التي كانت أكثر منه شوقاً للقاء به، وقلبها يخفق ويقول لها كل ليلة وهي بعيدة عنه أنها بحاجة إلى همجيته، والى وحشيته ولفعله العظيم المؤذي، الذي لم تخلق من قبلها امرأة تستطيع احتماله والتوافق معه.

شخيره الوحشي وفوضويته وأرتباكاته أمام مفاتنها، وكل خلية فيها يردد صارخاً أنها بحاجة إلى ساديته، ودمها يتسمم كل لحظة من دونه، وكل ليلة تمضي، وهي ليست في أحضانه يحكها جلدها حد الهستيريا.

كما أنها عافت الطعام، متعرية أمام المرآة هارشة جسدها بأظافرها ناظرة إلى ما خلفه على جسدها من أثار، وكدمات، وآثار ذلك الخمش الموجع في جسدها، وغرزات أسنانه، وذلك القشط الأسود على صدرها،

وعنقها، وذلك الهمش الخفيف حول عمودها الفقري، الذي أحدثته أظافر قدميه، وذلك العض المتوحش لأطراف أذنيها.

كانت تشعر انه نشر توحشه في كل جسدها، وانتشرت ساديته في دمها، وجسدها صار يلتهب شوقاً لضرباته، وما يخلفه في جسدها من أوجاع.

تقضي الوقت بأنتظار قسوته، ورغباته العنيفة وساديته، التي تنتشر آثارها في كل أنحاء جسدها، هي تحاول أن تنكر أنها متحرقة لمعانقته والموت بين ذراعيه، لكنها لا تستطيع.

لقد شعرت عندما صارت في أحضانه لأول مرة في حياتها، وطيلة أسبوع كامل أنها صارت امرأة حقيقية من دم ولحم، ورغبات لا تنتهي خصوصاً بعد أن تزوجها وسجل زواجهما قاض ومحلفان.

تذوقت معه الجنس الحقيقي لأول مرة، ذاقت عسله المر طيلة أسبوع، وأدمنته كما يدمن الناس القهوة الفاخرة، وأنتهى بها الأمر أن صارت عبدته المطيعة، التي لا تستطيع أن تعيش من دونه..

-74-

تتخطى أمام المرآة عارية، تتمرأى قوامها الأهيف متخيلة عناقه لها، هامسة له بعذوبة:

ــ أيجد الحبيب المفتدى أجمل من هذا الجسد الذي امتلأ كل سنتمتر مربع منه بجروحه، ورائحة لوزه؟ أو هل تجد أجمل من هذا الشعر؟! آه ياحبيبي المتوحش أين أنت الآن؟

هلم لتمزق هذه الشفاه الضاجة بالنداءات الظامئة إلى فحولتك؟ ماذا يعني كرسي الرئاسة الذي تعتليه أن لم أكن في أحضانك، وتبلل صدري ببصاقك، وأنفاسك، وسرطاناتك بكلاباتها المؤذية تسيرها في ممرات جسدي، حتى تصل إلى أعماق روحي وتلف شعري حول ذراعك، وتثقب بأسنانك أوردتي، وشراييني، وتمتص دمي النازف من كل جزء، كعلق.

وذرفت عيناها الدموع وهي تقول الآن فقط عرفت لماذا أنتحرت كيلوباترا بعد أن مات حبيبها؟ ولماذا بني شاه جيهان قصر تاج محل لحبيبته؟

ولماذا أحب الفرعون نفرتيتي وملأ مصر بتماثيلها؟ كان بين هؤلاء جميعاً مثل الذي بيني وبين حبيبي:

الألم الشديد، واللذة القصوى، والحب المسروق في الوقت الضائع

ذلك ما كان بينهم.

إذا مات حبيبي سأموت بعده مباشرة، سأقتل نفسي أجل هذا ما سأفعله، ولكنها بعد لحظه تتساءل:

ـ هل أحب هذا المتوحش حقاً؟

مر الأسبوع وأنا أتقلى كالسمكة بزيت ساخن، منتظرة جلادي الذي لا يرحم كانت تلك الأفكار تسيطر عليها، وتجعلها مرتجفة قلقة..

حين سمعت هدير مروحة طائرته العمودية فوق حدائق القصر، وعندها هرع الخدامون والسفارون، والوصيفات إلى النوافذ يزيحون الستائر ليروا هبوط طائرة سيدهم.

وشعرت الحورية بالفرح يطيرها، وهي مرتبكة لا تعرف ماذا تصنع؟ فأسرعت كالملسوعة بسيخ من نار إلى أدراج زينتها، تضع على وجهها المساحيق، وتعدل من تسريحة شعرها.

كانت تلبس ثوب النوم الأبيض الذي يحبه، ومررت المشط على شعرها وباليد الأخرى أخذت تنشر العطر، كيفما أتفق على ثوبها الأبيض وجيدها وصدرها، وتحت أذنيها، ومن فرحتها دلقت ما تبقى من عطر الياسمين في كل مكان فامتلأت غرفة العاشقين بأريج عطر مسكر.

وفجاه دخل عليها الرئيس مثل العاصفة، وقف وملأ صدره برائحة العطر ورد الباب وراءه بعنف، ودون أن يتكلم تقدم نحوها، فابتسمت له بعذوبة حملها بين يديه فجأة، واتجه بها إلى السرير..

همست في أذنه:

ـ حبيبي وحياتي تأخرت كثيراً أنتظرتك طويلاً، أين ذهبت؟ قلت لن يعود لفرط يأسي أقسم عليك بكل عزيز أن تقتلني لتريحني من أنتظارك ثانية اقتلني كسمكة صيادك العجوز في الشيخ والبحر*، الرواية التي تحب إعادة قراءتها، كلما فرغت منها، فأنا بعد هذه اللحظة لا أستطيع مكابدة ألام الانتظار!

لم يرد عليها بكلمة حملها بين ذراعيه بحنان متجهاً إلى الفراش، فجاءت كلماتها الأخيرة مكتومة لا تعني شيئاً، ومن فرط العشق والرغبة ساحت دموعها، فبللت وسادتها، وأجهشت بعد ذلك باكية، وهو يمزق بأسنانه وأظافره النامية ثوب نومها الخفيف..

* بطل رواية الشيخ والبحر لأرنست همنغواي.

في السنة الأولى من زواجهما، كانا يبقيان مستيقظين حتى تشرق الشمس لا يغمض لهما جفن، ويتفننان في صنع الحب، وكان يتساءل بينه وبين نفسه بحرقة، لماذا لم يجعلها الرب ثوباً أضافياً، ليفنى في ولوجها عاشق مثله برغبات مجنونة.

تبحث في جغرافيا جسد الأنثى عن واحات للعطاء، ومظلات للرغبة ومضاعفاتها، وعندما ينبلج الفجرعلى عريهما يغمض عينيه ساعة محتضناً حوريته، لئلا تفر من بين يديه كالحلم، متحولة إلى سمكة بجناحين تطير بهما إلى النهر القريب،وتغيب فيه إلى الأبد.

وبعد ساعة من ذلك النوم القلق يستيقظ.. تفتح عينيها ببطء لتجده عند رأسها، وقد ارتدى لباسه العسكري بعد إن دخل الحمام واخذ حمامه السريع، وتراه بين الصحو والإغفاء يتأمل وجهها، وجسدها العاري وجروحها المزرقة، وتمد يدها باتجاهه كالغريقة طالبة منه الأقتراب من جديد.

وترى يده تمتد إليها، لتمسك بأصابعها بحنوعاشق، ويهمس:

ــ سأذهب ثمة عمل ينتظرني.

تقول له بصوتها الناعس الابح، وهي تتثاءب:

ــ لن أتركك تذهب إلى امرأة أخرى.

يبتسم فقد اعتاد هذه الجملة، التي تقولها كل فجر بين اليقظة والنعاس:

ـــ وهل بقي عندي ما أعطيه لامرأة أخرى؟

تشعر بالسرور والاطمئنان على كنز حبها، ويقول لها مخوفاً:

ــ سيقتلك الشعب معي حين يثور ضدي.

تفتح عينيها على سعتهما حين تسمع كلمة قتل، وتقول هامسة باعذب صوت سمعه في حياته:

ــ القتل مع الحبيب أفضل من العيش بعده. هلا جئت إلى عبدتك لتنام مجدداً في حضنها، ودع الشعب يثور كما يحلو له، أفعلها مرة من أجلي من أجل عشقنا.

أتمنى أن أموت بين ذراعيك ولا أتمنى ميتة غيرها.

قال:

ــ سأقف أمام طابور الإعدام مثل موسليني دكتاتور ايطاليا، كأني الآن أرى هذه اللحظة المأساوية المشحونة بالرعب، سيرمون بوجهي رسائل الموت.

ـــ أتريد أن تبكيني في هذا الفجر؟ لن أتركهم يفعلون ذلك بك لن اسمح

لك في هذا الفجر الجميل أن تبكيني.
وأزاح ستارة النافذة، ومن وراء الزجاج تأمل شتلات الورد، والشجيرات الواطئة، وقد غطاها نور الفجر، وقطرات الندى الملتمعة على النصال الخضراء، همست نائحة:
ـ سأموت قريباً من قلة النوم، كيف تمكنت من العيش كل السنوات السابقة بلا نوم؟
تثاءبت، قال، وهو ينحني ليقبلها قبلة الوداع:
ـــ لقد نمت ساعة كاملة، وهذه الساعة تكفيني، وألان يا حبيبتي سأخرج لأبدد شمل الرعاع وأجعل طابور الإعدام ينصرف، فثمة يوم آخر ينبغي أن نعيشه في هذا الوطن السعيد، وليلة معطرة بأريج الورد قادمة لنعيشها معاً..

-76-

كان كل صباح يردد عليها هذه اللازمة المتكررة، وذلك الصباح اعترضت ساخرة:
ـ لماذا لا تسرح فصيل الإعدام ذاك.
ضحك.. بل كركر ضاحكاً وجلس على الكرسي قبالة سرير عشقهما مختنقاً من الضحك وبعد أن هدأت ضحكاته قليلاً قال:
ـ إذا سرحت ذلك الفصيل، كيف يمكننا أن نواصل عملنا في الدولة؟
وتساءلت بجدية :
وهل هناك حاجة دائمة لذلك الفصيل الكريه؟
قطب الرئيس حاجبيه فجأة وقال :
ـ يا حبيبتي في كل زمان في بلادنا العظيمة، لا يملك الحاكم غير نفسه وكرسي الحكم، وفصيل الإعدام، وسيبقى يحكم فترة أطول مما ينبغي دون أن يثور الشعب ضده بوجود هذا الثالوث المقدس.
وكل فرد من أفراد الشعب يثق ثقة عمياء بالمستقبل، وان مصير الرئيس واضح وضوحاً لا لبس فيه، ولا تدليس سيسحل في شوارع الوطن أجلاً أو عاجلاً، ولذا يطول عهد كل رئيس منا لسبب بسيط، أن كل فرد يريد أن يبقى حياً ليرى بعينيه هذه النهاية المحتومة.
ومادام الآمر محسوما هكذا، فلماذا يضحون بحياتهم ليزيلوا الرئيس الظالم عن كرسيه؟ أنهم يبقون ينتظرون بفارغ الصبر أن يروا هذه النهاية وهم أحياء يرزقون.

وكل واحد منهم يضع تنفيذ هذا الحلم الجماهيري على كاهل غيره أو يضع حلمه على عاتق شخص يجهل اسمه ويكون أكثر نفوذاً وحذقاً منه وفصيل الإعدام المستعد دائما لتنفيذ واجبه بإعدام هذا الشخص المتنفذ والأكثر حذقاً كلما برز في ساحات الوطن، وبذلك يضمن الرئيس زمناً قياسياً، لممارسة عشقه للسلطة والحياة المجنونة.

لم تفقه كلمة من تبريراته لوجود فصيل الإعدام، وسياسة الحكم، رفعت عن جسدها الغطاء، فظهرعريها تحت أول ضوء لإشراقة الشمس.

كان جسدها موشى ببقع داكنة للذائد الأمسية الفائتة، ونظرات ثوب نومها الممزق فقالت معاتبة:

ـ ألا تتوقف مرة عن تمزيق أثواب نومي ؟

ضحك وقال :

ـ عندك الكثير منها.

لملمت على جسدها ثوبها الممزق، وسمعته يقول أثناء ذلك:

ــ مطلقك سمير.. أعطيته علاوتين وقدماً في الوزارة، ومكافأة مالية مجزية.

ضحكت ساخرة وقالت مؤنبة:

ـ دعه وشانه لقد وعدتني بذلك.

ـ أني بسببك أحبه جداً.

لم تقل شيئا ونظرت صوبه بعينين دامعتين:

ـ ليتك كنت أول رجل في حياتي ليتك كنت أنت هو ....

لم يقل شيئاً نهض عن كرسيه، ومس شفتيها بأصابعه، وشمت رائحة اللوز تنثال من كفه الموشومة.

تركها ومضى سمعت باب الغرفة يغلق، أغمضت عينيها ونظرت إلى جسدها وشفتيها المزرقتين المعضوضتين بغير رحمة..

استدقت أبتسامة، وكانت دمعتان من فرح البارحة لم تجفا بعد على وسادتها.

-77-

أبن الرئيس البكر لم يهدأ له بال طيلة الشتاء المنصرم فقد دأب على استجداء المناصب الحكومية من أبيه، وقد ورث عن أبيه حب التميز والظهور، وطلب السيادة.

ولو لم يكن أبوه في منصب الرئيس لفعل دون شك ما فعله أبوه قبل

عشرين عاماً، لكن ماذا يعمل والأب يمسك بقبضة من حديد أمور الدولة والحزب، وكل مرافق الحياة في البلاد؟

ولشدة تمرده أسس صحيفة يومية معارضه لحكم والده تباع في الأكشاك، وتنفس عن بعض الذي في صدور الناس من غيظ، وكان يستهدف بشكل يومي على صفحاتها وزراء والده وقواد جيشه ومدراء الأمن والمخابرات والشرطة.

وقد كتب في أعلى الصفحة الأولى وقريباً من اسمها جريدة تحكي عن أحوال الشعب والوطن.

وحين قرأ الأب العدد صفر من الجريدة ولاحظ تلك العبارة ضحك حتى أستلقى على ظهره.

كان يستمتع كل صباح بعد ذلك، وهو يقرأ عن فضائح وزرائه المنشورة بخطوط عريضة على صفحات جريدة ابنه.

أختلاسات لأموال الدولة، متاجرات مختلفة بمواد ممنوعة، أخبار مؤكدة عن تأسيس شبكات دعارة يشرف على أدارتها وكلاء الوزراء.

هؤلاء الوكلاء يختارون ضحاياهم من الموظفات الجديدات صغيرات السن، وعمليات رفع أسعار المواد الغذائية بمضاربات يومية يشرف عليها أقارب الرئيس وأبناء عمومته..

المتاجرون بالعملات الأجنبية التي تساعدهم على أدارة أسواقها نساء المسؤولين وعلى رأسهن سيدات قريبات للرئيس.

وتتضمن صفحات الجريدة أثارات من كل نوع، ولون مقابلات صحفية مع شباب أجروا عمليات بتر العضو الذكري وأحلوا محله ما يشبه فرج المرأة.

وامتلأت صفحات الجريدة بعجائب وغرائب الشذوذ والنصب والاحتيال والإثراء غير المشروع وجرائم الجنس.

وعلى صدر الصفحة الأولى منها يكتب ابن الرئيس مقاله الأفتتاحي وباللهجة العامية، التي لا يجيد غيرها، وفي بعض الأحيان يترجمها مترجمون إلى العربية الفصحى.

ومن هؤلاء أستاذ لغة عربية يبقى حتى ساعة متأخرة من الليل في أروقة تصحيح الجريدة باحثاً عن مفردات عربية تقابل لهجة الابن الشعبية لأنه يعرف أن عدم ترجمته لها بشكل أمين، ويدل على المعنى الذي أراده ابن الرئيس، فسيعاقبه الابن بقلع ما تبقى له من أسنانه بالمفك والماسكة الحديدية، دون تخدير.

وقد فعلها الابن مع عدد من المترجمين السابقين، والرجل لم يبق في فمه سوى أربعة عشر سناً ويريد المحافظة على كرامته وعلى بقاء أسنانه بأي ثمن.

فتراه طيلة الليل يسال هذا وذاك عن هذه المفردة العامية أو تلك وهل تعطي تلك الكلمة العربية الفصيحة ذاك المعنى أم لا؟

وطيلة الوقت يقلب صفحات لسان العرب والقواميس ودواوين الشعر الشعبي، ويسال المعمرين، وحين يصيبه اليأس والضجر يصرخ سأستقيل غداً سأقدم استقالتي، وأترك هذا الجحيم.

وهو يعرف تماماً أنهم لا يتركونه يستقيل أبداً وقد أخبره رئيس قسم التصحيح أن دخول الحمام لا يشبه الخروج منه، وكانوا بين فترة وأخرى يضاعفون له الأجر لتغطية آثار التضخم، الأخذ بالنمو كوحش أسطوري يومياً.

-78-

عادة أخرى أكتسبها الابن البكر من أبيه، فهو بعد منتصف الليل بساعة كل ليلة وبعد أن يسكر ينطلق مع حمايته من الشباب صوب الأقسام الداخلية لطالبات الجامعات.

ويدخل غرف نومهن غرفة غرفة بذريعة انه يريد التأكد من العناية المركزة، التي تبذلها الجامعات للحفاظ على راحة الطالبات في الأقسام الداخلية.

وحالما يصل الابن المدلل بطوله الفارع ولحيته المثلثة، وبداية الصلع المبكر الذي يبدو على مفرقه يلتمع بالضوء والالتواء الخفيف في شفته السفلية، الذي لحق به منذ طفولته.

حتى تلهج الطالبات عند رؤيته بالدعاء للرئيس وأبنه، ويزغردن احتفاء به ويجلس معهن في تلك الغرف، وهن بملابس النوم ليسجل بقلمه التظلمات والشكاوى.

وحين تكون لواحدة منهن مشكلة مستعصية الحل ولها جمال يرغبه يطلب منها المجيء معه فوراً لمقابلة الرئيس، لحل مشكلتها.

وحين تتحرك خائفة مرتبكة لتغيير ملابس نومها بأخرى للخروج يخبرها بلطف أنهم على عجلة من أمرهم، ويمكنها أن تجيء معه مرتدية ثياب النوم، فأنهم سيجدون الرئيس بملابس النوم أيضاً.

وهو يحب حميمية التقاليد البيتية، ويوحي لها ضاحكاً أنهم ربما يجدانه

وقد أمرته سيدة القصر الأولى بغسل أطباق العشاء مساعدة منه لها في أعمال البيت، وشئونه، فتصدق المسكينة أكاذيبه، وتخرج معهم مطمئنة فيأخذها إلى قصر كبير يسميه قصر الأسرار، يغرق ليلاً في ظلمة مريبة ويغتصبها الابن في الباحة أغتصاباً مريعاً، ويتركها بعد ذلك لرجال حمايته فيفعلون بها العجائب، والابن يقف مستمتعاً بما يراه من مشاهد سادية.

وفي الصباح تعود الطالبة متورمة الوجه، وقد جفت الدموع في عينيها وتؤلمها كل أعضائها.

وتكون عادة محملة بالهدايا، ومبلغ مائة ألف دينار، وتوصيه شفهية لها من مسؤول رجال الحماية بان لا تقول شيئاً لأحد عما حصل لها، لأنها أن قالت شيئاً فسيعرفون ذلك أجلاً أو عاجلاً وحين ذاك يكون ذاك سيكون اليوم هو آخر يوم لها في هذا العالم ولعائلتها أيضاً.

فتصمت المسكينة على مضض، وتنطوي على مصيبتها أياماً وبعد أن تجتاز تلك الأيام القلقة المحملة بالصراع النفسي، والألم تمدّ يدها بدافع الفضول لتعرف ما حصلت عليه من هبات!

وتتفحص الملابس وأساور الذهب، وتعد المبلغ الكبير الذي حصلت عليه، وتحاول أن تنسى وحشية ما حدث لها، وفي كثير من الأحيان تستطيب اللعبة، فتحاول من جديد أن تجد ما يلهيها!

فتخرج بعد أيام من عزلتها واضعة المساحيق على وجهها، وهي تندب حظها، وبعد شهور تنسى مصيبتها بعد أن تعتاد معاشرة من هب ودب فتُرى وفي يدها سيجارة، وعلى شفتيها ضحكة مستمرة عابثة، وتفكر أنها بلمسة سحرية من أصابع أبن الرئيس تحولت إلى بنت ليل رخيصة!

كان الابن يضع يده على مساعدات الأمم المتحدة الغذائية، والدوائية المقدمة للبلاد، وتلك التي تجيء من الدول الصديقة والجماعات الإنسانية للتخفيف من صعوبات الحياة على الفقراء والمحتاجين الذين صاروا السواد الأعظم من الشعب.

كان يضع يده عليها بطرائق ملتوية كجهة محايدة لا علاقة لها بالدولة، وتحت هدف توزيعها على أفراد الشعب المحتاجين، وبعد أن يضمها إلى أملاكه الكثيرة يسوّقها من جديد إلى تجار جدد جاءوا من عشيرتهم يدفعون ثمنها له بالعملات الصعبة.

وهم بدورهم يضاعفون السعر عند البيع إلى تجار ثانويين، وتضخ إلى الأسواق بعد ذلك، وعندما يشتري الناس اضطراراً علب الحليب المجفف لأطفالهم الصغار، الذين يموتون جوعا يفاجئون عند فتح تلك العلب بوجود

أوراق داخلها مطبوعة تشير إلى أن تلك العلب جاءت هدية لأبناء البلاد وتعطى مجاناً!

وكان ذلك يؤجج الغضب في نفوس الناس داعين على الرئيس وأبنه وعشيرته، بالموت كما أن الأبن أثبت انه أكثر مهارة من أبيه في كسب المال الحرام وسلب البلاد ثرواتها، وشرف بناتها ونسائها عندما افتتح في البلاد اكبر الدور للمقامرات، والمراهنات!

وابتكر طرقاً جديدة للمقامرة والمراهنات لم يألفها أهل البلاد من قبل وسميت مسابقات اللوتو، وما أن يبزغ فجر يوم جديد حتى تجد أعداداً كبيرة من الناس، منهمكين بشراء وبيع أوراق اللوتو، وملئهم للاحتمالات الممكنة في ورق اليانصيب، تاركين أعمالهم، ومصادر رزقهم، حالمين بالربح الكبير الذي ستحققه لهم المراهنات في حالة الفوز.

وانتشرت مكاتب بيع بطاقات اللوتو إلى أبعد الأحياء الشعبية في المدن والقصبات وأكثرها فقراً، وثمة إحصائيات قُدمت لابن الرئيس أن من بين كل عشرة مواطنين يلعب المراهنات تسعة ونصف، فاحتار الابن بهذا النصف، الذي جاء بعد التسعة، واخذ يتساءل بينه وبين نفسه، هل يوجد في العالم نصف إنسان؟ وفكر أنهم ربما يعنون بالنصف ذاك الأقزام وقصيري الطول!

ومن نسبتهم تلك واحد من كل عشرة مواطنين يمكن أن يستنتج أن عشرة بالمائة من الشعب هم من الأقزام!

فأوعز لمعامل الخياطة التي يمتلكها الأهتمام بتصميم ملابس خاصة للأقزام، وإنتاجها بشكل واسع بلا خوف من الخسارة.

وأخذت مصالح الابن الاقتصادية بالاتساع طولاً وعرضاً وأمواله تتكدس وكلما تكدست في صناديقه المليارات من العملة الوطنية أعطى الأوامر بسحب الدولارات والعملات الأجنبية من السوق السوداء، مغرقاً الأسواق بكميات هائلة من العملة الوطنية، فترتفع تبعاً لتلك المضاربات المالية أسعار المواد الغذائية، ويرتفع سعر صرف العملات الأجنبية نتيجة الطلب الواسع عليها.

وبعد أن ترتفع الأسعار إلى ذروة معينة يعمد من جديد وكلاء مكاتبه لبيع جزء من العملات الصعبة التي أشتراها وبالسعر الجديد المرتفع ويشتري بالأرباح المتحققة العقارات والآليات، والمعدات، مما يملكه الناس.

وخلال سنوات قليلة لم يستطع الجهاز المالي والمحاسبي الذي يعول

عليهما الابن في أدارة أعماله وأملاكه أن يحصر ما يملك الابن من ثروات وخلال الفترة ذاتها كان أبناء الشعب الأكثر فقراً يعرضون أطفالهم للبيع في الأسواق الشعبية، والساحات العامة، وظهرت في الشوارع أعداد كبيرة من المتسولين لا يمكن بأي حال حصر أعدادهم.

وباع الناس مقتنياتهم الشخصية في أسواق كبيرة أستحدثوها على الأرصفة والساحات العامة، وباعوا هياكل حديد سقوفها وباعوا بعد فترة ما تبقى من أنقاض الدور، وسكنوا الحدائق العامة، واضعين ما تبقى من حاجاتهم القديمة على شكل دائرة لتظلهم شجرة سدر أو نخلة، رابطين بطرف منها مئزراً قديماً، وموثقين أطراف المئزر إلى الأرض بأوتاد.

وقضى المئات من الناس في المحافظات الجنوبية ومثلهم في العاصمة نحبهم جوعاً ومرضاً متوسدين أرصفة الشوارع وسيارات الحزب والأمن تنقل جثثهم مدعين أمام الناس أنهم شربوا خمراً مغشوشاً وماتوا بسبب ذلك، وأن الأحياء سينقلون إلى مستشفيات حكومية مختصة بعلاج الإدمان وفي حقيقة الأمر تنقل تلك السيارات الحكومية جثث من ماتوا جوعاً إلى مقابر جماعية تقع في أطراف العاصمة والمحافظات.

-79-

وظهرت بنات الفقراء في بارات وملاهي العاصمة بأعداد كبيرة وهن يمارسن البغاء لقاء ثمن كيلو غرام من الدقيق.

كانت المعلومات عن الاقتصاد الوطني تصل بشكل مضطرد إلى الابن عبرمخبريه ومستشاريه وأجهزة الرصد في الآمن الاقتصادي، وكان شعوره بالسعادة يزداد لأنه قد أضمر في دخيلة نفسه انه القائد الحقيقي للمعارضة الشعبية في الداخل، وكلما أزداد وضع الناس الاقتصادي سوءاً كلما أزداد رصيده في نفوسهم كمنقذ يخلف أباه في حكم البلاد.

فيأمر تابعيه بشراء العملات الأجنبية من الأسواق الوطنية، فتتضاعف على الفور أسعار المواد الغذائية، وتتبعها المضاعفات السعرية لكل الخدمات، والأعمال كمتوالية هندسية، وبالرغم من البؤس الشديد الذي واجهته فئات الشعب الفقيرة ألا أنها كانت تحتمل بصبرعجيب، كأنما تدفع فاتورة خنوعها الطويل لحكم الرئيس، الذي مارسته كعادة سيئة، وأدمنته طيلة عقود من السنوات ..

آخر ما تفتق عنه ذهن الابن كان الأستعانة بعدد من المدربين الأجانب لتدريب العديد من موظفات دوائره الوهمية على طرائق للعلاقة الجنسية

بين الرجل والمرأة.
واعتبر الابن أن المرأة العراقية متخلفة في هذا الجانب الحيوي من الحياة، مما يجعل المثقفين من أهل البلاد يضطرون للهجرة إلى الخارج باحثين عن نساء أكثر ثقافة جنسية، ودربه في هذا المجال الحيوي.
وقال في إحدى خطاباته المهمة أمام المئات من موظفاته الجميلات أن عدد المهاجرين إلى خارج الوطن بلغ أكثر من ثلاثة ملايين مواطن، وان عدد سكان البلاد كان قبل أربع سنوات ثمانية عشر مليوناً وأضاف أن سدس سكان البلاد قد هاجروا بسبب عدم دربة المرأة العراقية في ترويض روح الرجل وسحقه جنسياً.
حتى تصيره عبداً لشهواته، عبداً لامرأته أو بمعنى آخر يصير عبداً للدولة، وللنظام الحاكم، وقد أصبح ذلك الجزء الهام من العلاقة بين الرجل والمرأة فناً من الفنون الراقية، وغدت المرأة في العالم تقود الرجل من أنفه، وهو يتبعها طائعاً لأنه أن لم يفعل ذلك حرمته في المساء من لذائذ ومباهج جنسية مدهشة!
وقال بحماس منهياً خطابه الغريب أن نساءنا ليس أقل شاناً وجمالاً وحرارة في العناق من الأوربيات، فقد حباهن الله بجمال آخاذ، وفتنة طاغية، وسمرة جذابة، ولو تمرّن قليلاً لأستطعن بسهولة ربط الرجل بقيد لا مثيل له، ولا يستطيع منه فكاكاً ليمضي إلى الخارج ويصير ضمن صفوف المعارضة للحكم الوطني، الديمقراطي.
وهنا علا تصفيق الرفيقات الحاضرات، وافتتح الابن الدورة التدريبية ووقف الجميع دقيقة حداداً على أرواح كل من سقط دفاعاً عن النظام منذ تولي والده سدة الحكم، وانتهى الحفل بالتصفيق الحماسي.
وفي الصباح قرأ قراء جريدته اليومية الملونة مقالة أفتتاحية يبشر بها الناس بان لا مفر من تعديل المعوج في المجتمع، وتدريب، وتأهيل من لا يعرف، والحياة ليست إلا المأكل، والمضجع، والملبس، فإذا استطعنا أن نقتنع النفس بالقليل من المأكل بسبب الحصار الدولي المضروب على بلادنا من قبل الاعداء، فعلينا أن نهبها المضجع المريح، النفيس، كتعويض.
ولا يتم ذلك إلا بتدريب بناتنا على كيفية أرضاء أزواجهن في الفراش واقترع في مقالته التي تخللتها الكلمات العامية المحببة إلى نفسه والأشعار العامية، التي تتغزل بالأنثى، وبعض أبيات الشعر المنسوبة لأبي نؤاس، حملة وطنية شاملة لإزالة أمية الجنس المتفشية بين الناس.
وفتح باب التطوع للمتدربات الأوائل اللائي يتدربن على أيدي أمهر

الخبراء وأكثرهم فهماً لجسد المرأة، وحاجات الرجل، وختم مقاله الطويل بالدعاء بالعمر الطويل للرئيس، الذي قرب البعيد وابعد القريب، وجعل المستحيل ممكناً واقترب كثيراً من تحرير القدس والصلاة في مسجد قبة الصخرة لولا الخونة وجواسيس المستعمرين، وعدد في الختام المزايا والعطايا، التي ستنالها المتطوعة، وعلى رأس العطايا قطعة أرض تجارية في العاصمة، ومنحة مالية مجزية مع الوسام الوطني من الدرجة الثالثة وهوية خاصة للمتزوجات يكون بموجبها حق الطلاق بيدها، تمكنها تطليق زوجها في أية لحظة تشاء في أقرب محكمة شرعية!

-80-

لم يكن أمام عائلتنا بعد تلك الأحداث، التي راح عمي نوري ضحية لها، وقبلها أبي، وصارت عائلتنا من العائلات المشكوك في أمرها في المحافظة في نظر السلطة، فليس لنا في خلايا الحزب الحكومي أفراد من عائلتنا.

وليس لنا رجال من أهلنا في الأمن والمخابرات، لقد كنا عراة تماماً ولا يسترنا شيء على الإطلاق أمام الحكومة غير الله تعالى.

ورجالنا في سن الخدمة العسكرية، وقد كثرت التبليغات الحزبية والأمنية بخصوص فرارهم من الجيش، كما أن شيوخنا يحضرون صلاة الجمعة، ويسمعون خطب أكثر أئمة الجوامع تمرداً على الحكومة، وأفكار حزبها الحاكم.

وبالرغم من تركنا لبيت جدي الكبير، وتوزعنا على بيوت متفرقة لم يجعلنا ذلك في وضع نشعر من خلاله بالأمن والسلامة، فالدولة كانت تسلك مع من تشك في ولائه لها سبلاً إجرامية لم تفعلها من قبل دولة أخرى مع شعبها.

فمرة من المرات وزع رجال الأمن المتخفون بزي مدني قطع الحلوى المسممة في احد أبواب الجوامع عقب انتهاء صلاة الجمعة، وتسببوا في هلاك كل من وضع تلك الحلوى في فمه بالإضافة لعمليات الدهس المتعمدة والخطف والاغتيال.

وكنا نعرف من هذا وذاك أن هناك خلايا حزبية من الحزب الحاكم تم تخصيص رجالها لإغتيال كل من يرد أسمه في قوائم المشبوهين وتتصرف هذه الخلايا، كما تفعل العصابات الأحترافية، ويحميهم قانون

الدولة، ويمنع الاعتداء عليهم أو مجابهتهم باعتبارهم من رجال الآمن والأسوأ من ذلك كله اعتماد الحكومة في الفترة الأخيرة مبدأ حجز العائلات في سجون عسكرية خاصة في حالات ورود اسم أو أكثر من أفراد تلك العائلات ضمن أسماء الفارين من الخدمة العسكرية.

وكنا قد دفنّا المرحوم عمي نوري بوثيقة وفاة احد أقاربنا في العاصمة مات قبل أستشهاد عمي في محاولة أغتيال سليبا بأيام حيث غيرنا في ورقة الوفاة تاريخها، وأخذت دائرة التجنيد ترسل التبليغ تلو التبليغ بضرورة التحاق عمي نوري للخدمة العسكرية.

وكان عندما يحضر المبلغون إلى دار جدي المهجورة ولا يجدون أحداً يتركون تلك التبليغات في دار المختار، الذي كان يعرف جدي بل كان من أصدقائه المخلصين، وكانا يلتقيان كل أسبوع في الجامع يوم الجمعة.

وكنا قد دفنا الميت في النجف الاشرف دون أن يرف لنا جفن، ولم تهمل الدموع عليه من عيوننا، لأننا لا نبكي على عزيز فقدناه قبل أن نأخذ بثأره وذهبت جدتي مع الذاهبين لدفن الشهيد العزيز، ولئلا يعرفها رجال الآمن والمخبرون في سيطرات الطريق بعد أظهار صورتها في التلفزيون عدة مرات، وكان السبب في عدم الاهتداء إلى جدتي أن الناس عمدوا إلى التبليغ الكيدي ضد عجائز أخريات!

وكل من يريدون أزالتهن من الوجود، والتخلص منهن بأسرع الطرق، وقد امتلأ قسم التحقيقات في قصر النهاية الأمني بعدد كبير من هاته العجائز المظلومات!

وقد احتاج المحققون إلى سنة كاملة للوصول إلى يقين في تهمة المتهمات اللائي كان نصفهن في خريف عمرهن، وقد شتت عذاب السجن عقولهن وصرن لا يفرقن بين الأعتراف بأشياء لم يقترفنها وبهلوسات لا رابط لها.

وكانت أوامر نائب الرئيس واضحة وقد خرج سليبا من المستشفى بعد أيام قليلة، وطلقة من طلقات المرحوم عمي مازالت مستقرة قريباً من عموده الفقري، ولم يستطع الأطباء إخراجها لخطورة مكانها، منتظرين أن تتليف حولها الأنسجة ويصير بالإمكان استئصالها دون خطورة.

وكانت تعليماته أن يجد المحققون تلك المرأة العجوز، وأبنها الجريح حتى ولو كانا تحت الأرض لتقصي أسباب تلك المحاولة، التي كادت أن تؤدي بحياته، ومعرفة المتآمرين عليه وأي الدول الأجنبية التي تقف ورائها.

وأمام تلك الاحتمالات المرعبة، فكرت عائلتنا بالبحث عن مكان بديل أكثر أماناً لأفرادها، فاتجهت أبصار أعمامي صوب شمال وطننا، فقد كان الأكراد من سكان شمال البلاد يقلقون النظام الحاكم بثوراتهم المتكررة ومطالبتهم بالحرية والحكم الديمقراطي، ولان الأرض التي يعيشون عليها في شمال الوطن منطقة جبلية وعرة المسالك، فلا تستطيع قوات النظام إخماد ثوراتهم المتكررة باليسر، الذي تفعله قوات النظام في الجنوب حين يثور سكان الجنوب.

فتبيد الحكومة جموعهم الثائرة بالطائرات، والمدفعية الثقيلة وفي بعض الأحيان كما حدث في الأنتفاضة الأخيرة بصواريخ الأرض أرض الضخمة!

ويُجهزعلى كثيرين منهم بتسميم مياه الأهوار والأنهار التي تقيم قريباً منها قراهم، ومدنهم فيموت الناس بالجملة، وتنفق حيواناتهم وتنتهي ثوراتهم بفرار الباقين عبر الحدود إلى الدول المجاورة.

ففكر الرئيس بحل مشكلة الأكراد وأهل الجنوب معاً ومرة واحدة فقرر أن يسكن أهل الجنوب في الشمال ويجعل أهل الشمال يستقرون في أهوار الجنوب!

ولأن أهل الجنوب لم يعتادوا صعود الجبال أو تحمل البرد الشديد والثلوج في الشتاء، فسيموت نصفهم في الأقل في السنة الأولى.

ولن يعتاد الباقون على البقاء على قيد الحياة في هذه المنطقة قبل ثلاثين عاماً، وهي الفترة اللازمة ليتأقلموا مع ظروف البيئة الجديدة كما أخبره الخبراء، وبينهم جون ماكفي أستاذه الأجنبي وصديقه الأمين.

أما بالنسبة لأهل الشمال من الأكراد، فأنهم إذا سكنوا أهوار الجنوب في حرها اللافح صيفاً، والمستنقعات الواسعة الممتدة عدة مئات من الكيلومترات، وهي تمثل جزءاً واسعاً من مساحة العراق الجغرافية فسيموت تسعون بالمائة منهم، أن لم يكن من مرض الملاريا المنتشر، وضربات الشمس ولدغ الأفاعي، فمن مرض البلهارسيا والزحار، والدودة الشريطية، والماء الملوث، والظروف المعيشية الصعبة، وعدم التأقلم، وتسميم المياه بالمواد الكيميائية المسببة للعقم، والأورام السرطانية، التي دأبت المفارز العسكرية الكيميائية بين فترة وأخرى برمي الأطنان من المواد السامة تلك، لقتل الناس، والحيوانات والنباتات.

وأخذ الرئيس يفكر طويلاً بهذا المشروع العملاق الذي لو نفذ كما خطط له الخبراء، فسوف ينام قرير العين فترة ثلاثين عاماً مطمئناً من عدم

حدوث تمرد في الشمال أوالجنوب، وطلب من مجلس الوزراء أعداد الخطط اللازمة لإعادة توزيع السكان في البلاد، وبدأت الوزارات بالتعاقد مع الشركات الأجنبية لإعداد الخرائط اللازمة لإنشاء مستعمرات سكنية وسط أهوار الحمار والعمارة، وبعثت الشركات موفديها مع آلياتهم ومسابرهم وحفاراتهم لأجراء التجارب على بناء جزر مصطنعه من قصب البردي وسط الاهوار، لإقامة أكواخ القصب فوقها.

واصدر الرئيس قراراته بإعطاء مميزات مادية لكل فرد من أبناء الجنوب يرغب بترك الجنوب، والاستقرار في الشمال، فازدحم أهل الجنوب الفقراء حول مراكز المحافظات، وبأيديهم أوراق طلباتهم للعيش في الشمال، معتقدين أنهم سيحصلون على المميزات المادية، وبعدئذ يحلها حلال المشاكل، ويفرجها مفرج الكروب، وأنظمة الحكم غير خالدة إلى الأبد، وحين يسقط نظام الحكم الحالي سيرجعون من جديد إلى جنوبهم وقد ربحوا ما أعطته لهم الدولة من حوافز مادية!

أخذت الطلبات تزداد وقفز الرقم من عشرات الآلاف إلى مئات الآلاف وقفزالرقم بعد ذلك بفترة قصيرة إلى الملايين، ولم يصدق الرئيس إحصائيات أجهزته الإدارية، وبرز في خاطره سؤال أقلقه ...

أشعب الجنوب الشيعي ضاق ذرعا بأرضه؟ وهي الأرض التي تنتج سبعين بالمائة من نفط البلاد، أم انه ضاق بحكامه من المحافظين، ومدراء الآمن والشرطة والمخابرات ورجال الحزب الحاكم؟

أم انه ضاق بكل الأطراف الحاكمة؟ أو أنهم فعلوا ذلك لأنهم شعب من اللصوص، فهم من أجل المميزات المادية التي وفرتها لهم القرارات الحكومية يبيعون أرضهم وتأريخهم، ولم يكن يستطيع الإجابة عن تلك الأسئلة، فوجهها إلى أجهزته الإدارية، والأمنية والحزبية وبقي ينتظر الإجابات.

-81-

عندما ثار الأكراد وتصدوا لحكم الرئيس بالسلاح قبل سنة من مقتل عمي نوري تعسرت كل السبل العسكرية على الرئيس للنيل من ثوراتهم وأبلغه قادة الجيش أن الطائرات لا تستطيع أن تفعل شيئاً في المناطق الوعرة، التي يتمركز فيها المتمردون الأكراد.

وكذلك الألوية الآلية بما فيها سلاح المدرعات لا تستطيع المرور، وحاولوا معهم بالمشاة والمدفعية، ورجال المهمات الخاصة، فدمر

المتمردون معظم الوحدات المتقدمة باتجاههم.
فطلب الرئيس من قادته خرائط المنطقة، وكانت مناطق القتال قريبة من مدينة صغيرة، ودون أن يفكر طويلاً أشار إلى تلك المدينة على الخارطة.. لقد كانت بقعة سوداء مدورة من الحزن قال أضربوا هذه المدينة بغاز السارين السام وأكمل :
- يبدو لي أن إمدادات العملاء الخونة تمر عبر هذه المدنية.
وفي ذلك اليوم الهادئ كانت المدينة تعيش حياتها العادية، وسوقها الكبير يمتلئ بالباعة، والمتسوقين، والأطفال يمرحون أمام الدور الحجرية والنساء ينشرن الغسيل، والقدور تفور على النار بطعام الغذاء، حين جاءت الطائرات بمقدماتها الرمادية الشبيهة بجماجم طيورعملاقة.
مرت الطائرات أول الآمر فوق المدينة بسلام مستطلعة متوجسة ثم عادت من جديد بسرعة هائلة وعلو منخفض مخلفة دوياً هائلاً، وخلفت سحابات كثيفة من الرماد المنتشر، وبسرعة نظر أهل المدينة إلى الطائرات، وبدت لعيونهم ست نقاط سوداء في صفحة السماء الزرقاء واختفت بعد ذلك في الأفق..
توجست الأمهات من تلك الطائرات، فادخلن أولادهن وبناتهن اللاعبين أمام البيوت إلى البيوت، اخذ الرماد الذي خلفته الطائرات يتفاعل ويتحول إلى لون أحمر، واخذ ينزل إلى الأرض كرماح مستقيمة شديدة السرعة، صار المزدحمون في السوق حشداً متراصاً بوجوه مرتفعة عن الأرض ينظرون إلى تلك الخطوط الحمراء النازلة من السماء!
وحين بلغت مسافة خمسين متراً عن رؤوس الناظرين إلى السماء أنفتحت تلك الحزم المدببة متحولة إلى غمامات شديدة السواد، وغابت الشمس عن المدينة لنصف ساعة جحيمية خانقة.
سقط جمهور من نساء، ورجال وأطفال على الأرض يتلوون لأختناقهم بسبب أنسداد قصباتهم الهوائية، بغاز السارين السام، وأخذوا يسعلون دون أنقطاع مخرجين كل ذرة أوكسجين في رئاتهم، وتعويضها بذرات الغاز السام ثم أخذوا يتقيؤن ألسنتهم، وقبل أن يحدث للبالغين ما حدث فقد جحظت عيون الأطفال، والرضع الذين تحملهم أمهاتهم إلى صدورهن، وفتحوا أفواههم الصغيرة الوردية، وتشنجت أطرافهم، وتوقفواعن التنفس، وتحولت ألوان وجوههم الوردية إلى سواد مبقع بنقط حمراء.

-82-

لم تمض على مرور الطائرات غير ساعة وبضعة دقائق حتى تحول سكان المدينة الصغيرة إلى ما يشبه هشيم مجتث تعبث به ريح الظهر البارده...

كان السوق كما كان قبل غارة الطائرات ولكن الفارق الوحيد أن الناس تمددوا على الأرض بوجوه جامدة بدلاً من شرائهم الخضر، واللحم والبيض والخبز كعادتهم كل يوم...

هجعوا على الأرض بسكون وبأوضاع مختلفة بدلاً من أن يغذوا سيرهم بأتجاه بيوتهم، وأهلهم داخل البيوت الحجرية....

كانت العائلات التي خافت مصير أهل السوق اجتمعت في تلك الدور المحمية من القصف المدفعي بأكياس الرمل، لكنها لم تكن منيعة على الغازات الكيميائية السامة..

نعم في تلك البيوت الحجرية ماتوا جميعاً كأضمومات ثوم متجمعة، بألسنة متدلية وعيون جاحظة، وتقيأ بعضهم قطعاً وردية من رئاتهم...

في ذلك اليوم المرعب مات ثلاثة آلاف، وبضعة عشرات ماتوا جميعاً دون ضجيج، بسلام وهدوء بعد أن خمشت أظافرهم صدورهم ووجوههم، وحين جاءت بعد ذلك كاميرات التلفزة الأجنبية عن طريق سيطر عليها الثوار الأكراد، وصورت هذه الكاميرات المأساة، وبثتها عبر الأقمار الأصطناعية لمعظم قنوات التلفزة الدولية لم يحدث شيء مهم غير صدمة عامة للناس في كل مكان من العالم!

كان الرئيس يتفرج مع حوريته على جهاز تلفزيون يستلم بثه عبر الأقمار الاصطناعية، وقد أختار قناة تبث حفلة تتويج ملكة جمال الكون إلا أن القناة التلفزية قطعت بثها، وبثت فيلم المدينة العراقية المنكوبة، التي مات سكانها جميعا بغاز السارين.

وعند ذلك ظهر الأهتمام على وجه الرئيس فقد أحس بالخطر الحقيقي، وألقى ما في يده من الكرزات واللب، وأبعد عنه جسد حوريته العاري، وقال في نفسه أعطيت الآمر للقوة الجوية ونسيت متابعة تنفيذه...

ويبدو أن كارثة إعلامية قد حصلت.. حاولت الحورية أن تقترب منه ثانية، وهي لا تدري ما الذي حصل، فقد كانت مخدرة تماماً بما شربت وبالضوء الخافت، ونداءات جسدها بسبب بعدها عنه فترة طويلة، وبعصبية أرتدى ملابسه العسكرية، التي أنكمشت ياقتها كان ذلك إيذانا للحورية بان حبيبها سيختفي عنها عدة أيام أخرى، وإن لذائذهما الحسية

ستتوقف لفترة طويلة، فأمسكت بساقيه باكية طالبة منه أن يبقى معها فترة أضافية فقال لها انه سيعود إليها قبل الفجر، وعليها أن تنتظره، ففرحت لقصر مدة غيابه، وتركت ساقيه فخرج من غرفة الحب كالعاصفة المدومة..

-83-

حين أعدت الشركات الأجنبية دراساتها لإنشاء مستعمرات سكنية لأستيعاب أربعة ملايين إنسان في تلك المستنقعات الشاسعة في الجنوب، وقد وضعت الشركات مدداً تقريبية لأنجاز المشروع، ولم تنل تلك المدد موافقة الرئيس، وطلب تقليص المدد إلى أقصر مدة ممكنة.

وبعد جهود مضنية، وأبتكارات خلاقة لعلماء ومهندسي الشركات، ومضاعفة القيم الإجمالية للمشروع ثبتوا له مدة الأنجاز بفترة عشر سنوات، فوضع الرئيس ملف الشركات جانباً، وهو يقول في نفسه ومن يبقى عشر سنوات أخرى ليرى نتائج عمله؟ من يضمن بقاءه على كرسي الرئاسة طول هذه الفترة وقال في نفسه : نحن نعيش يوماً بيوم مثل عمال اليومية..

وضحك ساخراً، وترك الملف على منضدة المداولات، فطار صقر الرئيس القابع على قوس خشب معلق في زاوية الردهة قريباً من خمه، وحط على ذلك الملف، وذرق فوقه.

وحين رأى الرئيس ما فعله الصقر بالملف الكبير، أبتسم وقهقه بعد ذلك ضاحكاً وأمر رئيس التشريفات أن يصدر أمراً للشركات بإجابة الصقر العملية على عروضهم!

وترك المكان ليلتحق بحوريته التي وعدته أن تريه في تلك الليلة طريقة لم يفعلاها منذ أن أستولى عليها جسداً وروحاً، طريقة تجعله يعاتبها لأنها لم تفعلها معه منذ أول ليلة ألتقاها لتذيقه فيها كيف يمكن للرجل أن يلتقي بروح المرأة وبدنها، ويتعلم كيف يقبض براحتيه على جسدها المتحول إلى روح عذبة شيء فريد ومبهج لم يجربه من قبل مع امرأة أخرى أبدا .

وفي طريقه إلى حوريته قرر أن لا ينتظر عشر سنوات حتى يكمل هولاء الأوغاد من الأجانب جزرهم الملعونة، وأن لعلاج حريق حلبجة الإعلامي ينبغي معالجته بحريق أضخم وأعنف، وفي الطريق إلى قصره أختمرت في رأسه فكرة ملحمية، سماها ملحمة الإبادة، وغير أتجاه مسير سيادته وعاد من جديد يتجه صوب غرفة العمليات رقم واحد في قصر

المعارك الكبرى وقد نسي وعده لحوريته بالعودة..

كانت على أحر من الجمر تنتظره، وقد تعطرت ووضعت الزهور وأحضرت المساند التي تتكئ عليها إثناء تنفيذ خطتها المبتكرة، وتمرآت في المرآة، كان وجهها قمراً في تمامه وعيناها تبثان شعاعاً لا يقاوم من رغبات معلنة، والخنس اللطيف في أنفها زادها تألقاً والأرتفاع في على فوديها يخلب الألباب.

وصدرها يمتلئ بثديين بارزين وجسدها، الذي طوعه العنف صار بمرور الأيام أكثر لدانة، وامتلاء وبريقاً، كان كل شيء فيها يثير رغبات مكبوتة في الرجال لا يمكن كبحها.

وشاء حظها العاثر في تلك الليلة المشئومة أن يجيء ابن الرئيس البكر مصادفة إلى القصر المهمل من قصور أبيه العديدة، وهو لا يدري أن أباه كان يزور ذلك القصر كل ليلة، وقد أسكن فيه حورية لم يطالع مثل جمالها أبداً في طول البلاد وعرضها.

دخل الابن دهشاً من علائم الحياة الدابة في أجنحته، وغرفه وحركة الخدم والسفارين، والوصيفات، ورجال الحماية، لم يعترض دخول ابن الرئيس احد.

دخل يبحث في الغرف والأجنحة حتى وجد الحورية تعد نفسها قريباً من المرآة بانتظار الأب الولهان، كاد أن يغشى عليه من فرط جمالها تماسك بصعوبة..

ارتبكت هي وجفلت مثل طائر الغرنوق، ماذا يريد منها ابن حبيبها؟ أغلق باب غرفة النوم، واخذ قلبها يدق عنيفاً قالت مع نفسها، ماذا يريد أن يصنع ؟ قالت متصنعة الهدوء:

ـ أهلا وسهلا بك..

قال وهو يتقدم منها بطوله المديد، وقد سال اللعاب من فمه، وهي عادة لم يستطع التحكم بها كلما وقعت عيناه على أنثى جميلة:

ـ من أنت يا حلوة ومن جاء بك إلى خم الدجاج هذا؟

لم تشأ أن تخبره أنها من أملاك أبيه الموقوفة عليه وحده، مخافة أن تعلم سيدة القصر بزواجها من الرئيس، وبذلك تسبب المشاكل للرئيس وخصوصا أن أخ السيدة الأولى هو وزير دفاع البلاد، وبيده أمور الجيش، قالت مرتبكة، وهي تتراجع إلى الخلف خائفة من نظراته الهائجة :

ـ أنا هنا موظفة من موظفات أبيك!

أمسكها من ساعدها وقال وهو يسحبها إليه :

ـ واضح انك موظفة وموظفة شاطرة جداً!
وكأنما يحمل شيئاً هشاً قابلاً للكسر في أية لحظة حملها بين ذراعيه وهمست له متوسلة وهي تذرف الدموع:
ـ لا.. لا أقتلني ولا تفعل شيئاً.. أقتلني أرجوك.. أنا.. أنا زوجة أبيك
فصعقته المفاجأة!

-84-

من غرفة العمليات أنطلقت أوامر عملية الإبادة الكبرى حيث شرعت عشر فرق عسكرية تمشط الأرض في شمال البلاد من الأكراد، وتساقطت بيوت القرى، والمدن والقصبات تحت زحف البلدوزرات الضخمة.
واستمرت العمليات العسكرية لمئات الكيلومترات من المسح، وكان الناس من شباب، وشيوخ ونساء، وأطفال يجمعون ويقيدون وتعصب عيونهم بلا تمييز، ويشحنون في أحواض شاحنات عسكرية تسير بأرتال مصحوبة بأفراد الحمايات العسكرية، سائرة في الممرات الجبلية، والوديان صوب الحدود الغربية للبلاد القريبة من حدود المملكة العربية السعودية.
وهناك كان يجمع الأكراد في العراء، ويحيط بهم الجنود المسلحون من كل جانب، ولا احد يعرف ماذا يحصل، وماذا يراد بهم أو ما سيحدث لهم كان الرئيس يتلقى أخبار العملية الضخمة أولاً بأول.
وكانت تصله الأرقام وفي ذات الوقت لم تستطع الحورية الوقوف على قدميها، فهرعت إليها الخادمات بعد أنصراف أبن الرئيس وحمايته، وحملنها ووضعنها على السرير، كانت بين الموت والحياة.
كانت بحالة هيستيرية وبكاء مستمر، وتنادي بين الحين والآخر باسم الرئيس متقطعة الأنفاس .

-85-

كان الرئيس وقتها مزهواً بأنتصاره في موضع القائد العسكري العام وأخيراً صفق فرحاً حين وصل رقم المرحلين من الأكراد إلى النصف مليون إنسان.
أنتشروا في عراء الصحراء الغربية ينتظرون المجهول، وبأمر مباشر من الرئيس تم عزل الأطفال، والنساء وكبار السن عن الرجال في عمر الجندية، ودون ذلك العمر بقليل، وصار العدد المعزول من الرجال يصل إلى مائتي ألف، فصفق الرئيس فرحاً، وقال حالماً :

مئتا ألف من الشباب! أنها وليمة عظيمة لرمال الصحراء سيظهر البترول بعدها ولن تقوم بعدها للأكراد قائمة، ربما بعد قرن من الزمان، وبعدما يتناسل الأكراد ويجيء جيل جديد منهم يحلها الحلال!

وأعطى أوامره بتنفيذ القسم جيم من العملية.

وكان ذلك القسم ينص على دفن المأتي ألف شاب في حفرة جماعية أعدتها شفلات الهندسة العسكرية بعد أن تم تقييد أطرافهم الأربعة، وما أن طلعت شمس الصباح حتى نفذ القسم جيم من العملية، وبقي الجزء الذي ينص على توزيع النساء المتبقيات بعد العملية على أهل غرب البلاد، ولكل من يرغب الزواج من إحدى هاته النساء، بشرط التعهد أمام الحكومة بإعالة الفتاة أو المرأة.

وما أن انتهى أمر أولئك الرجال بدفنهم أحياء حتى تم تسفير النساء والأطفال إلى مراكز المحافظات في الوسط والجنوب، وعند ذاك وضع الرئيس بيريته على رأسه، وخرج من مقر القيادة العليا، وعند الباب أمر احد رجال الحماية بصرف الإكراميات لضباط القوات المسلحة، وأن تُعطى مزارع وسيارات لقادة الفيالق، ومزارع لقادة الفرق، وسيارات لقادة الألوية.

وما أن غادر القاعة وسط فرح القادة بهذه الهبات الجديدة حتى لحقه موفد خاص قادماً من قصر الأحلام، وأبلغه ما فعله أبنه البكر بحوريته الجميلة، فشعر بقلبه يخفق بشدة وأن مكان الطلقة القديمة في جسده تنغزه، وأن قدميه لا تقويان على حمله، فتحامل على نفسه كأنما أصيب بطلق ناري في صدره واستقل سيارته، وقادها بسرعة جنونية صوب قصر الأحلام المعزول عن العالم، والدموع تنهمل من عينيه وبين الحين والآخر يضرب بكفيه المقود بعصبية متمتماً من بين أسنانه :

ـ البلاد تغص بالقحاب ولا تتحرش إلا بالمرأة الوحيدة، التي اختارها قلب والدك؟ الويل لك يا ولدي أن كنت قد فعلت حقاً ما أخبروني به.

لأول مرة في حياته شعر بالضعف، وان نصره المؤزر على الأكراد قد تبخر، وكان من المفروض أن يحتفل بذلك النصر مساء مع وزرائه وقادة جيشه، فلم يحصل من قبل في عهود الرؤساء السابقين جميعاً أن يقتل هذا العدد الكبير من الأكراد، وهذا نصر ما بعده نصر.

لكن سهام الحظ خائبة، وترتد في بعض الأحيان صوب مطلقها فها هو ولده المدلل التافه يشطر قلبه إلى شطرين.

تساقطت الدموع من عينيه بلا حساب، ومرت سيارته على الطريق

السريع إزاء محلة يسكنها الفقراء، ورأى مجموعة كبيرة من الناس فوق احد البيوت تتهيأ بالفؤوس للأنقضاض على كلب شرس مسعور لا يدري احد كيف غافل الجميع وصعد إلى سطح احد الدور وأستقر هناك وملأ الدنيا نباحاً وهاجم بشراسة لم يعرفوها من قبل في الكلاب كل من تقدم نحوه، وتوقف الناس عن ضرب الكلب المسعور، حين رأوا سيارة الرئيس الفخمة المنطلقة بسرعة كبيرة، ومن حولها وخلفها سيارات رجال الحماية.

وعندما اختفت السيارات في الأفق عن أنظارهم عادوا من جديد لمعالجة مشكلة الكلب المسعور، الذي كان يستبسل في دفاعه عن نفسه، وعن مكانه فوق السطح.

عندما دخل غرفة نوم حبيبته تدافعت ثلاث وصيفات للخروج منها اقترب من سريرها نظرت صوبه، وتساقطت الدموع من عينيها قالت بضعف محاولة النهوض عن سريرها محاولة أن تبتسم:

ـ أنا بخير...أجل بخير..

وبحركة من يده مثلما يفعل قائد مهزوم يرفض تبريرات الهزيمة من جنرالاته منعها من النهوض، وقرب كرسياً من سرير حبهما.

جلس عليه محطماً لم يقل كلمة نظر حوله مرتبكاً سمعها تردد بغباء وهي سارحة الفكر:

ـ أنا بخير.. بخير

كان يعرف انه لو قال كلمة واحدة لسفحت دموعه كالمطر، لكنه لم يكن يتمنى أن تراه يبكي قريباً منها كالمرأة قالت محاولة تهدئته لئلا يفتك بابنه بسببها:

ـ لم يكن يعرف أني ....

أراد أن يسألها، لماذا أخبرته بزواجهما؟ فقالت كأنما عرفت ما يجول بخاطره من أسئلة معذبة ..

ـ فكرت أني إذا لم أخبره بحقيقة العلاقة التي بيني وبينك، فانه سيسيء معاملته لي، وأسف فربما سيبلغ السيدة الكبيرة بما سمع مني، وربما سيجعلك هذا في موقف صعب، وأنا اعرف أن أخاها وزير دفاعك، وبلادنا تخوض حرباً منذ وقت طويل ضد جيرانها!

وما أن قالت ذلك حتى أخذت نفساً طويلاً، وسفحت عيناها دموعاً غزيرة، وبدت في عيني حبيبها، وهي تغتصب ضحكاتها لتهدئته أجمل مما كانت في أي وقت آخر.

ومع ذلك الحزن الشفاف والشحوب، والخمش الخفيف البادي على وجهها من آثار الأظافر، وشعوره المستفز بان معاملتها قد اسيئت قبل ساعات لا أكثر، وكانت قد أعدت مرافعتها للدفاع عن نفسها، منذ أن خرج الابن وفصيلة المتوحش من غرفتها، وقد حفظت عباراتها كلمة كلمة وداخلها ينمو شعور بأنها شهيدة، وإذا ماتت في يوم من الأيام فسيقام لها الضريح اللائق بها مثل أضرحة العشاق والمتيمين.. تنهدت قائلة:

ـ أخبرته في البداية أني مجرد موظفة في قصرك!

وقف ممتعضاً مما سمع.. أقترب من النافذة ورفع الستارة البيضاء الثقيلة، كانت الشمس ترسل أشعتها على الحديقة والأغصان.

والثيل المقصوص يتمايل بفعل نسمات تهب قادمة من الشمال، وأخذ يراقب حشرات ملونة تطير من غصن إلى آخر، وسقطت دون أرادة منه دموعه أخذ يمسحها بمنديل صغير مطرز بقلب الحب.

كان طيلة الوقت يمسكه بيده ليتجاوز به هذه المحنة لم تقل الحورية شيئاً، وهي تشعر ببكائه الداخلي شعرت بالدوار، والتعب أغمضت عينيها وهدأ الرئيس قليلاً، وتمتم مع نفسه :

ــ الويل لهم .. الويل، أتفهمين معنى هذه الكلمة؟

صمت بعد ذلك لفترة طويلة، وفجأة خرج من تلك الغرفة كالعاصفة، وأستقل سيارته رفع بيريته عن رأسه، فعرف ضباط الحماية من هذه الإشارة المتفق عليها أنه يريد الخروج إلى خارج بغداد.

فأعطى الضباط الإشارات بإجهزة يحملونها بأيديهم لفوج الحراسة الخاص بالرحلات خارج بغداد، لمصاحبة سيارة الرئيس، وحين خرجت سيارته من ممر القصر.

كان نصف سيارات الفوج المسلحة بالمدافع الرشاشة الثقيلة قد سبقته على الطريق السريع، والنصف المتبقي يتبع سيارته.

اخذ الموكب السريع المسلح يخترق شوارع بغداد، حتى غادرها صوب الصحراء الغربية، وبعيداً عن الطريق العام بعدة كيلومترات نزل الموكب وأنقسم فوج الحماية إلى مجموعات حراسة متحركة، وأتصل الرئيس بوزير دفاعه عبر سيارات الإتصال، وطلب منه المجيء بطائرته العمودية لأمر هام..

-86-

بعد نصف ساعة من ذلك الإتصال ظهرت ثلاث طائرات عمودية،

وهبطت بضجة مثيرة كل واحدة منهن غباراً كثيفاً، وترجل وزير الدفاع من أحداهن.

ونظر الرئيس إلى كرش وزير دفاعه المترجرج، وفكر أن وزير دفاعه فقد لياقته البدنية منذ زمن بعيد، ولم يعد صالحاً كوزير دفاع، ولو شاء الله وبقي وزيره حياً فترة أخرى من الزمن، فسيرغمه على أن يكون رشيقاً، وبعد أن أدى الوزير التحية العسكرية، وقدم للرئيس ضباط ركنه، صحبه الرئيس إلى الخيمة، التي أعدها لهما فوج الحماية .. قال لوزيره:

- مرحباً.. أين أنت يا رجل؟

- لا أكاد أن أراك يا سيادة الرئيس.. أنا من يدك اليمنى ليدك اليسرى

قدم بعد ذلك جندي أسود اللون فنجاني قهوة عربية:

ـ أردت أن نتحدث عن ذكرياتنا المشتركة.. أتذكر تلك الأيام الجميلة التي عشتها في بيتكم يتيماً ألبس ما تجود به علي من ملابسك وأحذيتك، وتقتسم معي مصروفك ؟.. هي بحق اسعد أيام حياتي!

ثم قال الرئيس بعد فترة صمت مؤثرة، مغيراً موضوع حديثه:

ـ ما رأيك بعملية الأكراد الأخيرة؟ أنها فتح عسكري كبير، لقد منعنا العدو من أن يضرب جيشنا من الخلف كعادته دائماً.

قال الرئيس وداخله صراع عنيف، لكنه عرف كيف يخفيه عن وزيره وألان يا أبن عمي العزيز! (بعد أن حدق طويلاً بوجه وزيره العابس)

ـ عرفت رأيك... أجل عرفته من دون أن تقول شيئاً ...

ملأت الدهشة وجه الوزير من سماع الرئيس، وهو يذكره بالقرابة التي بينهما، فهو لم يناده بابن عمي العزيز، منذ زمن بعيد، لكنه كان يعرف أن الرئيس يملك في كل لحظة ما يدهش به الآخرين ثم هذا التبدل السريع في كلامه، حول الأكراد يا إلهي انه يعد أمراً لي!

وبالرغم من شكوكه إلا أنه أصاخ السمع للرئيس:

ـ أنا طوع أمرك يا خال أولادي، وبناتي، تذكر، وأنت تعود إلى بغداد بأن ليس دائماً على الرئيس أختيار اللحظة الصائبة، وفي بعض الأحيان تقوده غرائزه، وهي كثيرة ومتناقضة إلى فعل ما يكرهه، لكن ما العمل مهنة قيادة العراقيين وعلى وصف جون ماكفي تتطلب قسوة في بعض الأحيان أجل قسوة!

وتمتم بصوت مسموع:

ـ ما أقذر عمل الخلفاء والحكام والرؤساء منذ خمسة قرون في العراق؟ عملهم أردا من عمل الكناسين، وإذا مارسنا السلطة في هذا البلد، لا

نستطيع تركها أبداً إلا إذا ساروا بنا إلى اللحد حتف أنوفنا، أو إلى المشنقة قبل اللحد!

كان وزير الدفاع بطيء الفهم، والرئيس يعرف ذلك العيب فيه، وبقي الوزير يفكر بكلمات رئيسه دون أن يفهم غاياته، وأدى التحية مجدداً، وردد كالببغاء:

ـ أنا تحت آمرك سيدي!

ـ خذ ضباطك، وارجع إلى مقر وزارتك بارك الله فيك!

أوجس الوزير خيفة من لهجة رئيسه الجافة، لكن لم يكن أمامه غير أطاعة الأوامر الموجهة إليه بالعودة إلى بغداد ..

-87-

بعد ربع ساعة أرتفعت الطائرات العمودية مثل عناكب عملاقة.. كان الرئيس يحدق بأتجاه طائرة الوزير التي في الوسط، واخذ الرئيس من احد ضباط حمايته مدفعاً محمولاً لمقاومة الدروع، وصوب باتجاه الطائرة التي كانت في الوسط تماماً، وقال وهو يضغط على الزناد، ووجه الضابط الذي يقف إلى جواره يمتلئ بالدهشة وسمع الرئيس يقول:

ــ اذهب لتأدية واجبك يا وزير دفاعي، وابن عمي العزيز، فعليك أن تقود قوافل الشهداء في موكب القيامة، ستكون أمام فيالق شهداء حروبنا، فليس من المعقول أن نترك مليوناً من شهداء جيشنا من الضباط والجنود في شعاب الجنة متفرقين دون أن يقود جموعهم احد من طرفنا!

وبعد لحظات من تلك الرمية الموفقة أنفجرت طائرة الوزير متحولة إلى كتلة من اللهيب والدخان، وسفحت من عيني الرئيس دمعتان كبيرتان، وهو يرى أجزاء الحطام يتناثر هنا وهناك فوق الصحراء.

وبعد أن خفت النيران أمر حمايته بجمع أشلاء الضحايا في أكياس كان آمر الفوج الخاص بالحراسة يحتفظ بها عادة لجمع القمامة وغادر الرئيس بعد ساعة المكان حزيناً والدموع تنهمل من عينيه بغزارة!

-88-

لم تمض سوى ستة شهور على تأسيس الحزب الوطني الجديد حتى ذاع صيته، وكثر مناصروه، وكانت ميزته الجديدة على الأحزاب الأخرى أن المنتمي إلى صفوف مناضليه يُعطى مميزات الموظف العامل براتب شهري.

وله مكافآت مجزية عن الأعمال التي يكلف بها بين وقت وآخر، والراتب يخضع لعلاوات تراتبية متصاعدة كل عام، وكانت البلاد في تلك الفترة تمر بأزمة اقتصادية خانقة.

المعامل الحكومية معطلة والأراضي الزراعية يغزوها الملح، وتصيرحالة الفلاحين من سيء إلى اسوأ، والتجارة معطلة بسبب الأنقلابات العسكرية الكثيرة.

وحالة الناس صارت من فقر إلى فقر أشد .. كانت ثمة مهمات حزبية بسيطة تناط بأفراد الحزب لقاء أجرهم الشهري كلصق إعلانات الحزب أثناء الليل، والهتاف باسم الحزب الجديد داخل صالات السينما بعد أن تطفأ الأضواء، لعرض الفيلم.

وتوزيع المنشورات أثناء التجمعات الشعبية والمناسبات الدينية والوطنية لم يكن احد يعرف من أين تأتي هذه الأموال، وما هي مصادرها ؟ ليتم توزيعها هكذا وبهذا الكرم المبالغ فيه على أفراد الحزب.

كان الوحيد الذي يعرف كل تلك المعلومات هو سيلبا، ومجموعته الأمنية فقد كان يزور كبار التجار في البلاد حاملاً لهم جرائد الحزب، ومنشوراته ويطلب منهم التبرع لحزبه، وحين ترى عيون التجار مجموعته الرهيبة، التي هي مجموعة ضمت أعتى أشقياء بغداد المعروفين.

وهم بأنتظار تلبية أي أمر يأمر به رئيسهم عندها لا يكون عند التجار خيار غير مدّ يد العون لذلك الحزب، لدفع الشر عن حياتهم ومصالحهم.

وبلباقة يأخذ سيلبا المبالغ، ويحرر لهم وصولات استلام بالمبالغ لتكون تجارتهم ومصالحهم بحماية أشقياء الحزب.

ولم يعارض هذه الأتاوات سوى تاجر قماش واحد، وكانت نتيجة تلك المعارضة أن سوق الملابس أُحرق بكامله في ذات الليلة!

وتعرض التاجر للوم وكراهية تجار الملابس المتضررين بذلك الحريق واخذ الحزب الجديد يزدهر يوماً بعد يوم والأموال تتكدس في خزائنه ونشاطات الحزب تتسع وتتنوع، ولا احد من أصحاب الفكر في البلاد يفهم شيئاً مما يريد الحزب تحقيقه!

فهو يهاجم الشيوعية والرأسمالية معا، ويزدري الأديان السماوية ويعتبر المتدينيين رجعيين، وكل الأديان على حد السواء، وينادي بفصل الدين عن السياسة.

ويطالب بحرية المرأة ويدعي الاشتراكية، ويهاجم أفكارها بضراوة في

ذات الوقت، وحين يطرح فهمه للأشتراكية تختلط في أدبياته الأفكار وتتقاطع متحولة إلى خواطر أدبية لا رابط لها، ولا معنى، ويرجع مفكروه إلى الدين لتفسير ما تعنيه أشتراكيته!

ويفشلون في ذلك أيضاً وفي حقيقة الآمر أن الأستاذ الشيوعي سابقاً والذي عينه الحزب لوضع نظريات الحزب فيما يخص الأشتراكية التي يؤمن بها الحزب مات بالسكتة القلبية بسبب شربه المتواصل للخمرة المغشوشة.

فماتت معاني الاشتراكية في أفكار الحزب الجديد، ولم يكملها أحد بعده فبقيت ظلاماً وعتمة لم يستطع أحد فهمها أو التحدث بشأنها، ولم يهتد سيلبا إلى مفكر يخلف المرحوم ليكمل ما بدأ به.

وفي غمرة المشاغل والصعوبات التي تواجه الأمر في بدايته، وقد نسي موضوع الأشتراكية فيما بعد في زحمة المشاغل، والواجبات وتحديات المرحلة.

وبالرغم من كون ذلك الهدف كان من أهداف الحزب الرئيسية، ولكن بقيت كلمة أشتراكية كلمة غائمة في مطبوعات الحزب ودورياته، وخطب ساسته لا أحد يعرف معناها أو يعرف تفسيراً منطقياً لها!

وما يدعيه الحزب من أختلاف أشتراكيته عن الأشتراكية الماركسية والماوية، والنازية، لكن التسمية كانت تجيء في نصوص سياسي الحزب والخواطر الأدبية المفككة لأبرز قادته وهي تعني الخير وهي نقيض العبودية والأستغلال.

وقاد بارزون في الحزب أولى المظاهرات الشعبية في ذكرى تقسيم فلسطين وقرأ العميد المتقاعد هيثم أولى خطاباته السياسية، التي كتبها له أبنه!

وهكذا اخذ الحزب يدير الندوات السرية والعلنية واللجنة الأمنية التابعة للحزب تنظم دوران طاحونة الأغتيالات لأعضاء وقيادي الأحزاب الأخرى.

ويتعاون مع أجهزة امن الدولة لتصفية الكثير من الكوادرالوطنية وساهم أيضا بتصفية أعضاء مهمين في الحكومة والجيش لإتاحة الفرصة لكوادر حزبه وإتباعه الصعود في سلم الدرجات الحكومية ورتب القيادات العسكرية!

في صباح تموزي حار جاء سيلبا مع مجموعة من جماعته الأمنية إلى دار العميد هيثم، الذي كان يتناول طعام إفطاره، وخرج لسيلبا، وعلى أصابعه بقايا ثريد الباقلاء بالدهن والبيض والخل!

فطلب منه سيلبا أن يلبس ملابسه العسكرية، ورتبته العسكرية قبل أن يحال على التقاعد، ويأتي معهم على وجه السرعة فأندهش العميد وأخبرهم أن ملابسه العسكرية صارت قصيرة عليه، وضيقة بسبب تقاعده من الجيش منذ زمن بعيد، وان الملابس حتى لو استطاع ارتداءها فأنها ستكون ضيقة عليه جداً.

فطلب منه سيلبا، وقد تجهم وجهه الإسراع بارتداء ملابسه العسكرية وإلا سيضيع كل شيء، فلم يكن أمام العميد سوى التنفيذ وأرتدى ملابسه القديمة بعد أن نفض عنها الغبار، قالت زوجه وهي تراقبه:

- أن سيلبا سيضعك في ورطة لا خلاص لك منها أبداً!

وأخذ أبناؤه، الذي كانوا يتلذذون بشرب الشاي بعد تلك الوجبة الدسمة يضحكون من شكله الهزلي، وقد ظهر كرشه الذي نما بسرعة خلال سنوات تقاعده من خلال فتحة القميص، التي سقطت منها بفعل القدم عدة أزرار..

-89-

كانت تنتظرهم سيارة من نوع سكود قديمة، وسمع زوجه تقول له وهي غاضبة عند باب الدار:

- ستنوش عائلتنا المصائب عما قريب!

لم يسمع سيلبا ما قالته امرأة العميد هيثم ونقلتهم السيارة قريباً من الإذاعة، وهناك فقط اخرج سيلبا ورقة من جيبه، وقال للعميد:

- انه البيان الأول للثورة، وستذيعه بصوتك من خلال ميكرفون الإذاعة!

أصيب العميد بدهشة لم تصادفه طوال حياته فنظر إلى وجوه جماعته منتظراً أن ينفجروا بضحكات مازحة تعلل له ما قالوا، ولكن وجوههم المتعرقة وصمتهم المريب وقسمات وجوههم المكفهرة أجهضت داخله كل رغبة في الاستهزاء من أحلام الاستيلاء على كرسي الحكم في البلاد بهذه البساطة والسلاسة، وتساءل بصوت خفيض، كأنما يهددهم بأن لا مجال للمزاح في هذه الأمور الخطيرة، وقال له سيلبا بوجه حاد :

- تلفت حولك لترى كل شيء، وتستطيع أن تعرف من يحتل شارع الإذاعة ألان؟

وفي الشارع كانت ثلاث دبابات واقفة مصوبة مدافعها صوب مباني الإذاعة، وهمس سيلبا للعميد، الذي سيطر عليه الذهول، ولم ينطق بحرف:

ـ ستصير رئيساً للبلاد فكن حازماً، وأنت تلقي خطابك للناس المنتظرين
تمتم العميد متسائلاً :
ـ والقصر الجمهوري.. وماذا عن الرئيس؟
ضحك سيلبا وغمز للعميد:
ـ سيطرنا على القصر دون مقاومة تذكر واحتجزنا الرئيس وصار رئيساً سابقاً، ولم يبق سوى أن تلقي خطابك في الإذاعة ليعرف الشعب اسم رئيسه الجديد، والحزب الذي سيقود خطاه إلى الأبد!

قال سيلبا الكلمة الأخيرة، وهو يشدد على حروفها حرفاً حرفاً بتصميم غريب..

ويومها من شدة القلق والرعب والحرج أصيب العميد هيثم بمرض السكري الحاد، وشعر بلسانه يتحول إلى قطعة خشب، فقال بعد ذلك معلقاً على ذلك اليوم :
ـ يبدو أن الأشياء الحلوة، التي تأتي بها الدنيا إلينا تسلب منا أشياء لا نستطيع تعويضها!

-90-

عندما بدأت لجان الأمم المتحدة تفتش عن أسلحة الدمار الشامل أمر الرئيس بوضع غاز الأعصاب المسيل، الذي أنتجته معامل البلاد السرية في فترات سابقة، في حاويات مقفلة لسكك الحديد، وربطوها بالقطارات المسافرة بين البصرة وبغداد والموصل.

عدد كبير من الحاويات العملاقة موصدة الفوهات، ولا يعرف احد حقيقة ما تحتويه دائمة السفر بين محافظة، وأخرى ولا يدري احد من الفنيين العاملين في صيانة معدات مؤسسة السكك الحديدية فائدة ربط هذه الحاويات أثناء رحلاتها المكوكية بين الشمال والجنوب.

ولم يسال احد عن سرها ولو عرف السائقون بالخطر الملحق الذي يحملونه وراء ظهورهم، لوقف شعر رؤوسهم رعباً.

ولم يكتشف هذا السر من قبلهم إلا بعد أن أرتطمت إحدى هذه الحاويات مصادفة بعربة أخرى، وانفتح قفل الغطاء قرب محافظة الحلة.

وتسربت محتويات الحاوية من الغازات القاتلة، فمات الكثير من الناس في القطار إختناقاً وماتت الحيوانات والطيور، وتساقطت العصافير من بين أغصان أشجار المحطة مثل كرات رمادية على الأرض.

وتهرأت أوراق الأشجار فاقدة ألوانها الطبيعية متحولة بفترة قصيرة

إلى اللون الأصفر المشوب بالسواد، وأخليت البنايات والدور من ساكنيها على وجه السرعة.

كانت تلك الليلة من أبشع الليالي التي مرت على المدينة ومحطتها وقضى الناس ليلهم في الشوارع البعيدة عن المحطة بوجوه مرعوبة وبقيت الطرق المؤدية إلى محطة القطار فارغة إلا من جثث القطط والكلاب النافقة بفعل الغازات السامة.

وبدا لون السواد يحتل أبواب الخشب في كل البنايات القريبة من المحطة، وبدأت أعراض مرض سرطان الدم تظهر فيما بعد على كل من كان قريباً من مكان الحادثة!

في تلك الليلة امتلأت مدينة الطب في العاصمة بعد عدة شهور بآلاف الأطفال، الذين سقط شعرهم خلال أربع وعشرين ساعة من تلك الحادثة، وتحول لون جلدهم إلى اللون الأصفر، وأخذ بالتمزق فيما بعد مختلطاً بالصديد والروائح الحريفة.

وكان منظر النساء مؤسياً، فقد فقدت وجوههن ألوانها الطبيعية وبدّون كما لو أنهن يضعن على وجوههن أقنعة من البلاستيك الأصفر.

وظهر على أجسامهن الهزال، وأعراض الموت البطيء، ونقلت تفاصيل واقعة غاز الأعصاب في محافظة الحلة بشكل مباشر إلى مقر الرئيس الصيفي بواسطة كاميرا فيديو.

صورت الكاميرا تفاصيل الكارثة، لم يقل الرئيس شيئاً، لكنه فكر داخل نفسه : لو أن كمية الغاز هذه ألقيت على جيوش الأعداء لحققت نصراً سريعاً مؤزراً، لقد عرفنا ما تعنيه حادثة فتح غطاء حاوية متوسطة تحوي غازاً للأعصاب بين حشود من البشر!

-91-

كان الرئيس يخشى أن يلتقي بأبنه البكر لأول مرة في حياته، وشعر بالعجز، وان الله يعاقبه بتحدي أبنه له!

لو كان غيره من الناس لذر رماده في نهر دجلة، ولو كان شعباً لمحاه عن وجه الأرض، لكنه أبنه وشبيهه، وقطعة من كبده، وفي الكثير من المرات يرى تصرفاته، ويقارن ذلك بشبابه المقموع.

كانت دواخله تمور بالغضب وهو يسير في ممرات قصره باحثاً عن طريقة مثلى لعقاب ابنه العاق الذي دمر الشيء الوحيد الجميل، الذي كان ينسيه عذابات حياته، ويمحق عقده القديمة، ويجعله ينام الساعة التي

يحتاجها كل يوم ليمارس حياته.

ومن بين أسنانه خرجت كلمة مفردة ممزوجة بالألم :

ـ أي ابن هذا الذي يقتل أباه هكذا؟! نعم قتلني ألف مرة.. الموت أهون علي وأنا لا استطيع أن افعل شيئاً أمام اعتدائه على من اعشق ودواء ألامي؟ كيف أقابل حوريتي وأنا لم افعل شيئاً بخصوص هذا الابن العاق؟

وبقي الرئيس يذهب ويجيء بكامل ملابسه العسكرية في ممر الآلام كما سمى ذلك الممر في القصر في لحظة غضب قصوى، وهو يخاطب نفسه بعد أن عرف الابن أن أباه يبحث عنه، وعرف من جواسيسه تفاصيل المطب الذي أوقع نفسه فيه، فأسرع إلى أمه وهو يجهش باكياً أمامها وقال من بين دموعه:

ـ أنقذيني لقد وقعت في ورطة!

ويبدو أن لسيدة القصرعيونها السرية، فقد عرفت بكل ما جرى لحورية زوجها.

وكانت تتابع كل نزواته ومغامراته العاطفية، مخصصة جهازاً كبيراً للمعلومات مؤلفاً من عشرات الطاهيات، وخدم القصور، ورجال الحماية!

وقد زرع جواسيسها كاميراتهم السرية في أرجاء قصور الرئيس، وكانت كل تحركات الزوج الغرامية تنقل إليها خلال أربع وعشرين ساعة بالصوت والصورة.

وتسمع وترى ما يحدث، وتتحمل كل ما يفعله زوجها من حماقات، وقد فعل ابنها ما فعل بتدبير خفي منها، دون أن يعرف ذلك، ولم يكن سوى أداة لأنتقامها.

وهي التي دفعته في ذلك اليوم إلى قصر الحورية بواسطة احد أتباعها، الذين تثق بهم ثقة عمياء، فقد طلبت منه سراً أن يصطحب ابنها إلى القصر ذاك لتقع عيناه على حورية زوجها.

عارفة نزوات ابنها وحماقاته، عارفة ما سيقع مقدماً وجلست حينها في غرفة السيطرة، وهي تتابع ما يحدث للحورية، وتابعت ما حدث بأربع زوايا..

عبر عيون سحرية مثبتة فيها كاميرات سرية في أربع زوايا من غرفة النوم تلك، وحين رأت صرامة أبنها في معاملته لضرتها، أخذت تهتف بحياة ابنها، الذي سيعيد الوضع في البلاد إلى نصابه!

ويوقف فسق أبيه عند حده! ويرغمه على الجلوس في بيته رهن الاعتقال الجبري مرتدياً مريلة المطبخ ليقشر البصل، ويسلق البطاطا

ويغير الماء لأسماك الزينة، ويطبخ لها الطعام الهندي، الذي تحبه وطيلة الوقت ستسخر من غبائه وقلة فائدته..

حين رأت الدموع في عيني ابنها هزها الخوف عليه، وكادت أن تجهش باكية لكنها تماسكت وقالت، كأنما كانت تبوح له بسر خطير:

ـ فعلت حسناً بمجيئك يا ولدي لا تحزن، لن يؤذيك الوحش فأولاً وقبل كل شيء أنت ابنه وثانياً...

ثم توقفت قليلاً عن الكلام ثم قالت مفرجة عن غضبها، وثورتها:

ـ أن خالك اعد كل شيء، وما عملته أنت كانت نقطة الصفر، وإشارة للثورة القادمة ضد وحشية أبيك وفسقه، وظلمه، الجيش سيتحرك عما قريب ربما وأنا أحدثك ألان تكون الوحدات الموالية لخالك، قد تحركت فعلاً من قواعدها صوب الإذاعة والقصر الجمهوري!

اندهش الابن ومسح دموعه:

ـ أسيقود خالي الجيش في ثورة ضد أبي؟

ابتسمت الأم ابتسامة شاحبة حزينة :

ـ عليه إنقاذ الوطن من فسق أبيك لا أكاد أن اصدق شيئاً ستكون رئيساً للجمهورية بعد أبيك، ذلك هو الحل المرضي لكل الأطراف في العشيرة ..

ـ وما مصير أبي؟

سندخله مصحة الأمراض العقلية، لقد فقد عقله، وتحول إلى خنزير انه لا يمل من النساء أبداً، وقد أقسمت أن اجعله يقشر البصل طوال اليوم وتنظف الدموع عينيه، مما رأتا من مخازيه وآثامه!

هلل الابن فرحاً من غوغائية أمه :

ـ هذا عظيم حقاً..

في تلك اللحظة ذاتها رن جهاز هاتف سيدة القصر، وحين رفعته أصغت لحظات ثم أصفر وجهها واسود، وهي تسمع كلاماً هز كيانها وقلب سحنتها، ووقعت سماعة الهاتف من يدها وصرخت:

ـ أخي؟

قال الابن متوتراً خائفاً:

ـ ماذا حصل؟

فصرخت والدموع تسفح من عينيها:

ـ الوحش قتل خالك.. احرقه حياً، الويل له الويل له مني!

ومزقت ثوبها، وملأت ردهات القصر صراخاً خامشة وجهها بأظافرها، مقتلعة خصلات من شعرها المنفوش، فبدت وكأنها فقدت عقلها!

-92-

من خطط الرئيس السرية جداً حين تدلهم الخطوب، ويرتفع المدّ ويفور التنور، وتوشك السفينة على الغرق، ويظهر أفول ملكه أمام ناظريه واضحاً، وليس ثمة آمل له بمقارعة أعدائه الأقوياء، وانه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك أو الوقوع في متناول أيديهم التي لا ترحم!

فلا يكون أمامه سوى تنفيذ الفقرة الأولى من خطته السرية المسماة المارد، وهذه الخطة تنص على أجراء عمليات جراحية تجميلية خاصة لوجهه، لتغيير هيئته فلا يعرفه احد بعد ذلك على الأطلاق حتى لو اجتمع الأنس والجان لمعرفته بعد العملية التجميلية لا يستطيع احد منهم أن يعرفه، أو يهتدي إلى قسماته السابقة، حتى لو كان من اقرب المقربين له.

وقد عهد بهذه المهمة السرية لفريق كامل من الأطباء المتخصصين المتفوقين في هذا الأختصاص الطبي وقد زودت بنايتهم بكل ما يحتاجونه من أجهزة ومشارط وأدوية ووسائل بتر، وترقيع وأجزل لهم الرئيس العطاء وجعل مساكن عائلاتهم قريبة من المبنى.

وهم دائمو التواجد في مبناهم في زمن السلم والحرب ليلاً ونهاراً وبين فترة وأخرى يضعهم الرئيس في التجربة، ويرسل إليهم واحداً من إتباعه لتجري عليه العمليات الجراحية التجميلية المطلوبة، وبعد نصف ساعة يخرج ذلك التابع من المبنى وهو شخص آخر لا يعرفه احد من الذين عرفوه من قبل.

وبعد كل تجربة يتفوق بها الكادر الطبي في العمل المطلوب منهم يجزل لهم الرئيس العطاء، وتشدد عليهم الأوامر بالتواجد في المبنى طيلة الوقت بانتظار العمل، الذي قد لا يأتي، وقد يأتي بعد مكالمة تلفونية موتورة وحتى لا يقع الأطباء في دائرة الملل، فقد كان الرئيس يأمر بتجديد أسراب الممرضات بفتيات صغيرات جميلات!

تقوم باختيارهن لجنة خاصة، وقد وضعت في اعتباراتها أذواق الأطباء وما يرغبونه من جمال خاص في الممرضة، التي يتم اختيارها وبهذه الطريقة العبقرية استطاع أن يضمن تواجد الأطباء في المبنى بانتظار اللحظة العصيبة القادمة دون أن يملوا الانتظار ودون أن تصبح البنايات سجناً نظيفاً ودائماً لهم.

فالوجوه الجميلة تتجدد دائماً الشقراء والسمراء الرشيقة والممتلئة النجلاء العينين والغيداء والبيضاء والسوداء الطويلة والقصيرة الدعجاء

صاحبة الخصر الضيق والبدينة، وتبذل العطايا الكثيرة للجميع والبيوت ازدحمت بالسيارات الفارهة، والخيرات الكثيرة المهداة إليهم بالمناسبات الوطنية الكثيرة.

والخطة السرية المسماة المارد تشمل أكثر من مئة فرد من عائلة الرئيس وعشيرته، الذين يتم تحويلهم إلى أناس آخرين خلال نصف ساعة فقد جهزت كافة الأوراق الرسمية الخاصة بهوياتهم الجديدة وفق صور خاصة تم أستنباطها لأشكال وجوههم بعد أجراء العمليات التجميلية، وخلال زمن قصير يغادر الجميع من أبواب سرية للمستشفى، متحولين إلى مواطنين عاديين لم يقترفوا آية جريمة بحق احد.

وقد امضوا حياتهم في البر وأعمال الخير وفي محراب الصلاة وأكثرهم كما يبدو عليهم في أشكالهم الجديدة من الرعاة، وأصحاب الحرف ولا يشك احد أبداً أنهم من عائلة الرئيس وخاصته.

وكل واحد منهم كان في سباق مع الأيام يمسك قبضة من خارطة البلاد ويعصرها بكف من حديد ليحولها بمرور الزمن إلى رماد ودم وحيامن شيطانية!

-93-

ــ مصاعب البحث عن اللقطاء في زمن الفضيلة ــ

أعطني لقيطاً أعطيك بعد حين عبداً مطيعا يؤلهك ويحمي كرسيك من الأعداء إلى الأبد!

– من أقوال الرئيس في مجلس العشيرة الشهري -

ما أن أستتبت الأمور لسيلبا، وترقى من قيادة المجموعة الأمنية الصغيرة المحيطة بالرئيس، ليصبح فجأة نائباً للرئيس حتى آمر بذبح القيادة العسكرية، التي شاركتهم أنقلابهم الأبيض.

وصفى كل الضباط الكبار فيها ووضع أفراد جماعته الأمنية في المناصب الشاغرة، وأحال على التقاعد كل الرتب العسكرية الكبيرة في الجيش.

وانزل قراراً على أفراد حزبه ومرافق ودوائر الدولة بالبحث الدائم عن اللقطاء، وتسليمهم إلى اقرب نقطة شرطة أو نقطة شرطة مرور والتي حدد دورها بتسليم اللقيط الذكر إلى مراكز حضانة مختصة، وتمت أقامة

المئات منها في جنوب البلاد وشمالها ووسطها.
ويتم بعد ذلك بأيام تجميعهم في مركز واحد كبير في العاصمة، أما الإناث فيتم تسليمهن إلى دور حضانة من الدرجة الثانية، واخذ سيلبا بذاته بالرغم من منصبه الكبير في الدولة يمر كل يوم تقريباً على مراكز الحضانة الفرعية للقطاء ليستلم منهم اللقطاء، ويحملهم بسيارته بلفافاتهم البيضاء، ووجوههم الصغيرة، وشفاههم الوردية، وصراخهم الذي لا ينقطع، وهو يناغيهم طيلة الطريق، ويحمل بنفسه ثلاثة لقطاء في كل مرة وينقلهم إلى المركز الرئيسي.
ويدقق طيلة الوقت في سجلات المركز عن العدد النهائي، الذي أحصته السجلات، ولم يفهم احد سر هذا الأهتمام الذي يوليه للقطاء وحين نقل خبر ذلك للعميد هيثم الذي صار رئيساً .
قال في سره:
ـ أنها نزوة من نزوات سيلبا ربما يفعل ذلك لكونه لقيطاً مثلهم ومادام الأمر لا يؤثر على احد فلماذا لا نساعده في مسعاه الإنساني الكبير؟
وانتبهت منظمة تابعة لليونسيف إلى ما يفعله نائب الرئيس واهتمامه الشديد بالطفولة المعذبة، فوجهت له شكراً خاصاً، وأعطته شهادة الدكتوراه الفخرية لاهتمامه بمآسي اللقطاء والاهتمام بتنشئتهم الصحية مع إعلان بهيئة صورة وجه له ملامحه، وهو يحمل لقيطاً وتحت الصورة عبارة هكذا يتقدم العالم الثالث بهولاء القادة الأفذاذ.
وعندما بلغ عدد اللقطاء عشرة ألاف وبضع مئات، أقام سيلبا حفلة كبيرة وجلس يدخن فرحاً، ويطلق النكات لم يكن احد يعرف في ذلك الوقت ما كان يرمي إليه نائب الرئيس، وما يخطط له.
وبالرغم من العدد الكبير للقطاء إلا أن النائب كان طموحاً لرفع العدد خلال العام الأول من عهد حكمهم إلى مئة ألف لقيط ولقيطة!
وحتى يصل إلى هذا العدد الكبير في دولة عربية مسلمة وأهلها محافظون أضطر إلى أن يشرع الكثير من القوانين الجديدة، ويتعهد قرارات كثيرة في الحزب الحاكم والدولة بضرورة ضم فتيات مراهقات إلى صفوف الحزب، ووظائف الدولة ووضع كل الإمكانيات المالية المتاحة تحت تصرف القائمين على هذا العمل.
كان يبحث عن اللقطاء، وخلال الحفل كان أفراد الحزب يرددون شعاراته النارية، التي قالها بخصوص اللقطاء:
ـ اصنعوا اللقطاء بأي ثمن وأية طريقة وأسرع وقت ممكن.. لقيط واحد

في العراق أفضل من عشرة اصلاء! وكل من أتى بلقيط يجب طبع قبلة على جبهته، وأن تصرف له مكافأة لا يحلم بمثلها!

حتى أن البعض من قيادي الحزب الحاكم سمى السنة الأولى من حكمهم بسنة اللقطاء المباركة.

وكانت كل أدبيات الحزب تشير إلى ضرورة أشراك الفتاة المراهقة في تحرير المجتمع من عفته وتخلفه.

وربط تخلف المجتمع بمناداته بعدم ضرورة بكارة الأنثى في اليوم الأول لزواجها وشددوا على ضرورة حريتها الجنسية، والبحث الدائم عن منافذ لحرية الجنس، وطبعت الدولة مئات الآلاف من الصور الجنسية البذيئة وتم توزيعها عبر وكلاء أمنيين على المراهقين.

وشجعت الدولة عبر قوانين فورية الأطباء على أجراء عمليات الترقيع لغشاء البكارة المفضوض بشكل غير شرعي، وبمبالغ مالية رمزية وإجراءات تشجيعية بإعطاء جائزة لأفضل، وأسرع ترقيع، وتم منع طرح كافة أنواع حبوب منع الحمل والموانع المطاطية إلى الأسواق وإتلافها برميها في نهر دجلة.

وتم إصدار القرارات الخاصة بجعل إجراءات الزواج الشرعي عصية ومكلفة ومنع تعدد الزوجات منعاً تاماً، فضجت المومسات بان ما تفعله الحكومة يقطع أرزاقهن!

وان لا وقت لديهن للحمل والولادة، فظهر سيلبا لمظاهرتهن بوجه حليق صاف وابتسامة عريضة، وابلغهن بمودة شديدة، انه في حالة حملهن ستصرف الدولة لهن رواتب تسعة شهور، وتستلم منهن بعد الولادة اللقيط لقاء مكافأة مجزية.

وعليهن اعتبار المسالة خدمة وطنية تقدمها المومس للعراق العظيم فارتفعت أصوات المومسات بالدعاء لسيلبا، معلنات انه أفضل نائب رئيس صادفنه في حياتهن.

وأنه أفضل من قواديهن ولم تمض سوى سنة ونصف منذ بداية الحملة حتى ضج الناس من أعداد اللقطاء، الذين يجدونهم على أبواب الجوامع والمؤسسات، ودوائر الدولة ومفترقات الطرق، وضفاف الأنهار وأمام الدكاكين..

أعداد كبيرة من اللقطاء بلفافاتهم البيض، وعيونهم المغمضة وعويلهم المتصل، وكان كل يوم يزورعنابرهم في مركز التجميع الرئيسي، وداخله ينمو فرح لا مثيل له.

فها هو جيشه المستقبلي ينمو، ويتكاثر أفراده، وكل فرد منهم سيكون أداته في القضاء على كل معارض في البلاد، وسيؤلفون هيكل جيشه وحرسه، وأتباعه ورجال أمنه، ومخابراته، وسيوجههم حيث يشاء، وسيجد الاستجابة السريعة منهم، وذلك ما كان يريده، ويحلم به، سيقضون بعد ذلك طال الزمن أم قصر على كل أصيل في الوطن!
وتبقى إلى الأبد جمهوريته يحكمها ويحميها اللقطاء!

-94-

في السنة الأولى حين كان يجتمع سيلبا بالوزراء في الجلسة الاعتيادية لمجلس الوزراء لم يكن من المستغرب أن يحمل الوزير هديته إلى النائب، والهدية عبارة عن لقيط ملفوف بلفافات بيضاء.

فيشع الفرح في عيني النائب ويشعر بقية الوزراء بالغيرة من زميلهم الذي نال حظوة عند النائب، فيحملون في الاجتماعات التالية بدورهم عدداً من اللقطاء.

وكانوا يضعون لقطاءهم بلفافاتهم البيض على منضدة الاجتماع المستديرة بانتظار مجيء النائب ليفرح بما جمعوا له من اللقطاء، وتقدم احدهم بجرأة في نهاية الاجتماع الوزاري من النائب، وهمس بأذنه شيئاً فظهر أشعاع فرح في عيني سلبيا.

وخرجا من الاجتماع معاً تاركين الوزراء مذهولين ليريه ما جلب له فوقعت عينا النائب على اغرب منظر عشرات اللقطاء، وقد وضعوا في مؤخرة شاحنة مفروشة أرضيتها بالقش!

وبالرغم من صراخ بعضهم إلا أن المنظر كان يوحي براحتهم التامة في الوضع الذي هم فيه!

فامتلأت عينا النائب بدموع الفرح وربت على ظهر الوزير ثلاث مرات وذلك يعني عند رجال الحماية الذين يرافقونه في كل مكان ويحسبون تربياته ويسجلون على ورقة ثلاث سيارات جديدة تعطي للكبش الفلاني وكم كانت دهشته كبيرة وفرحته عميقة حين اكتشف أن من بين اللقطاء عدداً كبيراً من اللقطاء ذوي البشرة السوداء، المغمضة عيونهم.

وقد كانت فيما مضى نسبة السود إلى البيض بين اللقطاء تقارب الواحد في الألف، فقال هامساً الحمد لله أن ذلك يبشر بالخير حقاً فقد بدا السود في بلادنا يتطورون ويمارسون حقهم الطبيعي بالحياة.

وفي تلك السنة التي أمر بها الرئيس بغزو دولة مجاورة كان في البلاد

جيشان الجيش الوطني، ومن ضمنه الآلاف من اللقطاء ضباطاً وجنوداً وطيارين ورجال هندسة وأطباء وممرضين وأعضاء في فرق الإعدامات وقد دخلوا تلك البلاد، وعاثوا فيها فساداً وتقتيلاً.

هؤلاء أعدهم الرئيس منذ عشرين عاماً لهذه المهام القذرة، منذ كان يجمع اللقطاء لقيطاً لقيطاً، ويفتتح لهم المدارس الخاصة، وتوضع لهم البرامج السرية في التربية، والتحمل، ويتعرضون لأقسى وأصعب التدريبات العسكرية.

ويختار المسؤولون من بينهم من سيكون ضابطاً أو جندياً أو رجل مخابرات أو طبيباً أو مهندساً أو فرداً في الحاميات الخاصة.

في تلك السنة نهاية تموز وبداية آب تحركت فرقة خاصة لتثير حرباً كونية جديدة وبعد أن أكملت مجموعات قتالية احتلالها للدولة المجاورة وتم خلال ذلك تهشيم بنيتها التحتية، وسلب مبانيها ونهب دوائرها، وهدم مرافقها الخدمية، انسحبت هذه المجموعات بعد كل هذه التخريب متجهة صوب بغداد، تاركين الجيش البلاد الحقيقي لتتلوث أيدي جنوده وضباطه بجرائم لم يرتكبوها، ودفعوا ثمنها غالياً من شرفهم العسكري.

بينما رجع هؤلاء اللقطاء بعد أربعة أيام من الغزو إلى مواقعهم السابقة حول العاصمة، واقتسموا ما سلبوه من الناس أثناء الغزو ونثروا على أفرشة زوجاتهم المجوهرات، وقلائد اللؤلؤ، ومشغولات فضية مطعمة بأحجار كريمة، وباعوا قبلها في الأسواق ما سرقوه من أجهزة كهربائية وأشرطة فيديو جديدة وأخرى مستعملة!

اخذ بوم لا يرى أحد في أي مكان يستقر أو يطير عندما يحل المساء ينعب مخترقاً قسوة الصمت، وحذر الناس في هذه المدينة وتلك...

بعضهم اعتبر صوته دليل شؤم قادم وبعضهم اعتقد انه يبلغهم بموافقة الله على ما فعلوا، كذلك هي أوامر من رباهم واعدهم لمثل هذا منذ عشرين عاماً!

وكل ما فعلوه دفع ثمنه بعد ذلك الناس المسالمون وجيش العراق، الذي مزق شر تمزيق، وانتشرت فلوله التي تعد بمليون جندي قاطعة مئات الكيلو مترات بملابسها الداخلية، والطائرات والصواريخ الموجهة بالليزر تطاردهم، وحاويات القنابل الضخمة تنفجر فوق رؤوسهم وتبتر أعضاءهم.

والسماء صارت سوداء بفعل أدخنة حرق آبار البترول التي تم تفجيرها بواسطة فرق الهندسة التابعة لوحدات اللقطاء، متسببين بكارثة بيئية

ستظل مؤثرة في مناخ الأرض مئات السنوات القادمة، وهذه أيضاً لم تكن نهاية الحكاية!

-95-

اجتمع الأدباء في مقهى حسن عجمي بشكل دائرة حول كمية من التمر ألزاهدي اشتراها لهم تاجر أديب وهو يحضر معظم مجالس المقهى الأدبية مردداً أبياتاً شعرية من قصائد للمتنبي، والأمام الشافعي، وأبي العلاء المعري، وأبي نؤاس وغيرهم.

كان كاتب الرواية يتصنع الشبع وعدم الرغبة بما وضع أمامه من فردات تمر قليلة، وكان الأدباء وقتها منذ زمن طويل يبحثون عن وعاء لتنظيم معارضتهم للنظام الدكتاتوري خارج أطار مؤسسات الدولة.

لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة مرضية، وكل مرة يأخذهم النقاش الحاد المرتبك، الذي يقطع بين الحين والآخر خوفاً من عيون الدولة من الجالسين، الذين كانوا يكتبون قصصاً وأشعاراً تدين النظام، ويطرحون فيما يكتبونه هموم الشعب، وكانوا يعتقدون أنهم بذلك فعلوا ما بوسعهم وفي حقيقة الآمر أن ما ينشروه هنا وهناك، واغلبه في صحف النظام ومجلاته يذهب هباء ولا يقرأ.

وكان العامة يكرهون كل ما يمت للنظام بصلة، فتتكدس الصحف والمجلات دون أن ينظرها احد غير كتاب المقاولات ذاتهم، والبقية من الجرائد والمجلات تباع للجزارين وباعة بضاعة المفرد!

ولم يكن احد يعبأ بما ينشر فقد غسلوا أيديهم إلى الأبد من صحافة البلد، وصحفييها وطيلة الوقت يهرول ابن الشعب ليحصل على ما يتمكن به من شراء كيلو غرام من الدقيق وربع كيلو من السكر والشاي.

لم يكن احد يفهم ما تعنيه قصيدة معارضة أو قصة تحاكم أهل الحكم أو مقال تخفى صاحبه خلف تقنيات بنيوية ليقول نقداً للحاكم، وتلك للأسف كانت أحلام وأماني الكتاب وحدهم ولم يشاطرهم تلك الأماني أبناء الشعب، ولم تكن لدى الأدباء والكتاب الأحرار طريقة أخرى للتعبير عن رفضهم لكل ما يجري غير ما تكتبه أقلامهم.

وفي تلك الأيام الضاجة بالألم والإحباط كان كاتب الرواية يبيع في الأيام العادية ثلاثة كيلوغرامات من الباقلاء المسلوقة، ويربح ثمن كيلوغرام من الدقيق ليتفرغ بعد ذلك لكتابة مقال أو بضعة فصول من روايته.

وعادة يكون ذلك ليلاً، فينشغل بكتابة روايته التي يكتب فيها كل ما

عاشه، ورآه في عهد أغرب نظام حكم البلاد عرفه التاريخ.

وفي ذلك التجمع الأدبي تشاجر شاعر مع قاص من جيل التسعينات، فرمى احدهم بوجه الآخر مجمرة الناركيلة، فتعرض الجالسون إلى حروق مختلفة، وحين فرقوا المتشاجرين ابتسم الكاتب، وقد عرف أن المشاجرة في هذا الوقت العصيب من عمر الوطن هي في حقيقة الآمر نوع من أنواع الحل الفردي الضروري لكل واحد منهم.

في الأقل الناس كانوا وقتها يئنون جوعا، ومرضاً وبؤساً وإحباطاً، ويحاولون طيلة الوقت أن يجدوا طريقة للبقاء أحياء!

البحث عن رغيف الخبز صار منذ سنوات هي الموسيقى الشعبية الأثيرة التي ترقص على إيقاعاتها الحزينة فئات الشعب الفقيرة من الفجر وحتى المساء.

أما أقراص الدواء فقد فقدت من الأسواق، ولفظ الآلاف أنفاسهم الأخيرة، وذووهم يبحثون منتقلين من صيدلية إلى أخرى، ومن مؤسسة طبية إلى أخرى ومن سوق سوداء إلى ثانية باحثين عن قرص دواء أو حقنة لأطفال يموتون عند ولادتهم بأعداد كبيرة بأمراض جديدة لو يألفها الناس من قبل.

فقر الدم المنجلي، مرض الكبد الفيروسي، التخلقات الولادية بفعل الأسلحة التي تم استخدامها من قبل الحلفاء ضد أهل البلاد، ونقص الغذاء وتدمير البنى التحتية للبلاد!

الآلاف بل مئات الآلاف باعوا دورهم من اجل توفير المال اللازم لشراء الدقيق، مئات الآلاف غيرهم باعوا سقوف دورهم وهدموا ما بنوه خلال سنوات طويلة من العناء والجهد، واستخرجوا حديد التسليح في السقوف وباعوه مع النوافذ، والأبواب.

وأشتروا بثمنه خبزاً لأطفالهم، الرز غذاء الشعب الرئيسي فيما مضى صار ذهباً لا يمكن للأسرة أن تشتريه، والزيت تحول إلى مجوهرات غالية الثمن، والدقيق الأبيض صار حلماً عسيراً، والوضع الاقتصادي السيئ للبلاد صار مفترساً خرافياً يطارد الجميع، حتى أولئك الذين كانوا بالأمس أغنياء صاروا فقراء.

ولا شيء لاشيء رخيص الثمن غير الموت، الذي صار وحشاً يطارد الصغار والكبار، وينهش أرواحهم على الأرصفة، وفي الساحات العامة وعلى أسرة المستشفيات العارية، وحجرات البيوت الفارغة إلا مما زهد ثمنه.

وتحول معظم الناس إلى هياكل عظمية بعيون ملتصقة الجفون بالدموع، والرمد، وجوههم شاحبة وأسماعهم ثقيلة، وأرواحهم متوترة، يتناقلون أي إشاعة أو نامة خبر تبشرهم بفرج قريب، حتى لو كان الخبر مجرد كذبة أطلقها محروم لتسلية نفسه أو لبعث الأمل في أهله ليواصلوا الحياة..

-96-

سيارات اللقطاء المسلحة بالمدافع الرشاشة تجوب الطرقات المتربة، وفي كل سيارة مكبر صوت ينادي بصوت جهير بشع، وهي تمر في شوارع قذرة وأزقة ضيقة مخترقة المناطق الشعبية، وهي تطلق الأصوات الجهيرة، مذكرة الناس بضرورة وضع الزينات على الأبواب في واجهة المنازل، والدكاكين وعمل مظاهر الزينة المناسبة بمناسبة حلول ذكرى ميلاد الرئيس التي ستحل قريباً، مهددة من لا يفعل المطلوب منه بأنه سيعرض نفسه لأشد العقوبات الصارمة.

وثمة سيارات أخرى تمر في المساء حاملة في خزاناتها الخلفية رجالاً مقيدين، وعيونهم مربوطة بخرق قذرة يصحبهم اللقطاء المسلحون، ويبدو على المسجونين العطش الشديد.

وقد تمزقت جلود وجوههم من شدة الحرارة، وأشعة الشمس والجوع ولا احد يعرف ما هي جرائمهم، أو إلى أين يقودونهم والآلاف من المتسولين كباراً وصغاراً يجوبون في شوارع المدن يتوسلون بالذاهب، والقادم طالبين منه ما يسد الرمق.

والعشرات منهم سقطوا في زوايا الشوارع، وقد فارقوا الحياة ولا احد يجرؤ على تقليبهم ذات اليمين أو ذات الشمال ليعرف ألا يزال فيهم عرق ينبض أم انتقلوا إلى رحمة رب كريم..

امرأة مازالت في شرخ الصبا رمت عباءتها وسط ازدحام السوق، وصرخت والدموع تسفح من عينيها قائلة أنها أخيرا ستبيع شرفها لمن يرغب بجسدها لتطعم طفليها، فهما منذ يومين لم يذوقا طعاماً وقد تركتهما في البيت بين الحياة والموت جوعاً.

وعندما سألها الناس عن أبيهم أخبرتهم، أن الرئيس أخذه في احدى حروبه، ولم يعد حتى هذا اليوم الأسود، فتَصَدقَ عليها بائع بطاطا فقير بكيلو غرام بطاطا، وهو يمسح دموعه بطرف يشماغه القديم.

وألبستها بائعات في السوق عباءتها، وبكن معها بحرقة، كأنما كن يبكين ميتاً حقيقياً يرنه أمامهن، الآن ثم بين الحين والآخر يرفعن

رؤوسهن إلى السماء، طالبات من الله تعالى حلاً عاجلاً يطيح بالظالم وينتقم من حزبه، وجيش لقطائه المهيمنين على البلاد والعباد.
في المساء عادة يهجم جيش من النساء الحافيات ظهرن خلال سنوات الحصار، يابسات الوجوه وبعضهن بوجوه صفراء، كوجوه الموتى التي بدأت تتفسخ، وهن يجمعن بعد كل غروب ما تخلفه الأسواق من مخلفات، ويجمعنه على أطراف عباءاتهن القديمة الممزقة، ليعتاش عليه أطفالهن وقد بدا عليهن بؤس شديد..

-97-

كان جميع الفقراء في المدن يتناقلون سراً إشاعات عن أوامر الرئيس برمي ألاف الأطنان من دقيق القمح التالف في مخازنه السرية، إلى أحواض الأسماك الخاصة به وأولاده وأفراد عشيرته.
مزارعه الواسعة للأسماك ظهرت فيما بعد في فيلم أخرجه فرنسي وظهر فيه الرئيس، وهو يصطاد الأسماك في إحداها بإلقاء القنابل اليدوية في الماء ليصطادها.
وكذلك إشاعات عن أوامره بوضع ألاف الأطنان من السكر مع الخرسانة أثناء تشييد قصوره الجديدة، وملاجئ هذه القصور لتستمد قوة تماسك أشد.
وتكون منيعة لا تخترقها الصواريخ والقنابل الشديدة الانفجار، ويروون كذلك واللعاب يسيل من أفواههم عن الولائم الباذخة، التي يقيمها ضباط جيش الكبار، وأبناء عشيرته.
ويتحدثون عن القرية التي ولد فيها الرئيس، وحولها فيما بعد إلى مدينة عصرية، وكيف انه أمر بأن تكون الأسعار ثابتة وتعود إلى فترة ما قبل الحصار، كأنما لم يحدث شيء في البلاد.
وقد منع على غير ساكنيها الشراء من أسواقها، فبقيت وأهلها يرفلون بالسعادة والكفاية، وقد أباح الرئيس لأفراد عشيرته العيش في أي بقعة من ارض الوطن، وأجاز لهم ما لم يجز لغيرهم من أبناء البلاد!
كان الجميع يقولون سراً أن ما فعله الرئيس بالعراقيين لم يفعله من قبل الفرعون باليهود!
ولم يفعله نيرون بالرومان، ولا يعجبون من ظلمه بقدر أندهاشهم وصدمتهم الشديدة من حلم الله تعالى عليه، وصمت العالم المريب مما يفعل بأهل البلاد!

في المساء تدور سيارات الجيش بمدافعها الرشاشة في شوارع المدن وساحاتها أو تتوقف عند نقاط تفتيش ليلية، وجنودها يلوكون الخبز الأبيض، ولحم المعلبات، وعند الفجر يتبخرون من الشوارع، ولا يبقى سوى بؤس الناس وأفواج الشحاذين، والباعة الذين يحتلون الأرصفة، وقد صار عددهم يفوق أعداد الناس التي في مقدورها الشراء، مما اضطر الباعة إلى رفع الأسعار عدة مرات من اجل الاكتفاء بالربح من عدد صغير من الناس...

سلطان كان من فقراء العاصمة، ولم يستطع أدراك ما يدور حوله من متغيرات، والمسكين لم يترك عملاً إلا عمل به، ولم يترك شيئاً من أثاثه القديم إلا باعه، وجلب بثمنه طعاماً لأطفاله الثمانية وزوجه.

وبعد فترة مماطلة طويلة مع الصبر على الجوع باع البيت الصغير، الذي كان يسكنه، وخلال ستة شهور نفد ثمن البيت، وانتقل مع عائلته ليسكنوا تحت شجرة في مساحة مفتوحة قريباً من الشارع العام وحاول في عمل جديد لكن من دون فائدة فلم يربح شيئا من عمله..

استدان سلطان من هذا وذاك، أولاً من الأقرباء ومن الأصدقاء، وبعد ذلك من الغرباء حتى وصلت به الحال بعد فترة إلى الاستجداء من المارة فقد توقف الناس عن إقراضه.

وحين شعر بان لاشيء أمامه سوى عار التسول ليوفر لقمة أطفاله شعر باليأس الكامل من الحياة، وذهب إلى آخر واحد يعرفه، وطلب منه قرضاً سيعيده له فيما بعد، فأعطاه الرجل على وعد انه سيرده له بعد أيام قليلة.

أشترى سلطان بالمبلغ الصغير طعاماً لأطفاله ومبيداً حشرياً شديد المفعول!

ووضع السم في الطعام، وقدمه لزوجه وأطفاله، وشاركهم حفلة الموت تلك، وهو يضحك!

وبعد ساعة ماتوا جميعاً لم يكتشف احد موتهم إلا بعد يومين، كان منظر الفاجعة مؤلماً ولم تقع عليه عين من قبل!

ثمانية أطفال مع أبيهم، وأمهم جثث منتفخة بوجوه بدت عليها آثار المعاناة الشديدة، والألام التي لا تحتمل، جثث تحلقت حول وعاء متسخ حمل آثار طعامهم الأخير.

ماتوا وأكفهم لا زالت ملوثة ببقايا الطعام المسموم.. بقيت حركاتهم جامدة، كأنما ستنطلق بعد لحظات متحركة معبرة عن الألم الشديد...

والذي حدث لسلطان وعائلته حدث للمئات غيره في طول البلاد، وعرضها، والكاتب يحصي ذلك ويسجل ملاحظاته حول ما حدث، ويحدث ويعلق على ذلك كاتباً في واحدة من ملاحظاته:
(ألم يكن من المفروض أن يخرج سلطان، وامرأته وأطفاله إلى الشارع، وفي الأقل يرمون الشرطة، والأمن المدججين بالسلاح بالحجارة، أليس الأفضل للجميع الموت رمياً بالرصاص من الموت تحت سقف خيمة في العراء، مسمومين بمبيد الحشرات؟
أن الموت واحد في هذا العالم، لكن معناه في كل ميتة يختلف، ورواية الحكايات عنه تكون متباينة أيضاً، لكن كل هذا الذي حدث حدده نوع وعي الناس)

-98-

(علينا أكراما للإنسانية المعذبة ولتاريخنا العريق أقتلاع أسنان الأسرى بالمفكات من أجل معرفة عميقة لأحوال العدو!)

ـ توجيهات رسمية ـ

ذكريات لا تنسى يرددها الجميع للجميع...

خمسمائة واثنان من الأسرى ذاقوا من الويلات عقب احتلال بلادهم، لم يذق أسير في كل حروب الدنيا ما ذاقه هولاء.. أخرجتهم وحدات من الجيش الشعبي من بيوتهم، وهم من عائلات معروفة في البلاد، وأصحاب مناصب سابقين في الدولة والجيش، وبينهم من هم من عامة الشعب شيوخاً وشباباً، ومراهقين نقلوهم بسيارات الموطا في حرارة الصيف الحارقة، وأودعوهم معسكرات الاعتقال في بعقوبة.

وأشرفت على حراستهم قوات الجيش، وبعد هزيمة التي منيت بها قوات الرئيس، حاولت لجان الصليب الأحمر البحث عنهم، ومعرفة مصائرهم وإرسلت موفديها للبحث عنهم في سجون النظام، وسراديبه.

كانوا يخرجون بحراسة السجانين الغلاظ بأثوابهم البيض المتسخة الخلقة، وعقلهم ويشماغاتهم على رؤوسهم، وأيدي السجانين تدفعهم صوب أبواب عربات القطار، التي ستتجه إلى الجنوب صحبة رجال الآمن، والمخابرات.

فكان يبدو منظرهم، وكأنهم من مواطني الجنوب الفقراء يسافرون من محافظة إلى أخرى.
وكادت لجنة من لجان الأمم المتحدة أن تتعرف عليهم حين قصدت عن طريق الخطأ المحطة العالمية في العاصمة، وتجرأ احد الأسرى، الذي كان يجيد الانكليزية أن يخبر احدهم بان ما يبحثون عنه من أسرى موجودين في القطار، الذي سيغادر بغداد متوجهاً صوب الموصل في الثامنة مساء.
لكن موظف الأمم المتحدة لم يفهم شيئاً مما تمتم به الأسير، وكان رجل الآمن أسرع للأسير فضربه على وجهه بعقب البندقية، فاسأل دمه وأجبره على ركوب العربة مع بقية الأسرى، كأن شيئاً لم يحدث!
في المساء عادة يتركونهم في السجن المركزي لأي محافظة يصلوّنها، وعند الفجر يقتادونهم صوب المزارع، وأطول فترة قضوها في معتقل يقع تحت الأرض وسط بغداد وبالضبط تحت نصب الحرية لجواد سليم.
بقي من هولاء الأسرى أحياء في السنة الخامسة للحصار خمسمائة أسير، وكلما مر شهر من الزمن نقصوا ثلاثة أو أربعة وقبل شهر مات منهم اثنان، ودفنا في حفرة واحدة في ضواحي بغداد، دون أن يصلي عليهما احد!
وربما المفارقة وحدها التي جعلت أهل الحكم في العراق أن يأمروا ببناء سجن تحت أضخم نصب فني في العاصمة، وضع لتمجيد ثورة الشعب ضد جلاديه، والمعتقل أقيم تحت الأرض وبمساحة عدة كيلومترات مربعة فصار أبشع، وأقذر المعتقلات في البلاد وأكثرها رهبة ووحشية.
ولأن المعتقل يقع وسط العاصمة، وفوقه تقع اعقد شبكات الطرق وأكثرها ازدحاماً بالسيارات طوال اليوم، وبهذا ضمن أهل الحكم للسجناء في هذا المعتقل الرهيب عدم النوم ليلاً ونهاراً.
وطيلة الوقت كانت تدوي عجلات عشرات الآلاف من السيارات الصغيرة، والمتوسطة والكبيرة فوق رؤوسهم.
وكان السائحون الذين يزورون نصب الحرية، لرؤية مدى التقدم الفني الذي وصل إليه فنانو البلاد لم يفكروا للحظة بدموع المسجونين، ولم يسمعوا الآهات والأبتهالات الصادرة من تحت أقدامهم.
ولم يفكروا أن وقع أقدامهم سيصل مضاعفاً لأسماع سجناء ملوا التحديق في سقوف زنزاناتهم الضيقة، وكادوا أن يفقدوا عقولهم من شدة ما عانوه ويعانونه كل لحظة..

-99-

أصيب قسم كبير من هؤلاء الأسرى بالجذام والعمى والجنون، وحاول عدد منهم الأنتحار، أولئك كانوا قليلي الصبر، لكن دون جدوى، فقد كانوا يفتقدون أدوات الأنتحار الحقيقة كالحبال والأمواس!

وحين أخذت أعداد لجان التفتيش التابعة للأمم المتحدة بالتزايد، وهم يبحثون عن الأسرى إضافة للبحث عن أسلحة التدمير الشامل وعندها اتخذ المدير العام للسجون قراره بنقلهم من مكان إلى مكان كل يوم تقريباً مستخدمين عربات القطارات، وشاحنات الموطا القديمة...

بداية كل شهر يستقرون عدة أيام في بعقوبة في معتقل كان احد مخازن السلاح لميليشا عسكرية أستضافها النظام العراقي لزعزعة الأمن في دولة مجاورة للعراق، وبعد تلك الأيام الخمسة أو الستة ينقلون بعد منتصف الليل بسيارات الموطا إلى صحراء الناصرية إلى معتقل يقع تحت الأرض.

لا تعرف مكانه لجان التفتيش الأممية وبعد يومين أو ثلاثة ينقلون بعربات القطار صوب ضواحي الموصل من جديد.

وهناك يستقرون ليلة واحدة وينقلون بعدها صوب ضواحي الموصل من جديد، وهناك يستقرون لليلة واحدة ثم ينقلون من جديد بسيارات الموطا إلى معتقل سامراء الصحراوي.

وبعد يومين يتم نقلهم من جديد بعد ربط عيونهم ووضعهم في شاحنات الموطا المتجهة صوب بغداد الى سجن أبي غريب الكبير، وبعد ساعات ينقلون إلى محطة القطار النازل صوب البصرة، وفي الطريق قبل الدخول إلى البصرة يتوقف القطار في محطة صحراوية، ويتم بعد ذلك نقلهم بالشاحنات إلى سجن صحراوي آخر.

وتوزع عليهم أقراص خبز سوداء، وأقداح صغيرة من الشاي ولترين ماء ولا يُسلم الأسير شيئاً إذا لم يشتم رئيس دولته، ويبقى الأسرى هناك ليلتين أو ثلاث ليال، ومن جديد يعادون إلى سجن نصب الحرية.

وعندما أطلع الرئيس على خطة التعامل مع هؤلاء الأسرى ابتسم، وقال ساخراً هولاء الأسرى في عرس دائم أنهم عادوا إلى بداوتهم قبل أكتشاف النفط هنيئا لهم بعرسهم، وأضاف للفقرات بخط ركيك وبعد خمسة أيام يتم نقلهم إلى سجن الفضيلية..

-100-

ويحتوي هذا السجن على أسوا الأقفاص، التي لا سقوف لها وفي الصيف تنوشهم أشعة الشمس المحرقة، وفي الشتاء يرتجفون من شدة البرد، وتصب على رؤوسهم سيول المطر، وبعد أيام من المعاناة المرعبة في هذا السجن يتم نقلهم إلى سجن كركوك المركزي.

وزيادة في الأحتراس بإخفاء آثارهم عن العيون يتم حجزهم داخل السجن، ضمن أقفاص صغيرة لا يتجاوز حجم القفص منها متراً مكعباً ولا يتمكن السجين داخله من النوم أو الوقوف بوضع مستريح، فليس له إلا الجلوس والأنكماش على شكل نصف دائرة.

وقد تحول سواد شعر رؤوسهم خلال فترة قصيرة للبياض التام، وتغيرت معالم وجوههم بتأثير الالتهابات الجلدية، والبثور وموت خلايا البشرة متحولة بدورها بشكل بطيء إلى حراشف سوداء، وأدمة متقيحة مبثورة كلحاء شجر مشقق..

كان عددهم بعد الحرب مباشرة ستمائة أسير، وأضيف لهم مائة معارض فصار مجموعهم سبعمائة، وبما أن الحكومة تعامل المعارضين بأقسى ما لديها من وسائل القهر، فأكتوى الأسرى وهم من جنسيات كثيرة بذات العقوبات.

وذاقوا معهم ذات الأذى، لكن المحنة، وما أصيبوا به من أمراض جعلتهم يتناقصون يوماً بعد آخر.. عدد منهم قطعوا شرايينهم بأظافرهم، وأسنانهم ونزفوا حتى الموت، والقسم الآخر قضت عليه الأمراض المعتادة في سجون البلاد: الإسهال الشديد، السل، أورام المخ، ومختلف أنواع الصرع الشديد، والمتوسط، وفقر الدم وأمراض أخرى قاتلة غامضة لا أسماء لها.

وكل يوم يمر على الأحياء لشدة أهواله ومعاناته، وذلته والأذى الذي يتلقاه السجناء على أيدي حراسهم الغلاظ، كأنه ألف سنة، لقد كانت ولا تزال عقود من سنوات الدم يتذكرها منذ صباه، ما أشد أهوالها وسعير لهيبها الذي أحرق كل ما هو أخضر في البلاد وسام ونبيل ...

-101-

قلبي يخونني.. ويدي لا قدرة لي على رفعها للبطش به، لأنه أبني من

صلبي ومن نفسي .. لكنه للأسف نطفة حرام!
ـ على لسان الخليفة العباسي المستكفي بالله الذي مات خنقاً بيد أبنه فيما بعد ـ

أزدادت كآبة الرئيس، فهو للأسف لم يقتنع بأي امرأة أخرى بعد الحورية، وأخذ خلال أيام قليلة يشعر بسموم الغيرة تصعد الغضب في نفسه، وكان يتساءل، هل من المعقول أن أبني تأمر مع خاله، وأمه لأنتزاع السلطة مني؟

كان هذا السؤال يؤرقه، فيوشك على الأنفجار غضباً لأبسط الأسباب، وهو يعرف أنها تنتظره على أحر من الجمر.

وكل ليلة تعطر غرفة النوم ناثرة الورد في أنحاء الصالة، وفوق سرير النوم، مرتدية أجمل ملابسها، وقد عقصت شعرها بالطريقة، التي يحبها وحشها كما تسميه.

متنهدة بحزن متذكرة الأيام الخوالي، باحثة عن بصماته على جلدها، لكن نفسه كانت لا تطاوعه على لمسها، مادامت أنها صارت من المشكوكين في أمرهم!

وهو أقسم مع نفسه أن لن ينالها مرة أخرى حتى يشفي غليله من أبنه الفاسق، وما تبقى من عصابته، وعصابة زوجته الأولى!

وهاهو شوقه إليها يصل إلى أبعد مدياته، فيخرج من مأواه كذئب جريح لا يدري إلى أين يتجه، أو ما هي الأشياء التي عليه أن يدمرها في طريقه، لكي تهدأ نفسه.

وقد عرفت أغلب وزارات الدولة بالأزمة النفسية التي يمر بها الرئيس، فحمل كل وزير ألبوماً من صور موظفاته لتعرض على الرئيس عسى ولعل يجد بديلاً لحوريته زوجة، فيطمئن الجميع ويأمن أنتقامه.

وعمد رئيس تشريفات القصر الجمهوري الأتصال بكل المشبوهين، ليبعثوا له بما لديهم من صور ملونة لفتيات تحت الطلب.

وداخله القلق ينمو كمارد، فهو يعرف ضمناً أن كل ساعة تمر دون أن يجد حلاً لمشكلة رئيسه ستعرضه هو شخصياً للأنتقام!

أتصل به وزير الخارجية، محاولاً إنقاذ رئيس التشريفات، وهو يمت له بقرابة بعيدة، وكان سبباً بتوليه وزارة الخارجية، وقد أتصل بعد هذا بجميع سفراء البلاد في الخارج لإرسال بناتهم اللاتي أعمارهن فوق الثامنة عشرة إلى العاصمة فوراً لأسباب أمنية!

ويبدو أن قسماً من هؤلاء السفراء كانوا على علم مسبق بأزمة

الرئيس، ففضلوا العصيان بشكل جماعي، وطلبوا اللجوء السياسي في البلدان، التي كانوا يمثلون فيها البلاد، ونجا من هذا المأزق اللعين العازبون ومن ليس له بنات!

وعلق احدهم على ذلك ضاحكاً : المفلس في القافلة آمين!

وحاول رجال البحث والتطوير العلمي بكل إمكانياتهم السحرية أن يجسدوا جميلات التاريخ اللاتي توفين قبل ألاف السنوات، ليقدموا لولي نعمتهم واحدة منهن هدية من الوزارة للرئيس، لحل الأزمة التي أوقعه فيها أبنه البكر ووالدته.

وكادوا أن ينجحوا في تحضير الملكة كيلوباترا برقتها وجمالها الآخاذ، لكن في اللحظة الأخيرة جاءت مجموعة كبيرة من شباب ومراهقي الجن وأسترجعوا روح الملكة، التي يراد تقديمها إلى بشر.

وذهبت عبثاً كل محاولاتهم للإتصال بها من جديد، وقد أفترشوا سقف بناياتهم العالية بعصيهم الطويلة يحدقون في الأفق، ويتمتمون بألغاز وكلمات لا تفهم، وقرر وزيرهم أن الوزارة ستبقى في حالة أستنفار لمدة أربع وعشرين ساعة، ولفترة شهر كامل حتى تجد كوادر الوزارة حلاً شافياً لأزمة الرئيس!

وزارة العلوم الحديثة التي كانت في سباق تنافسي شديد مع وزارة التطوير العلمي رأت تطوير نوع من الدمى على شكل نساء، ويمكن وضع كل المواصفات التي يتمناها الرئيس في المرأة النموذج!

واتفقت مع شركات وطنية أخرى لتصميم أنواع المطاط المطلوب في الأجزاء المختلفة للدمية، التي تتحرك ببطاريات خاصة، ومن صفاتها أنها تحضن وتُقَبل وتقول تعليقات ظريفة بلغات عديدة!

وعكف على تنفيذ هذا الإختراع خيرة المهندسين في الوزارة مع أختصاصات في الكيمياء، والفيزياء والفنون التشكيلية، واعتبر الوزير أن العمل سيستمر ليلاً ونهاراً، لمدة شهر كامل.

وتم تمديد الموعد لفترة أخرى لحين أيجاد الحل، واتفقوا مع فندقين راقيين لتزويد العاملين بمبنى الوزارة بوجبة طعام واحدة كل يوم لتشجيع الرجال الساهرين على إتمام الاختراع، الذي سيحل المشكلة للأبد، وحاول وزير الإعلام الإتصال مباشرة بما لديه من أرقام هواتف لفاتنات العالم، اللاتي يظهرن عادة في برامج الفضائيات التلفزيونية المبشرة بالجنس الناعم لحل مشاكل العالم!

وأخذ يغريهن بالحصول على مبلغ عشرة ملايين دولار، وما تطلبه

الضيافة في فنادق خمس نجوم وهدايا مختلفة، وجوازات سفر خاصة بالدبلوماسيين يمكنهن أستخدامها طوال حياتهن، مقابل سفرة أستجمام وسياحة إلى العراق تحظى خلالها الفاتنة بمقابلة الرئيس والإطلاع على جمال قصوره الباذخة، وعقد الوزير اجتماعاً لوكلاء الوزارة لبحث الأزمة الناشئة بين الرئيس وأبنه بسبب الحورية الفاتنة، ومشكلة عزوف الرئيس عن بنات حواء بعد صدمته الأخيرة!

وموت وزير دفاعه بالحادث المأساوي، وأنعكاس ذلك على أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية، وبعد اتصالات مطولة، وعديدة بين الوزير وعدد من الفاتنات اللاتي أعتذرن بدلال.

فقد وصلتهن من قبل حكايات كثيرة تتحدث عن الرئيس وشدة بأسه مع الجميلات، ووحشيته الفائقة، التي لا تغري بل تخيف لأنها وحشية مرضية، وجنون لا تعرف الواحدة منهن ما الذي سيحدث لها في لحظات نشوته المدمرة، هل سيمد الرئيس في تلك اللحظة يده إلى مسدسه ليطلق النار على من تسببت بهياجه وأندفاعه أم يمدها بالمال وبثقلها ذهباً أم يخنقها حتى تجحظ عيناها، وتموت!

وهو لا يدري ماذا يفعل المغامرة في كل الأحوال مرعبة، ولا تحمد عواقبها وقد رسم التاريخ منذ القدم العلاقة المعقدة بين اللذة والقتل بين النشوة والتخريب بين الآلام الفادحة، والنشوة العارمة!

وحاول الوزير أن يضع على الطاولة كل تخصيصات وزارة الإعلام المالية تحت أمر المفاوض، فرفع المبلغ إلى خمسين مليوناً من الدولارات.

ولكن بلا فائدة تذكر، فمن تجرؤ على الدخول في تجربة لا تعرف نتيجتها؟ وربما كانت النتيجة الموت أوالعوق أو الاختفاء تماماً عن مسرح الحياة في بطون تماسيح؟ من تغامر على الموافقة تحت هكذا سقف من المخاوف؟

وتزداد مخاوف الفاتنات من أن يعمد المسؤولون لئلا يكشفن للعالم أمراض الرئيس النفسية، ورغباته الشاذة إلى الخلاص منهن متى أنتهى الغرض الذي جلبن من أجله!

كان الخط الهاتفي ينقطع، وتخربشت الأصوات فيه مبتعدة شيئاً فشيئاً ، وذلك لعدم دفع الوزارة المستحقات المالية السنوية للدول المجاورة، وأخيراً رمى الوزير سماعة الهاتف من يده غاضباً، وسمعه الوكيل الأقدم يتمتم :

ـ اعرف أن النتائج النهائية ستقع بأكملها على رأسي، وسيطلب مني أن

أقدم أبنتي له لتحل له مشاكله العائلية!
وتصنع الوكيل الأقدم، الذي كان يدير شبكة بغاء معقدة التنظيم من وراء ظهر الوزير، ويستفيد من خدماتها الليلية وزراء النظام، وكبار مسؤولي الحزب، وبعض قادة فرق المليشيا الحكومية، انه لم يسمع شيئاً مما قاله السيد الوزير، وأخذ يخط على الورق أرقاماً للمبالغ التي ستدفع له هذا اليوم من وراء تجارة البغاء الوالغ فيها إلى أذنيه!

-102-

لم يطل كثيرا عهد العميد السابق هيثم، الذي رفع رتبته العسكرية غداة الأنقلاب لأعلى رتبة في الجيش، قال له وقتها أحد رفاقه من العمداء السابقين في الجيش :
ـ أخيراً حققت حلمك بنيل هذه الرتبة الرفيعة، وأرجو أن لا تكون قد نسيت الكثير من التقاليد العسكرية خلال فترة تقاعدك الطويلة؟
فقال الرئيس الجديد جاداً :
ـ لقد أنتدبت احد الضباط الشباب ليعيد علي بعض دروس الكلية الحربية!
حدث ذلك منذ زمن بعيد لم يكن وقتها الرئيس الجديد يهتم بشيء غير أهتمامه بسؤال وزير المالية عن مبيعات النفط، ومقدار العملات الصعبة الموجودة في البنك المركزي، وضرورة تحويل الأموال على رقم حسابه السري في سويسرا.
وبعد ذلك يمضي النهار بمتابعة الطباخة الأسيوية، التي تعمل في القصر الجمهوري لينالها، كلما شعر بالرغبة فوق أكداس الأثاث القديم في الغرفة المجاورة لمطبخ وخدمات الرئاسة.
وبقي مخلصاً لهذه العانس، ولم يبحث عن غيرها طيلة فترة حكمه التي أنتهت نهاية مأساوية..
بدت الخادمة مسرورة في ذاتها بهذا الغرام الخريفي الذي جاء إليها بعد يأس تام من الحصول على حبيب أو مغامرة عاطفية على هذه الدرجة من الأهمية.
وبيدها التي حززتها سكاكين المطابخ تنظف رتبة الرئيس التي لوثها غبار الأثاث القديم أثناء مضاجعاتهما، المحمومة التي بدت لهما، وكأنها أحتضاراً مؤلماً.

وكانت خلال ذلك تغني له بعض المقاطع من أغنيات قديمة من بلادها بصوت رقيق، وقد حفظتها منذ كانت يافعة يتابعها المراهقون في مدينتها الصغيرة، وأستطاعت بعد ذلك بفعل هبات الرئيس الكريمة، وعلاواته الاستثنائية التي تنالها كل شهر تقريباً، فوق الراتب الذي تحصل عليه بالعملة الصعبة أن تشتري فندقاً قديماً في مسقط رأسها، وسيارة قديمة تعمل بالأجرة، وتوسعت بعد ذلك فاشترت متجراً كبيراً لبيع التوابل والمكسرات.

كانت سعيدة بهذه الثروة التي هبطت عليها، فبذلت جهدها لإرضاء رغبات الرئيس الشاذة، التي يبغي من وراءها أثارة غرائزه ومعالجة ضعفه الجنسي بفعل التقدم في السن.

وحين ترى الحزن يخيم على قسمات وجهه، وهو ينظر عريها الباذخ، ومفاتنها المغرية دون أن تنتصب رجولته، تمسكه بحنو من ذراعيه وتسحبه نحوها لينام متوسداً صدرها العاري، وقد لف حول رقبته النحيلة ثدييها الطويلين كجوربين.

وتمسح هي بعد ذلك بأصابع خبيرة مسرى العروق في ظهره، وفي مناطق محددة تعرفها تماماً، وتضغط عليها بأطراف أصابعها بقوة، وتمد أصابعها بخفة لتقرص حلمتي ثدييه بقسوة فيصرخ متألماً، لكنه يشعر بكهرباء الرجولة توخز أعماقه ثم تغافله، وتدس شيئاً في دبره فيشعر باشتعال النار في مؤخرته، فتقسو قسماته ويتصلب وجهه معتقداً في حينها أنها أرادت أن تؤذيه.

لكنها تغمز له بأغراء، كأنما تقول له أنتظر نتائج الوصفة المذهلة ثم بعد أن يلوب متألماً قليلاً من الوقت، ويشعر بعدها بدبيب رجولته يسري في عروقه، ودمه يسري سريعاً في عروقه، وقلبه يدق عنيفاً، فتنبض الروح فيه، لينالها وهو يئن من ألام دبره، ورغباته غير المنطفئة.

فيختلط شعوره بالألم باللذة، ولا يستطيع خياله أن يحلق بعيداً بسبب لهاثه، وأرتجاف بدنه، وتقلصات عضلاته وأنقباض قلبه..

وعندما يهدأ بعد حين، ويهجم ساقطاً فوقها كقتيل، وقد نال منه الإعياء كثيراً يسألها بصوت واهن محبط :

- ماذا وضعت في دبري يا مجرمة؟

فتضحك بدلال، ولا ترضى أن تخبره وأكتشف في يوم من الأيام عن طريق المصادفة وحدها أنها كانت تستخدم معه مسحوقاً معقداً يدخل في تركيبه الفلفل الأسود، والزئبق الأحمر وأنواع البهارات الهندية لتستحث

رجولته.
وكان ثمن تلك اللذة المستعارة بواسطة تلك الخلطة الغريبة السرطان، الذي أخذ يتبرعم في دبره لقاء عشرات لقاءات الأحتضار تلك بين أكداس الافرشة الرئاسية المتربة، والستائر الحائلة اللون، وإعلام الدول المختلفة المركونة عقب الاحتفالات الوطنية، والكراسي الرئاسية المخلوعة ورائحة الأخشاب المتعفنة..
كان النائب يقوم بكل أعباء الرئيس، ومرافق الرئيس الذي عينه له نائبه يبلغه كل ساعة بتحركات رئيسه، وحصة الأسد من وقت الرئيس تذهب إلى مغامراته مع الغانية الأسيوية، ومعالجة ألام لكرات سرطانية جلدية، نشطت بتأثير المسحوق الجنسي المدسوس في دبره.
فيبقى ساعات كثيرة في الحمام الرئاسي يغسل بقايا المسحوق الشيطاني، الذي يشعل النار في مؤخرته، ولا يتركه يستقر في الجلوس أكثر من دقيقة على كرسيه، ليهب بعدها مهرولاً باتجاه الحمامات، وهو يطلق قسمه المتكرر، بأنه لن يقترب ثانية من هذه الأسيوية المجنونة التي تقتله بسحرها وسمومها، مثلما تفعل العنكبوت بزوجها العنكب!

-103-

عندما بدأ النائب يفكر جدياً بإزاحة الرئيس عن كرسي الحكم، أراد أن يتم الأمر بصورة ودية، لأنه لم يكن بعد قد ضمن ولاء المؤسسة العسكرية.
التي كانت ثمة تقاليد صارمة تتقيد بها، وهي لا تعترف به، لأنه لم يكن عسكرياً في لحظة من لحظات حياته، وأنه يعتبر حسب مفاهيمها من الهاربين من الخدمة العسكرية!
وعلى الدولة أن تقدمه إلى محكمة عسكرية، لتقرر بعد ذلك عقوبته قبل أن يفرض نفسه عليها كضابط أو مسؤول أما الرئيس، فهي تعترف به بالرغم من غبائه، لكونه كان من أغبى عمداء الجيش في ذلك الوقت!
فكر النائب طويلاً قبل أن يقرر تدبير حادث مروري لأبن الرئيس المتهور دوماً في قيادته لسيارته المرسيدس الجديدة.
وعندما يحصل الحادث الجلل عندها سينهار الرئيس نفسياً، وبدنياً وتسوء حالته الصحية، وتسود الدنيا في عينيه عندها يتقدم بطلب الأستقالة راجياً أن يدعوه، وشأنه مكتفياً بما سرقه من أموال البلاد، وما

ناله من لذائذ المرأة الأسيوية، على أمل أن يعيش شيخوخة صالحة في إحدى المنتجعات الأوربية، التي أشتراها في السنة الأولى من حكمة للبلاد.

وبالفعل تم للنائب تدبير الحادث المروري، وقتل فيها ابن الرئيس وزوجته بميتة بشعة، وحرص النائب على نقل صور الحادثة للرئيس، فظهرت جثة الأبن المشوهة، فلم يحتمل الرئيس رؤية أبنه، الذي قتل بشكل بشع، فأغمي عليه، ونقل بسرعة إلى احد المشافي الخاصة، تحت حراسة رجال النائب.

وبعد شهور قليلة من تلك الحادثة المأساوية، أنقطع البث التلفزيوني، ليظهر بعد ذلك المذيع بوجهه المكرمش الكئيب ليعلن على الملأ نبأ تنازل الرئيس عن الحكم، لنائبه بسبب ظروفه الصحية.

وعرض التلفزيون بعد ذلك أغنية وطنية ومن جديد أنقطعت الأغنية، ليظهر المذيع الأعمش مرة ثانية بوجه ضاحك، وحاجبين منفوشين وأسارير منبئة عن أنقلاب حقيقي، ليعلن عن زيادة في مرتبات موظفي الدولة بمقدار عشرة بالمائة، وختمها بان هذه المكرمة السخية من الرئيس الجديد، لشعبه المناضل.

وعاش الناس ليلة فرح لا مثيل لها، وأعلن بعد ذلك عن عطلة رسمية لكل مؤسسات الدولة والجيش، واخذ التلفزيون يبث أغنيات، ورقصات أجنبية لم تعرض من قبل على الشاشة الصغيرة ...

وفي اليوم التالي أعلن التلفزيون عن إعدام مجموعة صغيرة من الضباط المتآمرين على سلامة البلاد، وأفراد من القيادة العليا للحزب الحاكم!

لم يسمع الخبر المقتضب إلا قلة من الناس، فقد كان الشعب يغط بنوم ثقيل، وأحلام سعيدة بعد أن هدت قواه أفراح الليلة السابقة، والراقصات اللاتي ظهرن في الشاشة الصغيرة، ولم ير احد من قبل لهن مثيلاً، ووعود الغنى الجديد بالزيادات الطارئة، التي حطت على المرتبات، وشملت المخصصات، وتم للنائب ما أراده بليلة واحدة وأصبح رئيساً وحيداً لا ينازعه أحد في البلاد.

وذبح كل منافسيه بلا ضجة، ولم يسمع احد صرخات الرئيس السابق الذي كانت مشارط الأطباء الساخرين تستخرج من دبره بقايا حبات الفلفل وآثار الزئبق، وقد غطاها جلد سرطاني محرفش، وأجريت عمليته بلا تخدير لأن قلبه الضعيف لا يحتمل أي تخدير، وكذلك لأنه كان مصاباً بمرض السكر، مستأصلين التهابه الدائم، الذي يسيل منه الصديد، مختلطاً

بالدم الخاثر والأنسجة المتعفنة، وبقايا الغائط اليابس!

-104-

عندما هب الشعب ثائراً بوجه نظام الرئيس في جنوب الوطن، وامتدت الأنتفاضة من جنوبه إلى شماله..

الفلاحون والجنود الذين عادوا من الحرب مهزومين، والجنود الأسرى من الحرب الماضية، الذين رفضوا العودة إلى البلاد من قبل أنطلقوا جميعاً من وراء الحدود الشرقية بعد أن بقوا سنوات كثيرة يعيشون في الصحراء الحدودية، مثل حيوانات غير داجنة.

وكان نظام الرئيس يرفض أستلامهم بدعوى أن لا أسرى لنظامه في تلك الحرب، التي استمرت بلا توقف سنوات كثيرة، ورفضت الدولة التي أسرتهم خلال الحرب بقاءهم كل هذه الفترة الطويلة على أرضها.

وتخلت عنهم أيضا المؤسسات الخيرية الدولية، وتوقفت عن أمدادهم بالغذاء والدواء والمساعدات الإنسانية الأخرى، وعندما أزفت الساعة وثار الناس في جنوب البلاد، وجدوا فرصتهم في الأنتقام لإنسانيتهم المهدورة، فاندفعوا عابرين الحدود مدمرين كل شيء يخص الدولة يقع في طريقهم..

بدأت الأنتفاضة في البصرة حين وجهت دبابة منسحبة مع الجيش المهزوم ماسورة مدفعها صوب صورة كبيرة للرئيس، وأطاحت بها، كان الجيش قد أنسحب بفوضى لا مثيل لها في كل جيوش العالم!

فخرج الناس من بيوتهم المهدمة، وملاجئهم، صوب مقرات الشرطة، والآمن والمخابرات، وقتلوا من قاومهم، واستولوا على الأسلحة الخفيفة واحرقوا هذه المقرات.

وتوجهوا بعد ذلك بمجموعات حاشدة صوب السجون، والإدارات التابعة للدولة، والحزب الحاكم ومخازن الغلال، وأخذوا ينفذون حكم الإعدام بكل من يقف بوجه الأنتفاضة.

واتجهت بعض الجموع الثائرة صوب مخازن الحبوب، كان الشعب جائعاً، خائفاً، وفجأة أمتلك زمامه في غفلة من الرئيس وأجهزته القمعية، باحثاً عن حريته المسلوبة منذ عشرات السنين.

واجتاحت جحافل الجائعين المخازن كانوا مثل أسراب النمل في ذهابهم وأيابهم، حاملين ما لذ وطاب من المعلبات والحبوب، وقد حرمهم منها

نظام الحكم سنوات وسنوات.
كان مسؤولوالنظام يوزعون من تلك الخيرات على أتباعهم، ومريديهم سراً تاركين سواد الشعب يعاني اسوأ معاناة في تأريخها.
وامتلأت بيوت الناس بالخيرات المأخوذة من المخازن الحكومية، وشعر الناس أنهم فعلوا ما كان عليهم أن يفعلوه منذ زمن طويل، وان نظام حكم الرئيس أنتهى إلى مزبلة التاريخ!
وكانت الأخبار ترد لأهل الجنوب من كل مناطق البلاد، وهي تؤكد سيطرة الشعب على كل دوائر، ومراكز الدولة في الجنوب والشمال والشرق، والغرب.
وشعر الناس أن الرئيس يعيش أسيراً في قصره الرئاسي، لا يستطيع أن يفعل شيئاً غير آمر واحد أن يوجه فوهة مسدسه إلى فمه ويضغط الزناد، وذلك ما يفعله عادة الطغاة حين تهزمهم شعوبهم.
لكنه لم يعطهم هذه الفرصة، وكيف يعطيها، وثمة حياة تنبض في عروقه حياة دودية يعرفها جيداً، ويفخر بها دوماً، وهي التي تعنيه على البقاء متى ما هزم في معركة ما.
هاجمت الجموع السجون السرية، والعلنية وأطلقت السجناء، وكان عددهم كبيراً قدره بعض الثائرين بعشرات الآلاف، وأخذ الناس ينظمون أنفسهم، بمجموعات مسلحة بالسلاح الخفيف، الذي سلبوه من مخازن الجيش.
وأخذت هذه المجموعات تقبض على أفراد الحزب الحاكم النشطين، وأعضاء إدارته البارزين، وتضعهم في سجون عشوائية، وأحرقوا ملفات الدوائرالحكومية الورقية.
لم تكن هناك قيادة مركزية تنظم حركة المسلحين، كان الفرح يسيطر على مشاعر الناس، وتنطلق من أفواههم صرخات لا معنى لها..
يرون أعمدة الدخان ترتفع من مقرات الحزب الحاكم، وإدارات أمنه ومخابراته تلك كانت رغبات الناس المكبوتة منذ أمد بعيد، وحلمهم الذي كانوا يخفونه عن أقرب الناس إليهم.
كان الرئيس في ذلك الصباح الذي ثارت أثناءه جموع الشعب يعد مع وزير دفاعه الجديد ما بقي لهم من وحدات عسكرية، لم ينلها التدمير، والتشتت بعد الهزيمة العسكرية الأخيرة.
كان يمسك بين أصابعه بقلم خشبي أحمر، ويؤشر على الأوراق، التي قدمها له الوزير وأخذ يجمع الأرقام بعمليات حسابية بالغة الطول، فقد كان

ضعيفاً في الرياضيات منذ طفولته، وهو عادة يدير عمليات الضرب كعمليات جمع مطولة، وحين يضطر لأجراء القسمة، فهو يعمد إلى عمليات طرح معقدة طويلة، ليصل إلى رقم قريب من النتيجة الحقيقية، وبهذه الطرق الرياضية البدائية اخذ يعد أعداد الدبابات المدمرة، وناقلات الجنود، والطائرات المقاتلة التي فر بها طياروها من سماء المعركة باحثين عن أجواء آمنة في دول الجوار، فأخذوهم أسرى هم وطائراتهم لمعاداة تلك الدول لنظام الرئيس.

كان قلمه الأحمر في كل مرة يبتعد عن أعداد القتلى من الجنود والضباط التي بلغت مئات الألوف إلى أرقام المعدات والآلات فقد كانت أعداد الجنود القتلى لا تقلقه.

بالضبط مثلما كان يشعر حين يلعب الشطرنج مع خصم عنيد يتعمد قتل جنوده فيشعر أن عدوه فعل حسناً، لأنه أزال حاجزاً يمنع آلاته الأخرى من حرية الحركة.

وربما وضع ذلك في أكثر من خطاب سياسي له مع القيادات الحزبية مسفهاً جميع من يقولون أن الشعب هو الوطن، وأي تقصير من الدولة أتجاه شعبها، فان ذلك يعني تقصيراً بحق الوطن معتقداً أن تعويض الإنسان في بلاده عملية سهلة!

والإنسان مهما كان نبوغه، وعلمه، وفائدته للمجتمع، فهو ثمرة مضاجعة لا قيمة لها!

ويمكن أن تحدث في أي وقت قادم لتعويض من قتل، ومادام الإنسان محصوراً في حيويته بين تاريخين تاريخ الولادة والموت، فمعنى ذلك أن لا قيمة حقيقية لشيء زائل!

وكائن من كان فهو قالب ثلج سرعان ما يذوب، ويتسرب إلى الأرض فتبتلعه ويتبخر إلى الأبد!

والأصعب عنده فيما يواجهه أثناء الحكم، هو كيفية الحصول على بديل للدبابة المدمرة والطائرة المحترقة لا الإنسان المحطم! فهو موجود وكثير إلى درجة الأكتظاظ!

-105-

سأل وزير دفاعه، وهو ينظر إلى رقم كبير كان لأعداد القتلى، وضع على طرف القائمة بلغ الرقم بضعة ألاف، ومائة ألف، تحت عنوان على طريق دولي وقع هذا العدد من الشهداء.

كان الطريق لا يتجاوز طوله عشرة كيلومترات، كان الرئيس يعرفه جيداً، فأجاب الوزير متلعثماً:

ـ انه طريق الموت سيدي، لقد تتبعت طائرات العدو وحداتنا المنسحبة في هذا المكان المكشوف.. مئات الطائرات يا سيدي تتبعت وحداتنا المنسحبة في هذا المكان وألقت بحمولاتها المنفجرة فوق رؤوس الجنود المنسحبين، فحصدت بيوم وليلة ما حصدت لكن المعنويات بقيت قوية..

وأكمل :

ـ الباقون أكملوا أنسحابهم إلى داخل الوطن بأمان وسلام!

لم يقل الرئيس شيئاً، وفي هذه اللحظة بالذات رن جرس الهاتف الخاص بأخبار التمردات الشعبية، والمؤامرات، فرفعه وزير الدفاع، وقدمه لرئيسه نهض الرئيس متثاقلاً، وأنصت لصوت مسؤول السيطرة المركزية الأجش :

ـ المتمردون في كل مكان، لقد خرجوا إلى الشوارع، قتلوا مسؤولي الحزب وخربوا إدارات الدولة..

ـ الدمار في كل مكان وصل إليه المتمردون مراكز، وإدارات أجهزة المخابرات، والآمن تتعرض إلى هجمات مكثفة، الزمام يفلت في أغلب محافظات القطر، التمرد شمل جميع محافظات القطر الجنوبية، وتقود المتمردين وحدات من الجيش، التي أنسحبت من الحدود الدولية إلى داخل الوطن...

ـ عدد كبير من المجازر نفذها المتمردون لكبار الرفاق الحزبيين، والحريق أندلع في كل البنايات الحكومية، والحزبية في جنوب البلاد ووسطه وشماله نحن بأنتظار أوامركم سيدي لتوزيعها على مراكز القيادة البديلة!

وضع الرئيس سماعة الهاتف بشكل مقلوب، وجلس على الكرسي المذهب، ونظر إلى وزير دفاعه بعينين مغرورقتين بالدموع قال بصوت ضعيف محبط:

أبو علي أنتهى كل شيء، سيدخل الخونة عما قريب بيوتنا ويذبحوننا مع أطفالنا!

وبالرغم من أن وزير الدفاع لم يعرف ما دار بين رئيسه، وجهاز الإنذار المبكر إلا انه خمن أن القوات المعادية بدأت بالزحف صوب بغداد أو أنها قامت بأنزالات مظلية قريبة من القصر الجمهوري، فهب واقفاً وقفة عسكرية تمثيلية، وقال محاولاً أن يبدو جلداً :

سيادة الرئيس سننفذ الخطة السرية المسماة فروة الأسد، وعلينا وعلى أعدائنا!

فحرك الرئيس يده وطلب من وزيره الجلوس ثانية، وقال له بصوت مرتجف:

ـ أبو علي الشق عريض جداً، ولا يكفي الأسد ولافروته بتغطيته!

جلس الوزير ولأول مرة شعر بقربه من الرئيس وأنه قريبه فعلا وليس غريباً عنه، إضافة إلى ذلك، فهو زوج ابنة أخيه، ويركبان ذات القارب المخروق سأله محرجاً:

ـ أود لو اعرف حقيقة الأخبار المقلقة التي وردتك؟

ـ الخونة هذه المرة يا أبن عمي! لقد خرجت الفئران أخيراً من جحورها لقد دمروا كل مفردات الدولة، والبلد الآن من جنوبه إلى شماله بلا حكومة تحكمه سنستعين بقوات الاحتياط والوحدات الخاصة!

ـ اجل سيدي الرئيس لدينا في الأحتياط ست فرق آلية مدربة تدريباً عالياً ومجهزة بأفضل الأسلحة، سندمرهم إلى الأبد هذه هي الفرصة الحقيقية لقتل الخونة جميعاً وبضربة واحدة، وبإشارة واحدة منك سيدي ستتحرك الوحدات المحيطة ببغداد متجهة صوب المتمردين!

ـ ومن يضمن لنا عدم هجوم الأعداء من الدول المجاورة بأتجاه بغداد إذا صارت عارية من حماية هذه الفرق؟

لقد وقعنا معهم قبل يومين وثيقة وقف أطلاق النار، وحسب الوثيقة دخلت قواتهم مخترقة الجنوب إلى مسافة مائتي كيلومتر من الحدود الدولية في عمق البلاد، وسيبقون في هذا الجزء الحبيب من الوطن، لفترة زمنية محدودة قبل أنسحابهم من أراضينا، ولن يتدخلوا في أمورنا الداخلية حسب الاتفاق الأخير بيننا وبينهم!

ـ وماذا عن الآمن والمخابرات؟

هذا آمر بسيط لقد طردت دول العالم كل أعضاء مخابراتنا، وقد عادوا إلى البلاد، وقد جمعناهم قبل الحرب في بغداد، وهم ألان بلا عمل حقيقي!

وقف الرئيس وشع الآمل من جديد في عينيه:

ـ سنوزعهم على المحافظات ليقودوا التمرد هناك أنها خطة عبقرية أجل هذا ما سنفعله بهم، ضع الخطط المناسبة لزحف الوحدات الخاصة صوب الوسط والجنوب لن أعطي الفرصة للخونة أبداً ليثأروا منا، ومن أطفالنا حتى لو اضطررت لبيع الوطن لمن يشتري! وليفهم الجميع هذا نحن العراق ومن دوننا فلا عراق يبقى!

ومن جديد رفع الرئيس جهاز الهاتف المقلوب، وقال حازماً :
تتألف ثلاث لجان مركزية لها صلاحيات رئيس الجمهورية، واحدة للجيش وأخرى للمخابرات والآمن، ولجنة ثالثة تتصل بالأعداء الخارجيين وتضمن تحييدهم ..
ومن جديد عادت النبرة المتغطرسة في لهجة الرئيس، فقال للوزير:
ـ وألان سمعت يا وزير دفاعي، ما أمرت به أسرع إلى وزارتك للتنفيذ، ولنلقن هؤلاء الحمقى دروساً لا تنسى أبداً..
فاستعد الوزير محيياً رئيسه، وغادر مكان الأجتماع...

-106-

ماذا تفعل الكلمة إزاء الطلقة؟!
أنها ليست إلا صرخة صامتة .. ترسم على الورق وجه القاتل..
الصرخة أخت الكلمة في هذا الزمن الرديء لا تستطيع أن توقف قاتلاً عن أتمام فعله البربري ..!
ـ من مذكرات ثائر أعدمه رجال الآمن في جنوب العراق عام 1991ـ

حين علم " تحيا الحياة " بأنتفاضة الشعب في جنوب العراق لملم أوراقه، وأفرغ حقيبته الصغيرة من محتوياتها، وأخذ يضع فيها أدوات حلاقته، وكيس تبغه، وقلمه العتيد، ودفتراً صغيراً يسجل فيه ملاحظاته، لم يخبر زوجته شيئاً، لكنها فهمت بالغريزة انه ينوي أمراً خطيراً، سألته وهي تقدم له مبلغاً صغيراً كانت تحتفظ به لوقت الحاجة:
- تحتاج مالاً..
احتبست الدموع في عينيه، قال وقد توقف عن وضع حاجياته في الحقيبة :
ــ أنتفاضة كبيرة قام بها أهلنا في الجنوب، وعليَّ أن أشارك فيها، أنت تفهمين هذا؟
هزت رأسها موافقة، ولم تقل شيئاً قال هامساً:
ــ لا احتاج المال أحتفظي به لأجل أطفالنا ..
لم تقل شيئاً، كانت تمسد بباطن كفها شعر أبنهما الصغير، نظر إليهما ويده تستقر على قفل الحقيبة، وفكر بحجم معاناة هذه المرأة خلال حياتهما المشتركة!
وكم من السنوات التي أمضتها معه، برغم الصعوبات والمخاطر، وتذكر

تلك الفتاة الرائعة الجمال، التي تعرفها مرة خارجة مع سرب العاملات المغادرات من معمل كبير للنسيج.

يتذكر انه عندما نظر إلى عينيها أول مرة شعر انه أسيرها إلى الأبد، والعالم بأكمله يدور حولها دوراته، وينسج له متعه بين ثنايا شعرها الأسود، وشفتيها المضمومتين، كأوراق زهرة لم تتفتح بعد كم من السنوات مضت على ذلك المشهد؟

ليبرز الشيب خصالاً غليظة في مقدمة شعرها، ويفقد جسدها ليونته ولونه البرونزي، وتجتاح التجاعيد رقبتها، وتنفر من جلدها العروق الزرقاء، ذلك الزمن المقتول من عمريهما في حروب الرئيس، وأزماته المفتعلة، وتصفياته للناس التي لا تنتهي بسبب وبلا سبب!

ذلك الزمن العزيز الذي سرقه من أعمار الشعب العراقي كله، وترك الجميع مهمومين في البحث عن النجاة أي نجاة ومهما كان ثمنها!

والبحث عن الشعور بالأمان من مصائب قادمة أو ستقع قريباً على رؤوسهم، ربما كتب كل ذلك في قصة قصيرة رمزية عن فضائع النظام وتعسفه أوعن هروب الناس من أجهزته القمعية، التي تسخر الناس بالقوة الغاشمة، وتركبهم لتحارب بهم حروب الرئيس العدوانية الكثيرة ضد دول الجوار، وضد قوميات البلد، وجماعات البلاد العرقية.

يتملص الكاتب دوماً من إملاء قوائم وأستمارات المعلومات التي على الناس واجب إملائها، إثناء حملاته المخابراتية، وأثناء البحث عن المعارضين لنظامه.. تنهد الكاتب، وقال بصوت خفيض:

- أنا ذاهب كما ترين.. فلتحيا الحياة!

وربما أراد أن يقول لها:

- ربما لا أعود أبداً .. لكنه لم يستطع أن يكمل الجملة سمعها تقول وصوتها تشوبه بحة حزن:

- في آمان الله سأنتظرك.. أعتن بنفسك!

وقبل أن تسفح دموعه ودموعها غادر الدار دون أن يعرف إلى أين يتجه أو كيف يلتحق بالثائرين في جنوب البلاد، ووسطها، والدنيا مقلوبة، والطرق مقطوعة، والجنوب صار نائياً جداً، وأبعد من أن يصل إليه أحد، وقد قطعت الطرق الرئيسية، ومعظم الجسور، والقناطر بين منطقة، وأخرى دمرتها طائرات الحلفاء، أثناء الحرب التي سبقت الأنتفاضة بفترة قصيرة، لكنه كان مصمماً هذه المرة على أن يؤدي واجبه كاملاً، ولا يكتفي بالكلام، والهرطقات الفارغة والناس ينزفون!

غادر بغداد في سيارة حوضية تنقل جنوداً هاربين من جبهات القتال رأى في الطريق قطعات من الجيش تتجه صوب الجنوب بمعداتها الثقيلة، وأعلامهم الموشومة بشارات الجماجم، والعظام المتقاطعة، وملابسهم النظيفة، وسياراتهم الجديدة، فاحتبست في صدره آهة، وقال من بين أسنانه:

ـ أولاد الزنا سيذبحون أهلنا، هكذا هم على شعبهم أسود ضارية، وفي الحروب ضد الأعداء نعامات خرقاء .. تحيا الحياة!

وخزه الرجل الجالس إلى جواره وقدم له لفافة تبغ، استطاع أن يلفها بالرغم من الريح الشديدة والبرودة وصرخ معه " نعم تحيا الحياة!" ثم سأله بعد لحظات سأله :

ـ أيذهب السائق إلى النجف؟

ـ الطريق مقطوعة.. ربما تصل السيارة منطقة المحاويل فقط

ـ ومن هناك كيف نصل إلى الجنوب؟

ـ الله كريم ..

أرث لفافته والشمس تختفي في الأفق، وخيط طويل من شاحنات وحدات الجيش لا تنتهي، والوجوه تصطبغ بحمرة غامقة بفعل الشمس، ومن مكانهم سمعوا أحد الجنود يصرخ بأتجاههم:

ـ شروك، معدان .. خونة خونة!

ثم أطلق عليهم سيلاً من البذاءات، وفكر الكاتب يبدو أن الصورة قد وضحت الآن، وكل طرف يعرف عدوه، الظالم والمظلوم، لقد انتهت الفترة المعتمة، التي كانت تحيط الأشياء بالغموض، أذن تحيا الحياة!

ودرجت السيارة القديمة على طريق ترابي تاركة الطريق المعبد لوحدات الجيش المتوجهة لقمع أهل الجنوب..

-107-

حين ولج الرئيس غرفة نوم حوريته مهزوماً بعد أن أعيته الحيل لإيجاد بديل لها أبتسمت له بإغراء.

كانت متمددة على السرير في كامل زينتها، كأنما تعرف انه سيذهب بعيداً، لكنها ستجره إليها من جديد بحبل غير مرئي مدت يدها إليه طالبة منه الأقتراب، لكنه لم يقترب اقتعد كرسياً قريباً من سريرها، وأخذ يحدق في وجهها برغبة عميقة لاحتضان شعرها الناعم، وصدرها النافر بامتلاء بض وتفصيلات جسدها، الظاهرة من خلال الغلالة الشفيفة، تشيع السحر

الآسر، وما تبثه عيناها من أشعاعات روحها.

شعرت بفرح شديد لهذه الرغبات المحمومة، التي تفشي بها عينا سيدها، وحاولت النهوض، لكنه منعها بحركة من يده قال بصوت منفعل:

ـ كيف صحتك اليوم؟

ضحكت وقالت كأنما تذكره بشيء قديم:

- بخير النهر يغسل نفسه كل أربع وعشرين ساعة!

قال غاضباً:

ـ بين آخر مرة رأيتك والوقت الحاضر حدثت أمور لا يمكن نسيانها!

قالت ضاحكة:

ـ انك تهول الأمور كثيراً يا عزيزي، كل الذي حدث كان غمامة صيف ألقت قطرات ماء فوق الأرض، وبعد لحظات تبخر كل شيء وأنتهى الآمر!

وقف مرتبكاً كان يريد أن ينسى المخازي السابقة، ورغبته العنيفة بأمتلاك جسدها اللدن من جديد تخز قلبه وخزاً مؤلماً..

اقترب من النافذة فهمست له من جديد:

ـ المساء حل يا حبيبي منذ وقت طويل، وزهور الحديقة لا ترى إلا من خلالنا معاً، فتعال لأسعد بك، ولأرويك من رحيقي يا يعسوبي .. لتلسعني بإبرة الموت!

نهضت واقتربت منه وتخيل حركتها خلفه، وذلك الأمتلاء اللذيذ في جسدها، فبلع ريقه الجاف كان كجائع يمررون من أمامه طعام تنثال منه رائحة مطيبات لا تقاوم شعر بذكورته تتوتر وتنتفض بلع ريقه من جديد وشعر بيدها الساخنة تزحف على كتفه سمعها تهمس بصوتها الذي يحب أن يسمعه:

ـ تعال يا حبيبي لا تكابر فكل خلية فيَّ تناديك!

تحدي غرائزه.. وداخله ينمو رفض حاسم ، دفع يديها عن كتفيه:

- أرجوك أتركيني فاني أعاني الآن حدَّ الموت!

سحبت كفيها كأنما أسقط في يدها شعرت أنها لا يمكن أن تضغط عليه أكثر مما فعلت رجعت كاللبؤة الجريحة، وجلست على طرف السرير، والدموع تسفح من عينيها قالت بصوت حزين:

ـ انك تعرف أن لا ذنب لي فيما حدث!

قال بصوت فيه تحذير:

- هي الأقدار المكتوبة أقدار ظالمة لا يمكن ردها!

قالت وهي مؤمنة بكل كلمة تقولها :

ـ إذا كان موتي يرضيك فسأقتل نفسي!
التفت نحوها غاضباً :
ـ ستقتلين نصفي بقتلك نفسك!
تصاعد نشيجها وسفحت دموعها بغزارة :
ـ أني طوع بنانك أن أردت أن أموت، فلا تحمل نفسك ما لا تحب، سأقتل نفسي لتعرف مدى حبي لك .. اقسم لك أني ما أحببت رجلاً بقدر ما أحببتك، ولم أعط مشاعري لرجل كما أعطيتك.. صورتي جنب صورتك في منامي، ويقظتي منذ ألتقيتك وصرت زوجي، وأنا مجنونة بحبك!
ثم صاحت بهياج شديد :
ـ أني مجنونة بك.. أفهمت الآن أنا على أستعداد للموت مئة مرة لأثبت لك هذا!
ألتفت إليها هذه المرة كبطل أحد الأفلام الهندية بعينين حمراوين مغرورقتين بالدموع:
ـ لم يحبني احد أبداً.. لم تحبني حتى أمي! أتذكرها عقب وفاة أبي وقسوتها علي! وزوجتي التي لم تحبني أبداً، أولادي يكرهونني! الشعب يصفق لي كذباً ونفاقاً وخوفاً، ويلعنني ويلعن اللحظة التي رأى بها صورتي، وسمع بأسمي، ووزرائي، كل واحد منهم يلوب خائفاً على نفسه وزوجته، الدول الأجنبية التي خدمتها طويلاً، وهذه الدول يومياً تضع الخطط للتخلص مني، العرب ومعظمهم صار يراني شيطاناً يذيق شعبه الذل والموت!
كرهت نفسي نعم كرهتها.. يداي هاتان ملوثتان بدماء الملايين أتفهمين؟ ملايين الأرواح الهائمة تتراءى لعيني كل لحظة!
خلال ذلك أقترب من الحورية، وجثا عند قدميها، وأخذ كفيها قريباً من وجهه:
ـ ملايين القتلى، ملايين الجماجم الآن في القبور تلعنني، مئات الآلاف من الجماجم بلا قبور نبتت فيها الأعشاب في الصحاري، وبين الجبال تردد و أسمعها يومياً تتوسل بالخالق أن يمحقني، ويزلزل الأرض تحت قدمي، بعد كل هذه الذنوب المرعبة أجد من يحبني؟ ما اسوأ هذه الأكذوبة!
أمسكت بكفيه بحركة مسرحية، وأخذت تبللهما بدموعها :
لو كنت أفنيت العالم كله فأنا أحبك نعم احبك... الحب مثل الوباء لا يفرق بين مجرم وبريء، إنه يصيب الجميع أقتل ما شئت من الناس فأنا أحبك كما أنت!

ألتمعت عيناه أمسكها بكلتا كفيه من كتفيها، وأوقفها أمامه وبعنف شديد أخذ يمزق ملابس نومها، وكاد الفرح أن يطير صوابها فها هو يعود لطبيعته المتوحشة من جديد، هذا الريفي المتوحش!

وهي تحب فيه كل هذا الجنون والبدائية، وحين أصبحت عارية سحبها من يدها وأضجعها على السرير.

كانت تنتظره وطالت لحظات أنتظارها فأغمضت عينيها، وأحست بأصابعه على جسدها ساخنة، ومرتجفة.

سمعت لهاثه وشخيره، وأحست بقطرات لزجة تبلل جسدها تمنت أن يغفر لها ما حدث، بقي دقائق، وأصابعه تجوس في عري جسدها ثم اخذ يقبل كل جزء منها.

وبعد ذلك نهض وسمعت وقع خطواته في نهاية الغرفة، وصوت الباب يغلق فعرفت انه خرج من حياتها إلى الأبد، ولم يبق أمامها غير طريق الهلاك!

فهو لن يغفر لها ما حصل، وقد رسمت الشكوك في نفسه الكثير من الندب، أجهشت باكية، ودفنت رأسها في الأغطية، وصرخت بقوة، إلا أن صوتها لم يتجاوز غرفتها، خنقته الوسائد وجدران الغرفة المعزولة...

ماذا بقي لها غير أن يقتلها بوحشية، كما فعل مع الكثيرات، وعليها ان تختارهي ميتتها، عليها أن تسبقه، لتنال في الأقل موتاً كريماً بعدما عاشت حياة ذليلة، لا معنى لها غير تلبية رغبات متوحش! حرمها الحياة الكريمة في ظل زوجها السابق!

-108-

أدخل السجانون الغلاظ أبن الرئيس في قفص صغير من الحديد ..حشروه داخله حشراً فهو بالكاد يسع جسده الضخم، وتركوه تحت الشمس المحرقة وسط باحة احد قصور الرئيس.

وأمر الرئيس أن لا ينال الأبن من الطعام في اليوم سوى وجبة واحدة يجمعونها له، مما يتبقى من فضلات كلبه المتوحش سقر، ويسقى شربة ماء واحدة، وأخذ الأبن المدلل يعاني منذ الدقائق الأولى، ولم يمد يده للأكل الذي أكل منه كلبه سقر.

وامتنع أيضاً عن شرب جرعة الماء كان في إضراب مفتوح عن الآكل والشرب، لتأديب أبيه.

وتوسط الوزراء عند الرئيس ليصفح عن أبنه، وجميع توسطاتهم ذهبت

أدراج الرياح بتمثيلية سمجة مثلها الحاكمون بينهم.
وكان جمهورها الشعب المغلوب على أمره، الذي كان ينتظر نهاية المسرحية، بعفو رئاسي عن الأبن بروح الأب الذي يغفر لأبنه كل الذنوب والرزايا.
وبالرغم من حزن الأم على أخيها الذي أغتاله زوجها قبل فترة قصيرة إلا أنها حين سمعت بأخبار القفص الحديدي الضيق، الذي وضع فيه أبنها المدلل والمعاناة الرهيبة، التي يعانيها تحت الشمس الحارقة، والمتعة الممزوجة بالألم التي يشعرها الرئيس عصر كل يوم من أيام عذاب ولدها، وهو يجلس بمواجهة القفص، ليرى ذبول أبنه اليومي، وعذابه ونمو لحيته وأصفرار وجهه، وقد صار وجهه يحاكي وجوه الموتى!
صرخت سيدة القصر وقالت أنها لا تسمح بقتل أبنها من أجل اساءته لمومس، وأخذت تتصل بكل معارفها طالبة منهم الذهاب إلى زوجها، وطلب العفو للأبن، وجندت الشعراء فأخذوا يدبجون قصائد عصماء في مدح الرئيس، وعهده الزاهر، وعدالته، التي لا تضاهيها عدالة.
وطلبهم عند نهاية كل قصيدة بالعفو عن أخيهم المسكين، الذي أخطا مرة برمي الجمرات إلى غير موضع الرمي، كما عبر أحد الشعراء في قصيدة ميمية عصماء، وذكره فيها بجل من لا يخطئ.
وكان الرئيس يسمع ما يقال صامتاً، ولا يجيب بشيء، وأخذ الابن بدافع الجوع الشديد يزدرد ما يقدم إليه من فضلات طعام سقر، وأوصت سيدة القصر طباخي القصر أن يقدموا للكلب أفضل الأطعمة التي تقدم عادة لكبار ضيوف الدولة، ومضاعفة كمياتها لينال أبنها حصة وافية.
وبفعل الشمس والمعاناة التي لم يعتدها كان يناجي طيلة الوقت شبحاً لا يراه احد غيره، وحين سمعت سيدة القصر من إتباعها أن أبنها اخذ يقول كلاماً غير مفهوم يشبه الهذيان، وانه على وشك أن يفقد عقله.
لبست ملابس الحزن، ولفت شعرها بمنديل أسود، وأخذت تبحث عن الرئيس!
كانت تعرف انه في هذه الساعة من النهار يتدرب على أجادة الرمي في ناديه الخاص.
كان يصوب على أجساد المعارضين لحكمة كأهداف حية، يجلبونهم من سجونهم ليطلق عليهم النار حين دخلت النادي المخيف كان الرئيس يصوب بأتجاه الهدف الأخير، الذي بقي على قيد الحياة، وقد أخفق الرئيس في تصويب الطلقة بين العينين، والمعروف عنه انه يجيد دائماً إصابة هذا

المكان من وجه الضحية.
لم يطلق بعد ذلك بأتجاه الضحية في لحظات أنتظارعصبية، شعر المسجون خلالها بفرج قريب، لكنه تابع ترديد الشهادتين بصوت متوتر ثم اخذ الرئيس ينصت لطلب زوجته، التي كانت تطلب منه الأفراج عن أبنهما.
ذكرته بأيام فقرهما، بقبولها به زوجاً بالرغم من كونه كان فاشلاً في الدراسة، وهارباً من الخدمة العسكرية، ذكرته بالأيام الجميلة التي قضياها معاً بشماتة الأعداء إذا قتل أبنه بهذه الطريقة البشعة.
وأفهمته أن أبنه قطعة منه ويشبهه خلقاً وأخلاقاً، وقالت بتهديد مبطن أنها وأبناؤهما سيضربون عن الطعام حتى يفرج عن ولدهما!
كان السجين المربوط إلى العمود يتوسل إلى الله أن تطول المناظرة العائلية، وان ينساه الرئيس في غمرة الأتهامات التي يتبادلها الزوجان.
لكنه شعر بالإحباط، وهو يرى الرئيس، وقد أستشاط غضباً على زوجته، ورفع من جديد المسدس وأزال تامين الإطلاق، وأغمض السجين عينيه منتظراً الرصاصة، التي تجيء بين العينين، ومن جديد أخذ يكرر الشهادتين.
صمتت سيدة القصر، وهي ترى زوجها يصوب نحو الضحية أغمضت عينيها حين أطلق النار، فجاءت الطلقة هذه المرة موفقة بين العينين تماماً، فدار الرأس حول نفسه نصف دورة، كأنما قبضته يد مارد غير مرئي وأدارته بعنف، وانكفأ بعدها.
فظهرت الحبال التي تشد رقبة الرجل إلى العمود، وتلطخ عمود الحديد ببقعة دم، وشعر أسود، وسائل ابيض كثيف.
وحين فتحت عينيها لم تنظر باتجاه الضحية نظرت مباشرة صوب زوجها الذي وضع مسدسه في مكانه الخاص، وأخذ يخلع قفازيه، كانت قسماته قد لانت قليلاً قال بهدوء:
ـ أرجعي إلى القصر، وستجدينه هناك، لكن اعلميه إني في المرة القادمة سأذبحه كالنعاج!
تركها وخرج، عندما أرادت النظر إلى الضحية، وجدت عمال النادي قد غطوا رأسه بكيس أحمر، وأخذوا يفكون قيوده ليحملوه على نقالة، كانت على الأرض رددت بصوت خافت:
ـ حياة مقابل حياة من أجل أن يحيى الأبن نعم لأجله!
غادرت النادي بخطوات متمهلة، وهي تمني نفسها بلقاء أبنها طليقاً..

-109-

أثناء رحلته الضاجة بالألم للألتحاق بالثائرين، وجد الناس في منطقة المحاويل يوزعون البنادق، التي حصلوا عليها من مراكز الآمن، ومقرات المخابرات، ومستودعات الميلشياالحكومية، لكل من جاء يطلب السلاح للوقوف بوجه النظام العابث بمقدرات البلاد.

لم يكن هناك معنى محدد للثورة، فهم كانوا يصرخون نحن أحرار وسنحارب أعوان الرئيس حتى الموت، والموت لكل من أذل الشعب، وفي ذلك اليوم اعتقلوا أحد كبار موظفي منطقة المحاويل..

وجدوه مختفياً في المزارع لم يمهلوه طويلاً حتى يفيق من دهشته، وخوفه عالجوه بطلقات سريعة، وسمع احدهم يروي عنه كيف كان يعامل الناس كدواب، ويقطع عنهم حصصهم التموينية بحجة معارضة النظام ويقيم في داره الواسعة حفلات الرقص الليلية، ويدعو لحفلاته فرق الكاولية، وأثناء الرقص وأرتفاع أصوات الموسيقى ينفذ أحكام الإعدام بأبناء الفلاحين الفارين من الجيش.

روّوا عنه الكثير من حكايات الظلم التي لا يصدقها عقل لأنها لا يمكن أن تحدث في القرن العشرين، وبهذا الشكل الفج الظالم.

كان الأنضمام للثائرين يتم ببساطة متناهية.. يلتحق بهم المواطن بعد أن يردد شعارات معادية للرئيس، وعلمهم الكاتب أن يقولوا مع الشعارات شعاره الأثير " تحيا الحياة".

وكان هذا يكفي ليكون بعدها المواطن احد الثائرين، وتعطى له واجبات الحراسات الليلية، وحق الأشتراك في مهاجمة نقاط الحكومة خارج منطقة المحاويل.

وقد استفادت المخابرات الحكومية بعد ذلك من بساطة شروط الأنتماء إلى الثائرين بزج رجالها ضمنهم ليقدموا معلومات كاملة عن تحركات الثائرين، وقوائم بأسمائهم، أستفادت منها أجهزة الدولة فيما بعد لتنفيذ مجزرة كبيرة بحقهم وعائلاتهم!

شعر بالفوضى في كل مكان، وكانت المشكلة الأساسية، التي تواجه الثائرين في كونهم لا يعرفون ماذا يريدون؟ وصار عنده أحساس أكيد بان الحكومة تعد خطة للبطش بالجميع عما قريب.

كان الهدف الأهم لكل من يفهم في السياسة تجميع القوة الكافية

ومسابقة الوقت للوصول إلى بغداد لإسقاط قمة السلطة فيها، لكنهم لم يفعلوا لأنهم بلا قيادة حقيقية تفكر بما يجب فعله!

أستطاع بعد جهد جهيد أن يجد مكاناً فارغاً في سيارة قديمة ذاهبة إلى مدينة النجف، كان سائقها يريد الذهاب إلى مدينته ليلتحق بعائلته، ودع المجموعة التي أشترك معها بالحراسة لمدة أربع وعشرين ساعة وتحركت السيارة من المحاويل في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، قال السائق أن السيارة ربما لن تصل إلى النجف بسبب قلة الوقود في خزانها وانه مزج مع ما توفر له من البنزين ما تجمع لديه من سائل جمعه من أسطوانات الغاز الفارغة.

وبالرغم من أن محرك السيارة كان يبعث اصواتاً غريبة إلا أن السيارة سارت على الطريق بسرعة زائدة، وغير مألوفة بالنسبة لنوعها، وموديلها القديم، وكانوا يسمعون أصوات أنفجارات قريبة من الشارع، قال السائق بصوت متوتر :

ـ الجيش يقصف مدينة الحلة، التي أستولى عليها المنتفضون لكنه لا يستطيع دخولها قبل أن تصله أمدادات أضافية من العاصمة!

وحل الصمت وتنصت الجميع لأصوات أنفجارات القنابل البعيدة طوال فترة الرحلة.

وصلوا عصراً إلى مدينة النجف كانت المظاهر المسلحة توحي بأن المدينة ستقاوم الجيش فترة طويلة، وسيدفع الجيش الكثير من الخسائر البشرية لدخول المدينة..

الكهرباء كانت مقطوعة منذ شهرين والماء ينقل من الآبار القليلة.. وجد فندقاً قريباً من ضريح الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال في نفسه أمضي ليلتي فيه.

في حقيقية الأمر كان يريد الوصول إلى البصرة، فهي مدينته وأهله هناك، ويمكن أن يفعل هناك شيئاً مفيداً للأنتفاضة، وبالرغم من مظاهر التوتر التي بدت على وجوه مسلحي المدينة، وسيطرتهم على شوارع المدينة الرئيسية، ومقرات الحكومة إلا أن حالات متفرقة من السلب، والنهب حدثت للأموال والحاجات الثمينة العائدة للمسؤولين السابقين في الدولة.

ولبعض الأغنياء الذين كانوا يستفيدون من علاقاتهم برجال الدولة، وينفذون مشاريع الحكومة، وذلك ما يحدث عادة في كل أنتفاضة غير منظمة.

حدثوه عن مكائن ثرم البشر، التي وجدوها في المقر الرئيسي للأمن العامة!

إذ كان يوضع المتهم بكامل ملابسه في وعاء حديدي، وتدور التروس ليصير بعد دقائق قليلة عجينة مدماة تخرج من الفتحة الأخرى للماكينة، وتتميز الماكينة بدقة عجيبة إذ أن المراقب يرى فيما يخرج منها بعد عملية الثرم البشري ألواناً مختلفة للعجينة البشرية.

ففيها الأحمر والأزرق، وهي ألوان الملابس، وفيها النسيج الأصفر والأسود، ويلقى جيب معدني دائم الدوران بتلك العجينة اللينة إلى النهر القريب قريباً من مزارع أسماك خاصة بمسؤولي الدولة، والحزب.

الشيء المدهش الآخر الذي وجده في المدينة هو حفاوة الناس بكل وافد جديد يريد الألتحاق برجال الأنتفاضة، وقريباً من مرقد الأمام علي عليه السلام، وضعوا العديد من القدور المسودة، وفيها طعام ساخن وخبز أبيض يوزعونه مجاناً لكل من يطلبه.

وفي ساحة عامه كانت لا تزال جثة احد الشعراء، الذين كانوا يمجدون شخص الرئيس بقصائد دارجة طويلة، وينالون عنها مبالغ مالية طائلة وجاهاً عند المسؤولين كانت الجثة متفحمة تماماً، ومربوطة إلى احد أعمدة الكهرباء.

وحدثه صاحب الفندق أن الثائرين حاكموا هذا الشاعر طويلاً وذكروه بكل ما فعل حتى أن احد المشاهدين الظرفاء علق على ذلك أن يوم القيامة قد حل أخيراً لهذا الشاعر بهذه المحاسبة الدقيقة، التي لم تهمل أي تفصيل في حياته.

وان الثائرين كانوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة فعلها الشاعر إلا وذكروه بها، وبعد أنتهاء المحاكمة طلبوا منه أن يكتب قصيدة يهجو فيها الرئيس، ونظامه ففعل وأجاد ثم طلبوا منه أن يكتب قصيدة يمدح فيها الأنتفاضة ففعل أيضاً بإجادة تامة وبعدها ألبسوه ثوباً نسائياً، وربطوه إلى عمود الكهرباء وأدخلوا رأسه بفتحة آطار سيارة قديم بللوه بالبنزين وأشعلوا فيه النار، وبقيت جثته المتفحمة مربوطة إلى العمود ليراها كل سكان المدينة، ليعرفوا مصير من ينافق النظام المقيت.

وطلب منه صاحب الفندق أن كان ينوي البقاء في المدينة، والدفاع عنها أن يذهب ليستلم بندقية، ويسجل أسمه ضمن المتطوعين..

أفهمه انه ذاهب إلى البصرة، وهناك يستطيع أن يشارك بالأنتفاضة بشكل أفضل، وسألوه عن الأوضاع في بغداد وكيف تركها؟ قال لهم:

ـ أن قوات الحكومة تفرض سيطرتها على العاصمة، وانه رأى في الطريق العديد من القطعات العسكرية تتجه صوب المحافظات، التي تحررت من قبضة الظالمين، وان محافظة الحلة تُقصف بالمدفعية الثقيلة!
فقال صاحب الفندق بعفوية:
ـ سنذيق جيش الظالمين أقسى الدروس!

-110-

بعد الواحدة ليلاً رن جرس التلفون في بيت وزير الإعلام المكلف بحل مشاكل الرئيس العائلية، كان على الخط وزير البحث العلمي تهلل وجهه فرحاً بالأخبار الطيبة، التي اخذ يسمعها عبر الهاتف عما توصلت إليه وزارة البحث العلمي من حل جذري للمكابدة التي تعيشها كافة الوزارات في البلاد، وللمرة الثالثة أعاد عليه تلاوة التفصيلات الكثيرة لمعاناة وزارة البحث العلمي لأصطياد جنية جميلة ترضي الرغبات.
وحين عدد الصفات التي كانت عليها الجنية طلب الوزير ورقاً وقلماً من زوجته الواقفة قريباً منه ليسجل عليها كل شيء كانت الميزة الرئيسية في الجنية أنها كلما أفتضت بكارتها عادت بعد لحظات من جديد باكراً!
ومن ميزاتها أن آثار الزمن لا تظهرعلى وجهها، فهي نضرة دائماً بجمال بشري خارق لا يذبل ولا يتغير..
حيية في الفراش وتكاد أن تقتل فارسها دلالاً ولذة، والصفة المهمة والميزة الحقيقية فيها أن لا يستطيع بشر غير الرئيس رؤيتها، فكما أن لأقفال الخزائن رقماً سرياً لا يعرفه غير صاحبه، كذلك للجنية التي أصطادوها، فهي لا تظهر إلا لسيدها الممهورة على أسمه، الذي يستطيع أن يطلبها في أي مكان يتمنى أن توافيه فيه بكلمة سرية يرددها!
كما أن وزارة البحث العلمي وضعت برنامجاً خاصاً لتلبية رغبات الرئيس غير المتوقعة، ولم يهمل أي أحتمال، وضمن المقاييس العلمية المعروفة أن هناك اثنين وسبعين وضعاً للجماع، لكن البرامج السحرية التي وضعتها الوزارة للجنية يشمل مئة وضع للمضاجعة مع ألف اشتقاق فرعي من أصل كل وضع!
كما أن للجنية ألف وجه، ويمكنها في أي لحظة أن تتحول إلى زنجية فائقة الجمال أو شقراء أو بيضاء أو برونزية قصيرة أو فارعة الطول، ويمكن للرئيس أن يطلق كلمة سرية لتتحول في غمضة عين إلى صبي فائق الوسامة يخدمه في شؤونه المختلفة.

وقد طبعت الوزارة دليلاً ملوناً كلفها الكثير من الأموال خارج البلاد من ألف صفحة، وبالصور الملونة التوضيحية لتعريف الرئيس بمزايا جنيته، لتعطيه أفضل المردودات.

وأضاف وزير البحث العلمي أن الجنية تنضح عطراً خاصاً، فمن يشمه لا يستطيع أن يقتنع بأي عطر بشري يمكن تصنيعه بأفضل معامل العطور في العالم.

وسأله وزير الأعلام عن نقاط الضعف في هذا الأختراع الهائل الذي سينهي عملياً كل المعاناة النفسية للرئيس، ويكلل صبره الطويل بالفرح فأخبره أيضاً وزير البحث العلمي بدبلوماسية، بإنه لا توجد نقاط ضعف، لكن هناك مشكلة صغيرة لم تتمكن الوزارة بكل ما أوتيت من خبرات السحر الصيني والهندي والبابلي القديم، وبقدرات كوادرها السحرية الهائلة أن تحلها، وهي مسالة الحبل والولادة!

ففي كل سنة تنجب هذه الجنية من الشخص الذي تعاشره إبناً، هو صورة طبق الأصل عن أبيه، ويولد كبيراً وناضجاً وبلا فترة حمل أو طفولة ..

تلده الجنيه كبيراً شبيهاً بالرئيس ويمكن أن يحل محله دون أن يشعر أحد بالتغيير، وكأنما الرئيس باق إلى الأبد!

تجهم وجه وزير الأعلام وقال في ذاته: هذه صفة قاتلة في الأختراع، حظنا سيء كالعادة وأكمل:

ـ هذه مشكلة حقيقية، يمكن هذه الحكاية أن تقتل المشروع في مهده، وأنت تعرف مدى أعتزاز الرئيس بنفسه وفرادته، وهو لا يريد أن يرى له بديلاً، مادام حياً.

وجاء الصوت من الجانب الآخر واضحاً حتى دون أن يضع الأخير على أذنه سماعة الهاتف:

ـ نحاول منذ الصباح بكل كوادرنا أجراء عمليات سحرية عليها لجعلها عاقراً!

وضع وزير الإعلام سماعة الهاتف مكانها، فهو يرفعها بلا فائدة مادام انه يسمع كلام الوزير مباشرة بلا بدالات، وأسلاك هاتف، فسمع وزير البحث ينبهه:

ـ ارفع السماعة من فضلك فإني لا أسمعك.. أنت بإمكانك أن تسمعيني من دون سماعة أما أنا فلا استطيع.

فأسرع وزير الإعلام بألتقاط سماعة الهاتف وسأله :

ـ حدثني عن صفات هذا المولود الذي ستنجبه الجنية؟
ـ انه نسخة تامة عن الرئيس، ولديه القابلية على الزواج من كل نساء الأرض في اللحظة ذاتها، لينجب بدوره أقزاماً مشوهين تنبعث منهم روائح كريهة!
ـ أمعقول هذا؟
ـ ذلك ما تؤكده مختبراتنا ومجاهر الفحص السحري!
ـ هذه كارثة .. أجل يا عزيزي لو عرفت المخابرات الأمريكية ما نصنع بالسر لوجدت أمريكا العذر للقضاء على هذا التهديد لآمن العالم، وسلامته عسكرياً، هذه كارثة حقيقية انه وسيلة ناجحة لتدمير العالم كارثة عالمية يا أخي، وأرجو اعتبار الموضوع من أسرار الدولة الخطيرة!
- استزف البشرى للرئيس لهذا الانجاز الخطير في الوقت الحاضر؟
- لا يمكن هذا وعلينا أن ندرس مشروعكم من كل جوانبه .. أن هذا الموضوع خطير وليس موضوعاً خاصاً بالتسرية عن الرئيس في محنته الحالية، لكن على آية حال اخبرني في حال توصلكم إلى نتائج إيجابية لتعقيم الجنية، وسأقدم بدوري ملخصاً عن الموضوع للرفاق قادة الحزب ومجلس القيادة على اعتبار أن الموضوع من مبتكرات الشباب الحزبيين في وزارتكم!
وانقطع الاتصال بين الاثنين..
جلس وزير الإعلام ببجامته المخططة على السرير، ووضع رأسه بين كفيه، واخذ يفكر بالمشكلة الجديدة بينما كانت زوجته تعبث بشعر رأسه، وتقرص له أذنيه بلطف بحركات توحي بالتعاطف، والإثارة همس بأذنها
ـ سأفعل المستحيل، لإنقاذ أبنتي وبنات الوزراء من الوحش!

-111-

وصل " تحيا الحياة " إلى البصرة فلم يصادف ما يشير إلى وجود الحكومة.. أعداد من كبار ممثلي النظام والقيادات الحزبية في البصرة تم أطلاق النار عليهم ولا زالت جثثهم في الدوائر الحكومية المخربة، والريح تكنس قصاصات الورق الحكومي فوق وجوههم، وأجسادهم المنتفخة بعض تلك الأجساد المنتفخة مزقت الملابس، وقطعت الأزرار.
احد المقتولين كان ذا كرش بارز فوق كرسيه، فتمدد الجسد متدلياً من الكرسي وأنحشر رأس القتيل بين مسند الكرسي، ومؤخرته واستطالت رقبته بفعل ثقل الجزء السفلي من الجثة بشكل مقزز، وبان لسانه الأزرق

مثل جاروب طفل، وانتصبت أذناه في غابة شعره الطويل المزيت.
مجموعات مسلحة من الناس تجوب الطرقات الرئيسية، وكان يسمع قصف مدفعي بعيد لضواحي المدينة ولبنايات الحكومة البيضاء وقد تعرض معظمها قبل أيام قليلة للنهب، والحرق وبعض البنايات لا يزال الدخان يتصاعد من أثاثها المحترق.
قوات الحلفاء قبل هذا الخراب دمروا البنية التحتية للمدينة، خُربت الإتصالات الهاتفية، محطات الكهرباء، إسالة الماء، الجسور ومحطات المجاري البدائية.
وأتنفاضة الشعب ضد ممثلي النظام أجهزت على ما تبقى من خدمات المدينة، كان عليه أن يسير طويلاً ليصل إلى أهله ...
أوقفوه في الطريق عدة مرات فهتف بسقوط الرئيس وبتحيا الحياة فاخلوا سبيله، وتركوه يمر، وقريباً من ساحة مركز المدينة الرئيسية أم البروم، ظهرت طائرة حكومية بعيدة، وأخذت تطلق صواريخها، وطلقات رشاشاتها الثقيلة عشوائياً على البنايات في نصف المدينة الثاني، وأرتفعت أصوات البنادق بالرمي بأتجاه الطائرة العمودية.
وعند كل مفرق طرق من طرق المدينة كان يجد جثة مرمية وسط الطريق أو فوق الأرصفة، وكانت معظم الجثث لجنود، وقلة من المدنيين بعضهم من الأطفال والنساء، ووجد في احد مفارق الطرق الفرعية جثة كلب ثقبتها العيارات النارية، وتحتها جثة جندي متعفنة، وخمن أن الكلب جاء ليأكل من جثة الجندي، فجاءته طلقات منيته، وأردته فوق جثة الجندي.
ورأى إلى الجانب الآخر من الطريق الريح، وهي تطير ثوباً مهلهلاً عن جثة مدني فبرزت عورته المنتفخة مثل بالون ملىء بالماء، والصديد والدم المتخثر حول جروحه القرمزية!
المدينة كانت شبه فارغة، وأبواب المحلات التجارية مخلوعة، وقد عاثت فيها أيدي السارقين، الغريب في الأمر أن المجموعات المسلحة ضمت بين صفوفها أطفالاً، وهم يحملون البنادق ويجيدون أستخدامها بكل مهارة!
وعرف من عابر سبيل أن المقاومة الشعبية أستقرت قيادتها في العمارات السكنية الجديدة بين منطقة الأصمعي الجديد والقديم، وتلك المنطقة يعرفها جيداً.
إذْ عاش فيها سنوات طفولته وبواكير شبابه، فشعر بفرح غامر كأنما

وجد أهله الذين يبحث عنهم في هذه المدينة المنكوبة، وفكر أن مدينته المسالمة، التي صبرت طويلاً على الظلم صارت بؤرة للثورة، لقد أثمرت أخيراً معاناة الأهل، ولم تعد المسالة قضية سيارة مسروقة أو أب ضاعت أثاره في سجون الحكومة.

لقد تعدت الثار الشخصي وصارت قضية وطن وشعب يبحث عن خلاصه من الهيمنة، والعبودية لدكتاتور مخيف شعاراته، المزيد من التخلف، لأهل البلاد والعنف والخراب، ومضاعفة أعداد المقابر الجماعية في البلاد ونشر لغة القتل والظلم في كل مكان من البلاد!

وهنا رفع رأسه متذكراً أبن عمه طارش، الذي أقسم له منذ سنوات انه لن يترك فرصة تمر دون أن ينال من قتلة أهله.. أين هو الآن؟ وفي أي مكان يجده في هذا الخراب المخيف، حيث الموت في كل زقاق، وفوق كل رصيف، وزاوية ولحظة بلحظة يتذكر أصدقاءه الذين قتلهم النظام سامي...... الكاتب المسرحي حسن..... الروائي خليل الخطاط قيس..... الشاعر وضرغام ....الصحفي.

وتساءل هل أثمرت النقاشات المتشبعة خلال العشر سنوات الماضية، حول سوء الوضع في البلاد، وضرورة التغيير؟

الحقيقية لم تمر الكلمات هدراً، ولم تكنسها الريح لقد أثمرت ثورة عارمة، لكن المشكلة الحقيقية هي من يقود هذه الثورة وهل هناك عقل لا يسيطر عليه منطق الثأر ليدير كل هذا العنف بشكل معقول؟ وهل هنا في العراق عقل كهذا ؟

العنف في هذه الأنتفاضة يذكرني بعنف الثورة الفرنسية، وبالرغم من دموية الثورة كان هناك من يقود الناس ويوجههم، لكن في هذه التجربة المرة لا توجد قيادة حقيقية، معروفة توجه العنف نحو نهايته، لئلا يكون هدفاً بحد ذاته في أنتفاضة الناس.

لقد تحول العنف إلى غاية، وهذا ما سيضيع البلد ليسقط مجدداً في يد رئيس جديد يستعمره هذه المرة إلى زمن أطول آخر!

توجه مع مجموعة من المسلحين في حوض شاحنة لصد قوة من وحدات الجيش قريباً من مدينة الزبير، ومعهم صناديق قليلة من العتاد.

عرفوا أن قطعات مهمة من قوات الحلفاء المعادية توغلت بعد حرب البلاد مع جارتيها في الصحراء حتى وصلت ضواحي مدينة الناصرية، واحتلت قاعدة جوية هناك.

وقد سمحت قوات الحلفاء المنتصرة لجيش النظام أن يستعمل الطائرات

العمودية لنقل الجرحى والبريد، لكن قادة الجيش أستغلوا هذا السماح، فاستعملوا الطائرات العمودية المجهزة بالصواريخ، والرشاشات الثقيلة، لذبح مئات المدنيين الثائرين.

المرء يشعر بالغضب من أولئك الذين يدعون الوطنية، والثورية خارج الوطن، ويتركون الشعب وحده أمام قوات الطاغية، والمدنيون لا يملكون غير البنادق الخفيفة يواجهون بها دبابات، ومروحيات ومدفعية ثقيلة، وصواريخ ارض – ارض العملاقة التي يصل طول الواحد منها 14 مترا وأولئك الثوريون خارج الوطن يتنهدون مثل العذارى المتلهفات لأخبار الحبيب!

ينتظرون ما ستؤول إليه الثورة وبالرغم من أحساس جميع المدنيين بأنهم يخوضون حرباً غير متكافئة، إلا أن تصميمهم على خوضها حتى النهاية كان هاجس الجميع، بالأمس قال له احد الثائرين ماذا تتوقع؟ كانوا يتحدثون على ضوء فانوس، وكان وقتها يزدرد قطعة خبز سوداء نظر في وجهه المحاط بالظلال وقال:

ـ سنفعل كل ما نستطيعه لمنعهم من أستعبادنا من جديدً وتحيا الحياة!

-112-

قبل أن يدخلوا مدينة الزبير وجدوا مجموعة من المدنيين المسلحين على الطريق أخبروهم أن الجيش دخل بالفعل مدينة الزبير، فشعر المقاتلون أن الفرصة ضاعت عليهم لقتال جيش النظام من داخل الأبنية، ومن شارع لشارع.

فتوزعوا بدل ذلك حول الطريق الرئيسي الذي من المتوقع أن يتقدم الجيش عليه، كانت عيونهم ترى حول شط البصرة عشرات الجثث المتفسخة.

تلك الجثث بقايا لغارات طائرات الحلفاء على الجيش المنسحب من الدولة المجاورة، التي احتلها لأكثر من ستة شهور، وانتهى الاحتلال بهزيمة مريعة.

كان عدد من الكلاب الهزيلة تأكل من تلك الجثث المتفسخة، وثمة دبابات معطوبة هنا وهناك تبدو مثل حيوانات كبيرة تتربص بالقادمين.

في المساء حصلت أولى الاشتباكات مع وحدات الجيش.. كانوا يطلقون في السماء قنابل تنوير عنقودية، وكان حاملو القاذفات من رجال

الأنتفاضة يتصيدون الدبابات، ويحرقونها ونجحوا بإحراق ثلاث واستطاعت وحدات من الجيش من أنشاء جسر حربي على بعد ثلاثة كيلومترات من المكان، الذي كان الثائرون يتواجدون عليه، أما ذلك الجسر المتحرك السابق على النهر، فقد دمرته طائرات الحلفاء أثناء الحرب.

وأخذت وحدات جيش اللقطاء تتسرب وراء المنتفضين لقطع طريق العودة عليهم، وقبل الفجر بقليل أشتد عليهم القصف المدفعي..

هاونات قنابل ثقيلة، ورأى المدنيون أندفاع الجنود عبر النهر فأطلقوا عليهم النار، كان بعضهم يختفي في طيات الأرض عبر النهر، وربما أصابوا عددا منهم قال احد المنتفضين:

ـ لننسحب.. أنهم يطوقوننا .. فلتحيا الحياة!

ـ فأعترض تحيا الحياة وقال لا تجعلوا أسمي شعاراً للهروب من المعركة!

ضحكوا ضحكات قصيرة ثم أشتد القصف عليهم، فأخذوا ينسحبون إلى الخلف سيراً على الأقدام مبتعدين قدر الإمكان عن الطريق المسفلت..

كان الفجر بلون الدم نبحت خلاله الكلاب المتوحشة نباحاً مستمراً، ودمدمت المدفعية بتراتيل متوحشة، وكانت نسمات باردة يقشعر البدن منها رغم الظروف الساخنة المحيطة بهم.

جاء في أخبار الأولين والمروية عنهم أن آخر جبابرة الكون يكون مولده في العراق من عائلة تعمل بالفلاحة، وأب عليل يقضي نحبه بعد ولادة الطفل بوقت قصير، ويصير للأبن أمر البلاد بداية شبابه.

فيقتل مئات الآلاف من أشراف البلاد ثم يخوض حربا ضروسا في الشرق، فيهلك فيها خلق كثير، وتستمر هذه الحرب عقداً من السنوات ومن علامات آخر الجبابرة المميزة، أن له سناً زائدة في الفك الأسفل، وبذلك فهو لا يشبه خلق الله العاديين.

ويتذكر تحيا الحياة حين زار الروائي الفرنسي صاحب الرواية الحديثة الآن روب غرييه بغداد في الثمانينات من القرن العشرين، رأى على جدار إحدى دوائر الدولة صورة كبيرة للرئيس، وقد فتح فمه ضاحكاً.

وقف غرييه قريباً من الصورة، وأخذ يدقق النظر فيها وحين سأله الكاتب عن سر أهتمامه بالصورة، وهي واحدة من ملايين الصور المعلقة.

اخبره أن الرئيس يملك ناباً زائداً فأدهشته الملاحظة، واخذ يعد أسنان الفكين الظاهرة في صورة الرئيس، ووجد بالفعل صدق الملاحظة، مما لا

يدع مجالاً للشك بصدق ما رواه الأولون عما سيحدث بعد مئات السنوات وقد قالوا عنه ينحرف غرباً بجيوشه الجرارة، فيغزو إمارة صغيرة ويبدد شعبها الصغير في الصحاري، والوديان ويسبي نساءهم ويقتل وجوه الناس فيها، ويبيع أطفالهم، ومتاعهم ثم يحل على أهل العراق البلابوش حاول كاتب الرواية معرفة أصول كلمة بلا بوش، واشتقاقاتها اللغوية فلم يجد لها معنى في العربية، ولا في الفارسية أو التركية.

ووجد أنها كلمة أستخدمها الناس في العراق منذ زمن بعيد دون أن يفهم احد ما تعني، واستطاع الكاتب بعد بحث وتدبير أن يخلص إلى أن الكلمة جاءت من كلمتين أدمجتا معا، وهما بلاء وبوش!

ويستخدم العامة كلمة البلابوش بمعنى المصير الأسود، ويبقى هذا البلابوش، والمعنى الأسطوري للكلمة صار واضحاً فيما بعد، فبوش هو أسم رئيس الولايات المتحدة، وما دار في عهده من حرب اجتمعت لها جيوش العالم جميعاً ضد آخر الجبابرة، وما تبع ذلك من حصار اقتصادي مازال شديد التأثير على حياة العامة، وجعل حياتهم شديدة البؤس والفاقة، وتحدثنا الروايات القديمة متحدثة برمزية عالية، عما سيحدث بعد قرون قائلة:

ـ وتضج الأرض بأصوات النفير منبئة عن زلازل ونيران كنيران المجوس إذ تغور إلى باطن الأرض البيوت بساكنيها، ويصرع مئات الألوف من الناس بساعات قليلة، ويهرب الناجون بالملايين تاركين بيوتهم، وكل ما يملكون متجهين إلى الصحراء طالبين النجاة، وتنسى المرأة شكل زوجها، والوالد يستغرب وجه ولده والأم لا تفرق وليدها عن وليد جارتها ترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

والباقي في بغداد يعتصره الخوف والقلق وتارك بغداد يعتصره الندم واليأس ولا مهرب من وجه الكارثة القبيح.

إذ أيامها يسلم المؤمنون، وجوههم للواحد الأحد مستنجدين به أن ينقذهم من هذا البلاء، وتمتلئ السماء بدخان اسود، فترة ستة شهور وتمطر قطراناً وزيتاً وسخاماً فتموت الزروع والبهائم ويعم القحط واليباس، وتظهر على أبدان الناس أعراض أمراض لم يعتدها احد من قبل فيموت الشيوخ والأطفال، ويصير ثمن الرغيف الأسود عفاف امرأة.

وعند ذاك يضج الناس بالبكاء والدعاء، وآخر الجبابرة لا يهمه ما يجري على شعبه من أهوال مكتفياً بإرضاء خاصته وحرسه، ملبياً احتياجاتهم من مخازن حبوبه المملوءة بالخيرات، وتتكرر خلال هذه

السنوات مآسي الناس، وهجراتهم صوب الشرق، والغرب، وتمر بأهل العراق سنة الصفيراء، وهذه السنة ليس أبشع من إحداثها سنة!

يخرج الناس فيها شرقاً وغرباً وبمئات الآلاف سيراً على الأقدام، ويموت نصف عددهم في الطريق القاحل، وتنتثر جثثهم في العراء تأكل الطير منها، ووحوش الصحراء.

وآخر الجبابرة يشمت بهم، لأنهم تركوا دولته قاصدين أرضاً أخرى يطلبون فيها الرزق والآمان، وفي هذا الوقت تهرب ابنتا آخر الجبابرة مع زوجيهما محملتين بالجواهر والأموال، ويطلب صهرا آخر الجبابرة العرش من عمهما، لكن الجبار يعمد إلى السحر والساحرين، الذين يستطيعون إزاغة نظر الناظرين، وتحريك الأشياء عن بعد وخداع القلوب، وأسر الأرواح، وإظهار أرواح الموتى، والحديث معهم، وتبادل الاراء وجلب الأشياء البعيدة، واستطاع سحرته بعد شهور قليلة من فرار الصهرين جذبهما إلى بغداد بالسحر.

فقتلا شر قتلة ومثل بجثتيهما، ويوم مقتل الصهرين تبدأ دودة صغيرة تفتت دم الجبار فيصاب بمرض خبيث لا براء منه، وعندها تشد المرأة التي قتل الجبار زوجها في بداية حكمه رحالها قادمة من البصرة قاصدة بغداد لتنفيذ انتقامها من الجبار.

وقد كانت من قبل تؤجل ذلك يوماً بعد آخر وشهراً بعد شهر، وسنة بعد أخرى حتى مضي من الزمن على قتل زوجها ظلماً عشرون عاماً بالتمام والكمال.

وتنشر هذه الأخبار بين الناس بعد ألف سنة في مدونة يكتبها أبن تلك المرأة، وهو من أهل البصرة فر من ظلم الجبار إلى بغداد وعندما أوشكت عيون الجبار الوصول إليه فر إلى خارج العراق، ليكتب ويعيد كتابة تلك المدونة لنشرها على امة محمد صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الأطهار، وتبلغ تفاصيل مدونة ابنها إلى أسماعها، وهي تدور في أسواق بغداد وشوارعها، وحجر أسود احتفظت به في جيبها لتنفيذ انتقامها، وتزيد تلك الأخبار من إصرارها على الانتقام.

ويعطف عليها القاصي والداني وحين لا تجد من يعطيها لقمة تسد بها رمقها تذهب إلى نفايات الأسواق وتشارك الحيوانات السائبة موارد رزقها، وهي تنظر نهاراً وجوه الناس باحثة عن طلبتها ويدها ممسكة بالحجر الأسود على أمل أن تحطم بها رأس الجبار.

وحين تحين الفرصة المناسبة ويمكنها الله منه، ويستجيب الله تعالى

لدعائها فيخرج الجبار من قصره المحصن، وفي يوم خروجه للأسواق راجلاً ويصادف يوم عيد ويقترب منها آخر الجبابرة وسط رجال حمايته وحين تعترض المرأة العجوز طريقه يعتقد الجبار أنها امرأة ألتقاها في بداية شبابه وأعطته حصاة مسحورة.

وكان يعتقد أن تلك الحصاة كانت سبباً في المنصب والجاه الذي هو فيه فيمنع رجال حمايته من منع المرأة عنه أو طردها من المكان، ويقترب منها حتى يحاذيها ولأنها كبيرة في السن، كما يبدو عليها، واقصر منه طولاً فينحني مقرباً أذنه من فمها ليسمع ما تقول، فتستمد من غضبها المكبوت طوال سنوات، وحرقة قلبها على زوجها الذي قتله ظلماً، وعائلتها التي شتتها، وقتل رجالها، قوة وتصميماً وبلمح البصر تخرج حجرها الأسود وتضرب به رأسه بكل ما أوتيت من قوة.

فينظر بوجهها بسعة عينيه من هول المفاجأة والألم حتى أنها ترى بياض عينيه يصير دماً عبيطاً ويحاول أن يستقيم واقفاً إلا انه يترنح ويسقط مضرجاً بدمه.

وتختفي العجوز في زحام السوق والفوضى التي تعقب سقوط الجبار، وتصير البلاد من شمالها إلى جنوبها في هرج ومرج ولا يصدق احد أن الجبار قد مات، وسبحان الله علام الغيوب الحي الذي لا يموت فتجري الأخبار بسرعة مجرى الماء من فوق الجبال، والكل يتوجس خيفة من أن يخرج لهم الجبار من جديد حياً لينتقم من الجميع، لما فعلته به تلك العجوز ويعيش أهل البصرة في أضطراب عظيم، ويهاجر أكبر عدد منهم إلى مدن أخرى.

وهم يتناقلون خبراً مفاده أن الجبار قد جرح ولم يمت بعد وان المعتدية عليه امرأة بصرية من سكان مدينتهم، والمؤامرة على حياته جاءت من أهل البصرة ما دامت المنفذة من مواليد هذه المدينة، كما نصت المدونة التي تناقلها الناس لسنوات عديدة.

والله تعالى وحده يعلم إن برأ من جرحه الخطير، ماذا سيصنع بهم ومدينتهم؟ فيهاجر معظم أهلها طالبين السلامة سائلين المولى العزيز حسن العاقبة، ويخفي المسؤولون عن الأمن خبر موت الجبار شهراً كاملاً عن الناس ثم يخرج احد أتباع الجبار بوجه أصهب لا يقطعه السيف الرهيف، لفرط جفافه يتلظى كالأفعى، طويل كوتد خيمة، أعجف، سليط اللسان.

وبعد أن يثني على الله تعالى، ويصلي على الرسول محمد صلى الله

عليه وآله أجمعين يعلن على الناس موت الجبار، ويتولى أمر البلاد من بعده، معلناً انه سيتبع الشريعة الإسلامية، ويكون القرآن الكريم هادياً له في حكمه للبلاد لكنه منافق مخادع!

لا ينام ليلة دون أن يقترف الكبائر يعاونه رهط من القساة الغلاظ ويستمر حكمه للبلاد أقل من سنتين، ويقتله ابن الجبار الأصغر طالباً ملك والده، ولا يدوم له الأمر سوى سبعة أيام وليلة ثم يهب عامة أهل بغداد، فيقتل بعضهم البعض بين صارخ، ومستنجد وتصير ساحات المدن الكبرى في البلاد معارض لجثث المقتولين والتمثيل بها، حتى يغدو تمزيق الجثث وتشريحها فناً من الفنون يتبارى الشيوخ والشباب في فعله.

وتصير منخفضات الأرض بركاً للدم وتعم المجاعة والأوبئة بين الناس، وتقع المجازر بين فئات الناس المختلفة لسنوات كثيرة حتى يختفي الناس فلا ترى أدمياً يسعى على قدميه في طرقات بغداد إلا بعد أن تنتظر ثلاثة أيام، مترصداً مسبحاً بحمد الله تعالى.

وتقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام وتمر القوافل ببغداد ويتساءل المسافرون عن الخرائب المتروكة وأي الأقوام سكنوها؟ أهي لعاد الأولى أم لقوم هود؟ فيقال لهم أنها كانت عاصمة كبيرة تسمى بغداد أندثرت بسبب ظلم حكامها وسوء طبع أغنيائها، وخنوع عامتها لظالميهم.

وهذا الحدث يؤرخ فيما بعد لفتنة الأعور الدجال، الذي يظهر في الشرق، ويتوجه عبر خرائب بغداد إلى مدن أخرى وذلك ما جاء في المدونة عن إخبار آخر الجبابرة، وتاريخ مقتله وبعض التنبؤات عما سيحدث للبلاد بعده.

وهناك رواية أخرى ضعيفة جداً، ولا يمكن تصديقها لضعف عوامل حدوثها، والله أعلم، تقول أن ما يحدث من ظلم في البلاد يجعل دولاً قوية بعيدة، تأتي لرفع الظلم عن أهل البلاد، بعدما عاثوا في الأرض، وقتلوا عباد الله وجعلوا من رؤوس الناس تلالاً، فتمر جيوش تلك الدول الجرارة المدججة بالحديد الثقيل عبر الكثير من الدول المجاورة، ويحتلون البلاد خلال أسبوعين.

ويعيث اللصوص في البلاد خراباً ويختلط الحابل بالنابل، ويقتل ولدي الجبار شر قتلة، ثم يقبض على الجبار، وقادته وأركان حكومته، ويحاكمون، ويعدمون وسط فرح الناس، وشماتتهم بما لقاه ظالميهم، وكل واحد فيهم يقول مع نفسه، ليت تم هذا الأمر بأيدينا! لا بأيدي الجنود الأجانب، والرواية كما أسلفنا غير معقولة، ولا يمكن تصديقها، ولكن الله

أعلم بالغيب..
ومن أين تأتي هذه الدول العظيمة لتضحي بأبنائها لتحرير بلادنا المحروسة من جبابرتها؟

-113-

(الجيش يحاصر الناس في كل محافظات البلاد، ويذبحهم بلا رحمة، ويسحل جثثهم بالشاحنات على الطرق العامة، والعالم لا يدري ماذا يجري داخل العراق)*

*مجتزا من برقية احد المراسلين إلى وكالته عن أخبار الأنتفاضة في جنوب العراق.

عرف " تحيا الحياة " من أخبار قادمة من محافظة النجف أن الجيش دخل المدينة وأباد من كان موجوداً فيها وهدم دورهم فوق رؤوسهم، وبقيت جثث الناس المنتنة بين الأنقاض، ولم يسلم ضريح الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام من التدمير والأنتهاك.
جموع من الهاربين دخلت مبنى الضريح، لتحتمي من القصف المدفعي، والصاروخي الذي أنهال على المدينة، كالمطر فوجه الجيش مأسورات دباباته، صوب أبواب الضريح الخشبية الضخمة، وأحدثوا فيها فجوات وحريقاً بقذائفهم، وكان على رأس القوة المتقدمة زوج أبنة الرئيس كان يشجع الضباط على أقتحام الضريح قائلاً:
ـ أنا أبو علي وهو أبو حسين وسترون من سيدمر من؟
وعندما أنخلعت أبواب الخشب المذهبة، واندلعت النار فيها استطاعوا أن يحصدوا الناس المحتمين بالضريح برشاشات الدوشكا التي يستخدمها عادة رجال الدفاع الجوي ضد الطائرات، ومشطت الدوشكات الضريح أولا فدمرت كل آثاره النفيسة، وامتلأ المكان بجثث النساء، والأطفال والشيوخ وأنتشرت هنا وهناك الأعضاء البشرية المبتورة، والذي حدث في مدينة النجف لا ينساه العراقيون أبداً رأس طفل في الثامنة من عمره استقر يقطر دماً عبيطاً فوق خشب المرقد قريباً من الدرة المضيئة التي تطاير جزء منها بشظية قنبلة يدوية رماها احد الضباط باتجاهها!
البصرة ما زالت تقاوم تقدم الجيش ببسالة بالأمس أوقفوا زحف الجيش المتجه صوب ساحة سعد وكان الشباب ببنادقهم القديمة، والقليل من قاذفات اربي جي، أوقفوا زحف الدبابات..

المئات من المدنيين قتلوا على امتداد الساحة، استشهدت بالأمس لميس البطلة البصرية كانت طالبة جامعية، وقد حملت السلاح مع أخوتها ضد قوات النظام، وطلقة دوشكا من عيار 13.6 ملم أصابتها في الصدر ففجرت صدرها، وحادثة أخرى لا تنسى ولن ينساها احد رآها صبي من أهل البصرة في الثالثة عشرة من عمره، صعد إلى برج إحدى الدبابات وألقى في فتحة البرج قنبلة يدوية، وقتل من فيها وأصيب الصبي بالأنفجار ومات فوق البرج مضرجاً بدمه.

ودخل الجيش بصعوبة الجانب الغربي من مدينة الحيانية، واخرج الجنود المئات من المدنيين العزل من دورهم، وأعدموهم فوراً أمام جدران منازلهم، ووارت الشفلات جثثهم في حفرة جماعية مستطيلة..

كانت جثث المقتولين في شوارع الحيانية هنا وهناك، والقصف المدفعي كان مرعباً والأشد رعباً من ذلك أنفجار صواريخ أرض – أرض التي كانت بطول عشرة أمتار، التي كانت تسقط على أطراف مدينة البصرة، وتطلق من مكان ما من خارج المدينة بمائتي كيلومتر أو أكثر، و تنهال كل مرة ثلاثة صواريخ مدمرة على أحياء سكنية فتفنيها كاملة مسببة إزهاق أرواح مئات المدنيين.

كما أن المروحيات كانت تظهر في السماء كنقاط سوداء هنا وهناك، وتطلق صواريخها ورصاص مدافعها الرشاشة، ناشرة الموت بين صفوف المدنيين، وعند سقوط أي صاروخ من صواريخ الموت تلك على المارة أو البيوت.. يتوقع الناس غازاً كيميائياً ساماً يبيد الجميع كما فعلت الحكومة في نهاية الثمانينات في حلبجة!

أثناء الليل حاول من جديد رتل للجيش التقدم على محور ساحة سعد – البصرة القديمة، لكن المنتفضين أوقفوا الزحف الآلي بتدميرهم ثلاث دبابات بقيت النار مشتعلة فيهن حتى الصباح، ووحدات من الجيش أطلقت في السماء قنابر تنوير عديدة..

كانت خطوط التموين للمنتفضين مرتبكة، فلا طعام ولاعتاد يصلان بانتظام وفي الصباح أعادت وحدات الجيش هجومها على المنتفضين، وتقدموا على ذات المحور، الذي فشلوا فيه في المساء السابق..

الإمدادات كانت تصل إلى المنتفضين بشكل سيء، واغلبها يأتي بلا تنسيق، وبشكل فردي في بعض الأحيان، وكان نجاح الجيش بالمرور في هذا الجانب من المدينة يعني تطويقاً للثوار، الذين كانوا يقاتلون مستميتين على أمتداد ساحة سعد وشارع الكراج، فأنسحبوا بعد ذلك إلى خط دفاع

ثان يقع ضمن العمارات السكنية، التي يسكنها النازحون من أهل مدينة الفاو، حيث كان بالإمكان في هذا الخط الجديد مواجهة الجيش من عمارة إلى عمارة، ومن طابق إلى طابق، وتكبيد الجيش خسائر كبيرة في الأرواح.

-114-

(أذا كُنتَ لا تعرفُ العشقَ فسلْ الليالىَ سلْ الوجهَ الشاحب ويبوسةَ الشفة)

جلال الدين الرومي

دخل على حوريته في ذلك الغروب الخريفي بعد أن اشرف من بعيد على قتل صهريه التائبين والتمثيل بجثتيهما، لم تنفعهما توبتهما، ولم يكتف بقتلهما بل قتل أباهما وأخاً ثالثاً لهما وعدداً من النساء والأطفال وجاء قصر حوريته منتشياً، ممتلئاً بعواطف متناقضة، وهواجس شتى وشكوك تدمي القلب بأقرب المقربين إليه.

فكر طيلة الوقت أن حوريته ربما تخونه الآن مع خدم القصر، أو ربما مع ضباط حماية القصر، فليس من المعقول أن تبقى هكذا دون معاشرة رجل كل هذه الفترة الطويلة، وهو يعرف أنها لا يهدأ لها بال إذا بقيت بلا رجل لليلة واحدة.

وهو منذ ثلاثة شهور بأيامها ولياليها لا يفعل معها شيئاً، ويكتفي بتمزيق ثياب نومها، ومس جسدها بلسانه الخشن، والكتابة على ظهرها بلعابه، وذرف دموع الندم على فخذيها، لأنه تركها في تلك الليالي ولم يتخذ الأحتياطات اللازمة لحمايتها.

وحين أوقف سيارته في موقف حديقة القصر أنتبه إلى حركة دائبة أمام القصر، وحوله فكر أن ثمة شيئاً غير طبيعي يحدث أنعصر قلبه هلعاً وأسرع في مشيه إلى القصر.

ففرت الخادمات من طريقه خائفات من أن يسألهن.. ماذا جرى في القصر؟ فيضطررن إلى أخباره بالمصيبة، ولأنه كان يوجس خيفة، وقد حدس بشكل غامض أن ثمة حدثاً جللاص قد وقع لحوريته المحبوبة، لكنه لم يشأ أستعجال أخبار الأحزان.

وقد امتلأت سلته بالفواجع منذ الصباح الباكر بعد قتله بيديه حفيدين من أحفاده من صهريه الخائنين، ودماء القتلى لم تجف بعد، ومازالت عالقة على جلد حذائه، حاول مسحها، فلم تختف بل تشظت على الجلد إلى قطرات صغيرة شيطانية، وانتشرت كالزيت على الماء، فتركها لتجف وحدها ويمحوها الغبار وتبخرها الشمس.

وحالما رأت الخادمات طلعته التي لها هيبة الحكم والقيادة في ممرات القصر، فهربن مختفيات في الغرف والمنعطفات ومقاصير الخدمات، وفي عيونهن أشعاع عجيب هو مزيج من الخوف والشماتة والحزن.

دخل غرفة نوم محبوبته فوجد ثلاثة من أطباء الرئاسة بصدرياتهم البيض، وكاد عند دخوله الغرفة أن يصطدم بطبيب رابع قال الرئيس لأنه خمن أن أحداً لن يخبره بالخبر الردئ خوفاً وتقية من بطشه:

ـ هل ماتت؟

أجابه أكبر الأطباء خدمة، وقد ظهرت على وجهه المتعرق، وحركاته أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لإنقاذها دون فائدة:

ـ لقد فعلنا كل ما بوسعنا كانت ميتة قبل مجيئنا بنصف ساعة، لقد غُرز دبوس مدبب في قلبها وقد أنغرز مسافة ثلاثة سنتمترات في القلب!

وتصنع كبير الأطباء الحزن، ومسح دموعه بمنديل أبيض، وأشار للأطباء الذين كانوا معه بالخروج فجمعوا أجهزتهم الطبية، كيفما أتفق والتحقوا بكبيرهم إلى خارج الغرفة ..

تطلع الرئيس إليها وهي مسجاة على الفراش، وهي بأتم زينتها، بدت له مثل طفلة نامت نوما عميقاً، وهي على وشك الأستيقاظ من النوم، وقد حلمت أحلاماً سعيدة فبدا الأنتشاء على وجهها.

كانت قبل أن تموت كأنما تعرف أن حبيبها سيلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة فتفننت في ماكياجها، أرادت أن تكون آخر صورة لها عالقة في خياله حتى آخر لحظة من عمره.

أغلق باب الغرفة وصار معها وحده، حين ذاك تبخرت أحزانه مرة واحدة وشعر انه مع محبوبته من جديد، وحدهما ولاشيء ينغص عليهما سعادتهما تخيلها تهمس من بعيد من وراء حجاب شفيف:

ـ أن تعال يا حبيبي يا معدن السخاء والوفاء ... لا صبر لي بدونك أيها الحبيب تعال..

تقدم من فراشها وجد عند أسفله باقة ورد ليلك التي يحب أن يجدها عند قدميها كلما دخل غرفتها.. سمعها تهمس مجدداً كأنما عادت للحياة :

ـ (من عهد ادم إلى إلى آخر عهود الحضارة على الأرض أريد أن تعرف أن لا عنق أنثى سلمت لحبل مشنقة كما سلمت لك عنقي)

تساقطت الدموع من عينيه سمعها تهمس من جديد:

ـ (أن شئت فصدق أو فقل ليس الآمر هكذا فأنا باقية على عهد وفاء عشقك مادام في الحياة للعشق كأس يشرب !)

مسح دموعه بكفيه واقترب منها بوجه أصفر نال منه الحزن، واخذ يتأمل قسمات وجهها الذي لم ينل من جماله الموت لكنه لاحظ على شفتها السفلى ثمة يبوسة لا تُلحظ للوهلة الأولى، فأسرع إلى درج زينتها وأخرج مرهماً معطراً، وأسرع إلى الميتة كأنما يؤدي واجباً مقدساً، واخذ يفرك الشفة بهدوء، وأتقان دون أن يزيد من كمية المرهم، وما أن أكمل هذا العمل الصعب حتى ألقى نظرة متفحصة على وجهها.

وفرح عندما رأى يبوسة الشفة قد أختفت، وحلت محلها أبتسامة لا تكاد أن ترى للوهلة الأولى، فأزداد سروره، لأنه صنع ما صنعه العارف بالجمال ...

أزاح ستارة النافذة وتطلع إلى حديقة القصر، ورأى كل شيء كما هو قال في نفسه انه سيرى حوريته مجدداً، وان ما حدث ليس إلا حلماً اسود من تلك الأحلام الكابوسية التي يراها كل ليلة تقريباً لو كان معه الآن شاعر لوصف حاله، وتلك الطفلة الجميلة التي تحولت إلى سحابة ناصعة البياض في السماء والله وحده يعلم أين ستمطر قطراتها وأي ورود ستنبت؟

ليته يعرف المكان ليقطف تلك الورود وعاد من جديد إلى جسدها المسجى، واخذ يتأمل وجهها الجميل، وابتسامتها الملائكية.

كانت مغمضة العينين مسترخية تماماً بلا حدود وليس ثمة أحلام جديدة تحرك أهدابها، همس كأنما نسي كل الأحزان والحوادث المؤلمة التي عاشا فصولها:

ـ التقينا مصادفة يا طفلتي.. نعم لم ألتق بطفلة مثلك على الإطلاق، ولم تعطني طفلة كما أعطيت، سمعها تجيب هامسة، وأنا لم التق بعاشق لأجساد الجميلات مثلك أبداً.

قال وهو يجلس على طرف السرير، ويأخذ كفها في كفه:

ـ أتريدين يا طفلتي أن أعيد لجسدك مباهجه؟

ـ أتستطيع أن تفعل ذلك حقاً؟

ـ أتفه رئيس جمهورية في شرقنا الغبي يستطيع أن يفعل الأعاجيب!

ـ مللت جفاءك لي.. لو فعلت ذلك معي وأنا ميتة فستغرق بدم قلبي النازف!

بحث في جيب بنطاله عن شئ ما أخرج بعد لحظات حصاة صغيرة سوداء لصفت تحت الضوء، ونظر إلى جثة حبيبته المسجاة على سرير النوم وتمتم:

ـ سنعيش أياماً ممتعة أخرى!

ضحكت.. نعم.. رآها تضحك وسمعها تقهقه ساخرة منه كما كانت تفعل حين كانت حية:

ـ لقد أوقفت الذي كان بيننا إلى الأبد لا اصدق، ولا أريد أن اعرف ستصدق ذلك بعد فترة قصيرة بإمكاني أن افعل شيئاً لن تستطيع.. ورآها تضحك بإغراء قال غاضباً:

ـ سأقتل كل الأطباء والعرافين ومن قتلك أيضا!

ـ أستفعل ذلك حقا؟

ـ ماذا يفعل؟ أيخسر نفسه؟ هذا عبث لا فائدة منه لكلينا!

شعر بسعادة لم يشعرها في حياته السابقة:

ـ صحيح أنني ميتة لكنني ميتة سعيدة.. سعيدة حقاً بموتي!

ـ بموتك اخترت نعم، لقد اخترت، سأطلب منهم أن يبقوك جميلة ممتلئة بإشارات الأحياء، وسألقي عليك كل صباح نظرة!

ـ هذا عبث ..ما تفعله سيكون عبثاً بجسد ميتة!

خرج من غرفة محبوبته الميتة مثل قائد أسطول غرقت سفن أسطوله في مكيدة حربية، ولا سبيل له إلا الغرق مع سفينة القيادة المصابة، فوجد الأطباء ينتظرون في الخارج طلب منهم أن يبعثوا في طلب أفضل الأطباء، والفنيين لتهيئة الميتة ليلقى عليها نظرة الوداع قبل الدفن.

خرج إلى ممر الآلام في القصر كثير الغرف، واخذ أول الآمر يذرف دموعه صامتاً، لكنه لم يستطيع المقاومة فأنفجر بعد قليل باكياً مثل طفل فقد لعبته الأثيرة... لقد قتلتك، نعم قتلتك حتى لا تكوني لأحد غيري!

-115-

قاتل أهل البصرة في العمارات السكنية المحصورة بين الأصمعي الجديد والقديم قتالاً لم تقاتل مثله حتى الجيوش النظامية....

وكل ذلك القتال الذي حصل كان بفضل الحقد واليأس الذي زرعه النظام طوال عقدين من الزمان في قلوب الناس، إذ كانوا يعرفون أنهم حالما

يقعون في قبضة حكمه مرة أخرى، فسيكون مصيرهم الإبادة بلا رحمة.

لواء آلي للجيش بأسلحته الثقيلة عجز عن أقتحام المساحة الجرداء أمام العمارات السكنية، لأكثر من أربع وعشرين ساعة، وتصاعدت الأدخنة، والحرائق في كل مكان، وقاتل المدنيون الجيش قتالاً ضارياً وسارت الدبابات على جثث الشباب، والأطفال والنساء.

وتصاعدت الأدخنة، والسنة النيران من أكثر من ست دبابات، وأوقع أهل البصرة الكثير من القتلى في صفوف الجيش، ولم يستسلم المدنيون في العمارات السكنية إلا بعد أن نفد عتادهم، وانسحب منهم من لم يقع في الآسر صوب منطقة الرواسة، وتقهقروا منها بعد ذلك صوب منطقة الجمهورية.

وكان القصف المدفعي الثقيل، كالرعد والقذائف تنهال ساقطة في كل مكان، والجثث تنتشر في الأزقة والدروب، ودخان محطات البترول المحروقة يعلو سماء البصرة، ويجعل نهارها ليلاً..

لا شيء في المدينة غير الموت والدخان الأسود وأصوات الأسلحة الخفيفة والثقيلة ودمدمة الريح وصراخ النساء، كلما سقطت قذيفة ثقيلة فوق البيوت، وترى بين الفينة والفينة في الأزقة الضيقة، والدروب الجانبية الرجال المنسحبين، وهم في غاية التعب والجوع وبعضهم جرحى، وقد ربطوا جروحهم بقطع قماش مقتطعة من ملابس قديمة ممزقة.

كانوا يريدون الوصول إلى مناطق أخرى في البصرة، ليسهل عليهم الدفاع عنها، ويتمكنون من صد الجيش لفترة أضافية.

بدأ المدنيون يشعرون باليأس ولا جدوى حقيقة من القتال، لأنهم كانوا يعرفون خسارتهم القادمة، لكنهم كانوا ينتظرون معجزة ستحدث، كأن تنشق الأرض وتبتلع الرئيس ولقطاءه وضباطه وحزبه ومخابراته، وسجونهم وآلات تعذيبهم.

معجزة إلهية أخرى يأملون أن تحدث، فتعيد الحياة المطمئنة الرغيدة إلى أهل البلاد، احد المدنيين كتب على الجدار بخط مائل لشعبان نفس مصير الدكتاتوروشعبان هذا كان احد رجال الآمن، الذين أذلوا أهل البصرة، وكان سبباً في إعدام الكثيرين من الشرفاء.

منذ ثلاثة أيام لم يذق أحد منهم طعم النوم أو أكل وجبة طعام حقيقية مدينته الجميلة، ومسقط رأسه دمرها الجيش، ومعظم رفاق الأنتفاضة قتلوا أو جرحوا أو أخذوا يهيمون على وجوههم بأتجاه الحدود الشرقية.

بندقيته فرغت من العتاد، وفكر انه ربما في الطريق سيجد عتاداً ساقطاً هنا أوهناك يلقم به بندقيته ليواصل القتال .. احد رفاقه صرخ:
ـ لقد طوقنا الأوغاد.. " تحيا الحياة "هل سمعت هذا أنهم يحيطون بنا من كل جانب!
قال وهو يبلل شفتيه بلسانه:
ـ ينبغي كتابة كل الذي نعيشه الآن ليعرف من يأتي بعدنا ما حدث فعلاً وان الذي حكمنا هو أكثر من رئيس.. جيش كامل من هؤلاء، وكل واحد منهم رئيس بنذالة كاملة، وبعد أن هدأ سأله بصوت مرتعش مستفسراً:
ـ هل قطعوا الطريق الذي يوصل إلى شط العرب؟
أجاب خائفاً :
ـ لا ادري يا أخي
قال:
ـ لنتجه أذن باتجاه شط العرب لن يصلوا بالتأكيد قبلنا!
كانوا ثلاثة رجال احدهم كان مصاباً بشظية في ساعده، وقد ربط جرحه بيشماغه وترك مكاناً للشظية السوداء لم يلفه، فظهرت سوداء بشعة وسط الدم المتخثر، إذ لم يستطع احد منهما إخراج الشظية من ساعده لئلا يتسببا بقطع ذراعيهما، لكنهما استطاعا إيقاف نزف الدم.
واخذوا يدورون في المزارع دورات طويلة للوصول إلى مدينة البصرة القديمة ليتجنبوا الاصطدام بوحدات الجيش أو ما يسمونهم بفرق الإعدام الذين ينتشرون لإبادة الإحياء من أعدائهم في كل معركة ينتصرون فيها ولا يستثنون أحداً لا المرأة ولا الرجل ولا الطفل ولا الجريح ولا المعافى، المسلح وغير المسلح.
مسح شامل لكل من يجدونه في طريقهم لا يأخذون أسرى أبداً ومن يجمع الأسرى سيأتي بعد أن تمشط فرق الإعدام كل الطرق والدروب الضيقة، وسيطلقون على كل شيء يتحرك أو يعتقدون انه يتحرك في ما يشبه عرس دموي لا حد لبشاعته ودمويته.
الانتفاضة في هذا الجانب من المدينة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وان الرئيس ينشب مخالبه السامة من جديد في شرايين هذه المدينة الباسلة وخلال مرورهم بين أشجار النخيل والعشب النامي والدغل الكثيف كانت أصوات الانفجارات في كل مكان وأصوات الأسلحة الخفيفة تمشط هنا وهناك وكان لها وقع تراتيل مبهمة تأتي من بعيد وعلى طريق انسحابهم رأوا العديد من الفلاحين قتلى بفعل شظايا القنابل العشوائية...

كانت هيئات الرجال مؤسية : الهباب الأسود فوق الوجوه والشعر الغزير على الوجوه، وأبدانهم ترتجف من البرد، والجوع والخوف من الوقوع في أيدي فرق الإعدام التي لا ترحم بملابس ممزقة أخذوا كل قطعة منها من مكان ما.

لم يكن شكلهم يوحي بأنهم من الجيش ولا من الشعب خليط من هذا وذاك، وكانوا اقرب إلى الجثث المتحركة من الأحياء وبعد أن ساروا ساعة في مخاضات السواقي تحت مظلات أشجار النخيل وصلوا الطريق الذي يقود السائر عليه إلى البصرة القديمة عبر المزارع ورأوا العديد من المدنيين غير المسلحين يسيرون على الطريق ذاته قال احد الثلاثة:

ـ يبدو أن الطريق مفتوح!

لم يجبه احد وعند نهاية الطريق فاجأتهم فرقة إعدام، وأخذت تطلق النار عليهم بغزارة، فانبطح أثنان وأخذا يقاومان الجنود بإطلاق النار أما الثالث فقد كان بلا عتاد فانكفأ عائداً إلى الساقية.

واخذ بعد ذلك يركض كالمجنون صوب الشرق، وسمع أطلاق النار يزداد كثافة ثم بعد فترة صار متقطعاً، وبقي يهرول وأثناء ذلك تعثر في الوحل، وفقد فردة حذاءه ولشدة خوفه لم يتوقف ليستعيد تلك الفردة، وبعد دقائق توقف أطلاق الرصاص، فعرف أن رفيقيه قد قتلا، فسفحت الدموع من عينيه كان عدد فرقة الإعدام كبيراً.

لم يتوقف عن الهرولة، وكان يصطدم في الطريق غير الممهد بالأشجار الشوكية وسعفات النخيل التي أسقطها القصف المدفعي، وعندما تجاوز الساقية التي تغذي المزارع بالماء ساعات المد من النهر شعر بأنفاسه تنقطع، وانه يبذل آخر جهد يستطيعه ولكنه تمتم " تحيا الحياة "

وعندما وصل إلى سدة مرتفعة سقط على وجهه، وغامت الصور أمام عينيه، وقبل أن يفقد وعيه تماماً لاح له شبح امرأة ملفوفة بالسواد قريباً منه، وبالرغم من أن الوقت كان صباحاً إلا أن الغيوم وأدخنة الحرائق والسهر المستمر، لثلاث ليال دون طعام أفقدته الوعي دقائق.

فتح عينيه وهو يشعر بيد تمتد نحوه كانت المرأة الملفوفة بالسواد ذاتها، تسحبه فأعانها على سحبه، وحاول أن يستجمع ما تبقى في بدنه من قوة كانت جروحه مختلفة، وكدمات عديدة في قدميه ويديه بفعل الأشواك، والأغصان والأحجارالتي اصطدم بها أثناء هروبه.

وبشكل مشوش رأى المرأة تقوده إلى غرفة طينية سقط جزء من سقفها، ورأى في زاوية مظلمة منها ثلاثة أطفال ينظرون إليه بعيون

خرزية، خائفة كأنما يلومون أمهم لأقتيادها هذا الرجل الغريب، إلى داخل مأواهم..

وضعته المرأة على حصيرة خوص قديمة فأغمض عينيه بعد أن شعر انه لا يقوى على فتحهما تماماً!

-116-

حين استيقظ من النوم كانت المرأة تنظر إليه وعلى ضوء فانوس أخذت تسقيه سائلاً مالحاً كان الظلام قد حل منذ وقت طويل وأصوات الأنفجارات صارت بعيدة وترترة الأسلحة الخفيفة أكثر بعداً وأقل كثافة.

وعاد للنوم ثانية كانت المرأة قد غطته بشيء ثقيل وتخيل أن تفاصيل وجهها يعرفها والوجه ليس غريباً عليه، لكنه لم يتذكر بفعل الإرهاق الشديد من هي، وفي الحلم جاءته أمه وأخبرته أنها هي التي تعني به وليس غيرها لم تكن كبيرة في السن كما هي في الواقع، وهي أيضاً ليست صغيرة.

وفي الأيام التالية تحقق الحلم إذ أخذت المرأة تعني به طيلة الأيام التي ارتفعت فيها درجة حرارته، واقترب من الموت جداً لكنه في الليلة التالية لم ترتفع درجة حرارته، واستيقظ من نومه فوجد أن الظلام مازال ساجياً لكن الهدوء كان يسود المنطقة، وثمة أنفجارات بعيدة جداً بل مجرد دمدمات ضعيفة ربما تأتي من منطقة الحدود شرق شط العرب.

حاول أن يقف وفكر أن المحافظة على الذات عند الإنسان غريزة لا يعرف أهميتها إلا من عاش مهدداً لم يستطع النهوض من مكانه وشعر بدوخة شديدة فترنح وسقط في مكانه من جديد ونام مرة أخرى كالقتيل.

عندما فتح عينيه في الصباح رآها قادمة من الغرفة الثانية مع أطفالها وهي تحمل في يدها أبريقاً يتصاعد منه البخار سألها بفم جاف:

ـ كم مضى علي وإنا نائم هنا؟

قالت المرأة :

ـ ثلاثة أيام بلياليها!

حاول أن ينهض مرعوبا قدمت له صحناً فيه فردات تمر وقطعة خبز وأخذت تصب له شاياً، وسمعها تهمس:

ـ كل شيئا أنت في أمان لا تخف الجيش ذهب بعيداً، وربما عبر شط

العرب..
كان يشعر بجوع شديد واخذ فردات تمر من الصحن وبدأ يمضغها مع الخبز ويشرب الشاي من دون أن يغسل وجهه كان أطفالها ينظرون إليه لائذين بعباءة أمهم قال لها بصوت ضعيف :
ـ شكرا لك أنقذت حياتي!
أعطته دفترا صغيرا ملوثا بالوحل، فعرف أن ذلك الدفتر سقط منه أثناء هروبه قالت المرأة:
ـ وجدته قرب الساقية ..
أخذه منها بلهفة فقد كان يتضمن اعترافات كاملة عما فعل في الأيام السابقة وإذا وقع ذلك الدفتر بأيدي أعوان النظام فسيعدمونه بلا رحمة فوراً.
أخفاه في جيب بنطاله الخلفي قال لها:
ـ أريد ماء ساخناً أريد أن استحم وأحلق لحيتي وأغادر هذا المكان علي أن أعود إلى عائلتي..
سألها بعد ذلك عن بندقيته فأشارت إلى الدار قال لها خائفاً :
ـ من أخطر الأشياء بقاء البندقية معرضة للعيون هنا!
سمعها تقول:
ـ لقد دفنتها!
ـ أحسنت صنيعا وألان سأذهب..إذا وجدوني عندكم سيقتلوننا جميعاً، هل تجيئين والأطفال معي لأخذكم إلى أقربائكم أو إلى أي مكان آخر أكثر أمنا من هذا المكان؟
ـ أني انتظر زوجي.. منذ ستة أيام خرج يشتري لنا دقيقاً من السوق لكنه لم يعد بعد!
فكر في ذاته ربما دفنت شفلات الجيش زوجها مع مئات الأبرياء غيره وهذه المسكينة لا تدري ألح عليها من جديد:
ـ تعالي معي وأطفالك وسنترك له ورقة نخبره فيها بالمكان الذي سأصطحبكم إليه وسيلحق بكم ..
خوصت المرأة بعينيها صوب الشمس وقالت وشبح ابتسامة باهتة على ثغرها :
ـ زوجي لا يقرا ولا يكتب..
ـ ما العمل أذن كيف أساعدك مع أطفالك ؟
ـ سنبقى ننتظره حتى يعود..

قالت ذلك وخنقتها العبرة على زوجها كأنما كانت تعرف هواجسه المأساوية بشان زوجها تركته ومضت لتجلب له أدوات حلاقة زوجها، وتملا الماء من الساقية لاستحمامه، ورأى بين أصابع أطفالها فردات التمر وهم يلوكون وينظرون إلى أمهم التي ذهبت إلى الساقية زرر ملابسه، وعندما عادت إليهم رآها تحمل حذاء قديماً، كان فيما يبدو يستعمله زوجها:

ـ يمكنك أن تحتذيه وأنت ذاهب لأهلك ..

كان حجم الحذاء أكبر من مقاس قدميه، ولكن لم يكن أمامه غير أن يحتذيه وعقد رباطه بقوة حتى لا يسقط من قدميه عند السير شكرها وخنقت صوته مشاعر حزن عميقة..

أتجه غرباً إلى عمق الأرض النائية، كان يعرف أن لا أمل له باتجاه الشرق فقد مضى الجيش بعيداً وقد عبروا شط العرب وانهوا المقاومة في التنومة وأقاموا مفارزهم الثابتة ودورياتهم لتلتقط أمثاله هناك.

فقرر أن يعود من حيث أتى متجهاً إلى الغرب وفكر انه ربما سيصل إلى قطعات جيش الحلفاء، التي احتلت جزءاً من أرض جنوب العراق ويطلب الحماية منها كونه احد المشاركين بالانتفاضة.

كان كل صوت يسمعه بين السواقي ومظلات أشجار النخيل يخيفه، ويجعله يحتمي بين طيات الأرض خوفاً من الاصطدام بدورية من دوريات النظام، وكان يحمد الله انه لم يصب في المواجهات مع الجيش ولو كان جريحاً لما كان له حظ النجاة من هذا البلاء.

لم ير في طريقه غير جثث المدنيين المتفسخة هنا وهناك ممزقة شر تمزيق، أما لأن الكلاب التي تنهش جثث الموتى بسبب جوعها فعلت ما فعلته بفعل غريزة الجوع التي لا ترحم، أو نتيجة القصف المدفعي الثقيل والصاروخي الذي تعرضت له المنطقة، أو تمزيقاً بحراب فرق الإعدامات الذين حولت الأنظمة والقوانين القاسية طبائعهم وجعلتهم غلاظاً قساة إلى حد التوحش.

وسفحت الدموع من عينيه وقد عثر تحت نخلة محروقة ومقطوعة من الوسط عائلة مكونة من ثلاثة أطفال وأم وأب وقد قتلوا جميعاً بلا رحمة بصليات رشاش ثقيل.

وقد بانت الثقوب في أجسادهم أكبر من المعتاد قرمزية اللون، كانت الشمس وسط السماء عمودية تماماً على رأسه عندما وصل نهايات البساتين وظهرت له حدود الصحراء واضحة المعالم قال بذاته انتظر حتى

يحل المساء للمشي مجددا في هذه الأرض المكشوفة..

ووجد طية ترابية فاختفى خلفها وسرعان ما غلبه النعاس فنام نوما قلقا مشبعا بالكوابيس ورأى في احد تلك الكوابيس أباه وقد رفع كفه صوب السماء، وقال انظر كفي لقد صفعت بها سيلبا نعم صفعته بمنتهى القسوة اسمع صوت الصفعة، وارتفعت اليد الضخمة وصفعت الهواء فسمع صوت صفير الريح يعلو ثم ينخفض وحل الظلام ..

-117-

ماذا أبقى سيلبا لإبليس؟ لم يقر بذنوبه ولم يندم عليها ولم يلم نفسه عليها لحظة ولم يعزم على التوبة.. قنط من رحمة الله.. ويحمل الأسم ذاته ولكن عند قراءته في المرآة!

- من خطبة أمام جامع – -

نكست الإعلام في دوائر الدولة لموت الحورية، وعلقت صورها في كل واجهات المحلات التجارية تحيط بصورها هالات من النور، وعرض التلفزيون فلماً خاصاً عن الفقيدة وقد ظهرت فيه وهي تزور دور حضانة وتضع الورود في الأصص.

كانت أفلاماً عائلية خاصة دبلجها المخرج لتكون فلماً يعرض من خلال التلفزيون الوطني على الشعب.

اعتقد المشاهدون في البداية أن المتوفاة هي سيدة القصر، امرأة الرئيس، لكنهم عرفوا بعد ذلك من الصور الكثيرة للسيدة المتوفاة التي عرضتها وسائل الإعلام بأنها مناضلة الحزب الأولى.

ولم يجرؤ احد على القول أنها كانت الزوجة الثانية للرئيس، احد المتملقين طبع أعداداً هائلة من صور الفقيدة وكتب تحتها عبارة فقيدة الحزب والدولة، واخذ يوزع الصور على التجار وأصحاب المحلات، ومقابل كل صورة كان يأخذ ثمناً مرتفعاً.

وضجت الأسواق بأصوات المذيعين المتملقين الحزينة وهم يقدمون بعد وصلاتهم المنافقة تسجيلات قرآنية بأصوات أشهر المقرئين من الإذاعة المحلية، والوحيدة التي بكت عليها بحرقة حقيقية لم تكن غير أمها وأبيها والرئيس.

وكان طليقها السابق قد همس منتحباً كالأطفال حالما سمع بالخبر الأليم: (دمر حياتها، الدنيء، وأخيراً قتلها جللني العار الأبدي لأنني فرطت فيها ..) واخذ يبكي بكاء متواصلاً في ذلك اليوم الأليم ، وتوقف الناس عن تهديم سقوف بيوتهم لبيع حديد تسليحها حالما سمعوا الخبر من الإذاعة، ولم تخرج النساء ككل يوم ببعض قطع الأثاث لأجل بيعها في السوق من اجل شراء الدقيق.

وارتفعت أسعار المواد الغذائية في السوق بأكثر من نصف ثمنها السابق، والباعة يشيعون أن الله وحده يعلم ماذا سيؤول إليه مصير البلاد بعد موت حورية الرئيسواستفحال الأزمة بين الرئيس وأبنه، واندفع الشحاذون إلى الشوارع ومفارق الطرق وعند أشارات المرور يسالون الناس بإلحاح عن حسنة والجو الحزين المشبع بتلاوات القران الكريم والوجوم الشامل شجع الناس على السخاء في ذلك اليوم الحزين.

ومر أمام جثمان الفقيدة ممثلو الحكومة، والجيش ،وقيادة المليشيا، والقيادات الشعبية، واتحاد النساء، والهيئات الدبلوماسية والقنصلية

كان الرئيس يجلس أمام الميتة المسجاة على فراش موشى بالذهب ويرى إلى الرجال الذين ينحنون أمام جسدها، ويرمون بأكاليل الورد عند قدميها، وقد استطاع رجال وزارة البحث العلمي أن يجعلوا الغلالة الرقيقة حول جسدها تتحرك بواسطة أرواح مجهولة، ودوامات ريح غامضة، عند مرور المعزين أمام سريرها الفخم وبواسطة مرزوق اكبر شيوخ الجن مقدرة جعلوا سرير الفقيدة يبدو للحاضرين مرتفعاً عن الأرض ثلاثة أقدام ولم يكن احد يشعر بارتفاع السرير إلا حين يدقق النظر إلى الأسفل، فتظهر الدهشة على وجهه واعتقد في بعض الأحيان معظم المشيعين أن الحياة نبضت من جديد في جسد الفقيدة حين رأوا ابتسامتها تتسع لحظة بعد أخرى أثناء ألقاء النظرة الأخيرة عليها!

وكان ذلك بسبب المرهم الذي دلك به الرئيس وجهها إذ بدأت العضلات عند الفكين تتفكك وتسترخي وتستطيل أكثر من المعتاد وذلك يحدث في جسد أي ميت آخر وبالتالي أخذت ابتسامتها تكبر وتكبر حتى لكانها ستتشهق بعد قليل بقهقهة عالية ومرت سيدة القصر من أمام جثمان غريمتها وبعد أن وضعت إكليل زهر القرنفل الذي تحمله في يدها عند أقدام المتوفاة لترضي زوجها كما أوصتها قريباتها وصديقاتها (وقد تعمدت أن تختاره ذابلا نكاية بمن كانت تشاركها زوجها) وأرادت أيضا أن تحقق فضولها بإلقاء النظرة الأخيرة على شريكتها في زوجها شامتة بهذا

الموت المبكر لغريمتها الذي لم يكن بالحسبان ولترى أيضا جمالها الذي لا يوصف وقد أذله الموت.

لم يكن الرئيس ينظر إلى صف المعزين وهم يمرون أمام جثمانها كان مستغرقاً بمناجاتها وتعلو كلماته بين الحين والآخر فيبتسم وهو يسمعها تعلق على كلامه ساخرة أو متهكمة من تقليعة شعر إحدى ناثرات الورود عند قدميها أو تستهزئ بكلمة نابية من احد السفراء وهو ينظر بوقاحة إلى جسدها الفاتن خلسة وقد وضع فوقه قماش الساتان الخفيف فبانت تقاطيعه مثيرة وقد بدت للكثيرين الذين سمعوا عن جمالها ما سمعوا أنها وهي ميتة أكثر إثارة منها وهي حية وبالرغم من العطور التي نثرت في الغرفة وأكاليل الورد إلا أن الرئيس كان يشم رائحة الفورمالين الذي يستعمل في المستشفيات ويذكره ذلك بالموت وقد أوصى الأطباء بعدم استخدام هذا السائل عند تجهيز جثة حبيبته للإلقاء النظرة الأخيرة عليها وفكرعندما شم تلك الرائحة الخفيفة أن عملهم لا يمكن أن يتم دون استعمال هذه المادة المدوخة، التي تذكره بحكاية العقاب والثواب، النار والجنة وأبدية العذاب البشري!

في الرابعة عصرا طلب الرئيس من رئيس التشريفات أن يوقف مسير المعزين ويصرف جميع أنواع الحمايات التي تحيطه لأنه يريد أن يختلي بالميتة، فطرد الذين لم يتح لهم الوقت بالدخول لإلقاء النظرة الأخيرة وأخيراً حين بقي وحده مع الميتة استطاع أن يشم بشكل لا لبس فيه رائحة الفورمالين، فتذكر الحقيقة الساطعة أن حبيبته قد ماتت، ولا سبيل لإعادة دولاب الزمن إلى الوراء، فصاح كأنما يحدث شخصاً حياً لقد مات قبل لحظات:

- لم يبق لي غير هؤلاء الأوغاد ؟

ثم أجهش باكياً وضج القصر بصرخات حيوان، ولشدة الصرخات كان الخدامون يشعرون بالجدران تهتز وقلوبهم تكاد أن تنخلع من الخوف، والرهبة مما سيجره عليهم غضب وحزن الرئيس من كوارث.

-118-

عاد إلى بيته بعد أن قطع أكثر من خمسمائة كيلو متراً ومعظم هذه المسافة الطويلة قطعها مشياً على قدميه ما أطول المسافة بين البصرة وبغداد حين تكون مشياً على الأقدام.

فقد الآمل من أن يجد أحداً من الأهل والعشيرة، وصارت كل خطوة في

شوارع البصرة اقتراباً من القبر خلال فترة الانتفاضة ومن تلك العودة المرعبة تحولت أصابع قدميه إلى فقاقيع ملآنة بالألم ..

الم الحريق والقرص الوحشي كادت تمسكه أكثر من مرة سيطرات الجيش لكن الله تعالى خلصه فكر أن الله تعالى ينقذه في كل مرة من موت محقق ربما لغرض مهم سام أن يشهد بما رأى من معاناة الناس، وقتلهم بأيدي الظالمين.

عايش لحظة بلحظة انتفاضة ذبح انتفاضة الجنوب بمنتهى القسوة رأى الجنود وهم يحفرون بالشفلات حفراً جماعية ويدفنون الناس فيها أحياء : طلاب ثانويات وأطفال حضانة وشيوخاً وبنات صغيرات ونساء وشباباً ورجالاً، وكان يتساءل مرعوباً هل يستطيع أن ينسى صور الضحايا أو يستطع أن ينسى منظر الأم التي أطلق الجنود نيرانهم على أطفالها الخمسة، وقتلوهم جميعاً؟ لان أباهم شارك في الانتفاضة..

أينسى صرخاتها ونظراتها وتوسلاتها بالضباط والجنود؟ ولولا مصادفته لأحد معارفه من الجنود، وحمله أوراق احد الجنود القتلى التي وجدها أثناء الانتفاضة لكان مصيره مثل مصير جميع من قبضوا عليهم بعد الانتفاضة، أينسى النكات السمجة التي كانوا يطلقونها على مسمع الأحياء وهم يعدمون المزيد من الناس الأبرياء.

نعم نجا منهم لكن روحه ذبحت مع الأطفال الخمسة الأبرياء الذين تشبثوا بطرف ثوب أمهم دون أن تستطيع إنقاذهم وإنقاذ نفسها، عندها أراد أن يندفع صوب ثلة الجنود، الذين بركوا لتنفيذ الإعدام، لكن ذلك الجندي من معارفه أخذه إلى وراء السياج، وما أن سمع أصوات العيارات القاتلة حتى شعر بها تخترق جسده هو لا غيره بعد ذلك جلب له الجندي الأوراق، وعليها ختم المرور، وما أن تجاوز تلك المفرزة بمسافة مائتي متر حتى جلس في مكان أمن على الطريق، وبكى بكاء لم يفعله احد قبله‼

وصرخ بملء صوته واتساع رئتيه يا ربي هذا الوطن لم يعد وطني ما أوسع حلمك على هولاء الوحوش لن أبقى في بلد يذبح فيه الأطفال كالنعاج تحيا الحياة..

أين أهلي ؟ من شردهم وقتلهم؟ إلا يعني الناس أيضا الوطن، وما قيمة وطن بلا شعب يا ألهي من يعرف أن الشعب هو الوطن، وقتل أبناء الشعب بهذا الشكل المتوحش المنظم هو وذبحه من الوريد إلى الوريد نعم أنه قتل للوطن للأبد.. تحيا الحياة!

-119-

عندما وصل إلى بيته كان بين الموت والحياة نام خمسة أيام بلياليها زوجته حاولت أن تعالج جروح قدميه، وبينها وبين نفسها خمنت انه لن يستطيع أن يستعمل قدميه ثانية وبالرغم من ألام قدميه والإحباط الشديد الذي يعانيه أكمل كتابة روايته كان الفجر الرصاصي يطل عليهم من خلال زجاج نافذة غرفة النوم العارية من الستائر، شعر بالدموع تسفح من عينيه الرواية الآن مخطوطة كما خطط لها أن تكون مئات الأوراق التي سودها ..

الحبر كلماتها وتعبر عن خيط من الشخصيات، والرموز يقترفون الفسق والجور وظلم الناس وأعداد أخرى من الناس الحقيقيين يتنفسون على الورق فكيف ينفخ في هذا العمل الحياة؟

أنشر الرواية على الناس نفخاً للحياة فيها.. أتبقى جسداً هامداً تنوشه السنوات والتقادم الزمني، وعوامل التفسخ كأي شيء حي آخر؟

هل يعيد الناس خلق العمل الأدبي بإضافة ما عاشوه من أحداث في الواقع إليها؟ انتابته مشاعر فرح وحزن..

فرح لأنه أكمل انجاز ما أراد انجازه طيلة عمره سنوات حزنه كما يسميها وحزن أهله جميعاً، لأنه لا يدري أيضاً هل وفق بكتابتها وأتم واجبه على خير وجه أم بقيت أمامه مسؤوليات جمة أخرى ليكتمل عمله أولها كيف له أن يخرج بالرواية خارج الحدود؟

والحدود محروسة بأسوار موصدة تماما على أمثاله والرقباء ينقبون أمتعة المسافرين دون خجل وينظرون الوجوه مرتابين بكل وجه يمر عليهم ولا شيء في الوطن أسهل من أن يبحث عن دليل لإدانة مواطن بالخيانة العظمى.

وما أيسر الأدلة وأكثرها ليقودوك بعدها مكبلاً ثم يعذبونك حتى الموت أو يعذبونك بطريقة رحيمة تمضي بعدها إلى الموت بشكل بطيء فيما يسمونه دور الرعاية الرحيمة سيئة الصيت.

إذ إحدى طرائق تعذيبهم ما يسمى بالقرض البطيء وذلك بوضع خنافس سوداء في زجاجات فارغة ويلصقون فوهات الزجاجات بجسد المسجون وعندما تجوع هذه الحشرات بعد يومين أو ثلاثة تبدأ بصنع المعجزات لتبقى حية فتقضم جلد السجين وبعد ذلك لحمه ولا يسمع احد الصراخ الوحشي الذي يطلقه المعذب، الذي يرى جسده يؤكل أمام نظره، ولا يستطيع أن يعمل شيئاً، لان يديه مقيدتان وقدميه كذلك، وعندما يموت بعد

أيام من العذاب يوضع جسده في كيس نايلون أسود ويلقى إلى حفرة مجهولة ليدفن مع الآلاف التي سبقته إلى ذات المصير.

فكيف يمكنه الخروج وفي نفسه كل هذه المخاوف وبرواية من مئات الصفحات فيها اعترافات كاملة وبخط يده دون أدنى لبس وكلها تقول انه معارض لنظام الرئيس كاره لأجهزته القمعية، والأصعب من هذا كله كيف يطبع روايته خارج بلده، وهو الخالي الوفاض من المال، ولا يملك حتى قوت يومه، ولا يعرف إلى أين يمضي ليقضي ليلته، وعلى من سيدور بمسوداته وعلى من يعرضها ورجال مخابرات الرئيس يطوفون في أرجاء العالم بهيئة متسكعين يقبضون رواتبهم من وكالات تابعة للنظام الحاكم وهم يبحثون عن أمثاله لإسكاتهم إلى الأبد بطلقة من كاتم أو طعنة سكين من مرتزق أو دهساً بسيارة مسرعة أو بفنجان قهوة فيه سم الليثيوم القاتل من خلال معرفة من معارفه أو حتى بواسطة نادل في مقهى يتكرر جلوسه فيه..

أهناك غير الله تعالى من يتكل عليه وسط هذه الظلمات؟ ليصل صوت الملايين المعذبة إلى التاريخ عبر رواية، وهو الفن الوحيد الذي يجيد فيه التعبير عن كل ما رأه وعاشه!

-120-

امتدت يده بلطف لأيقاظ زوجته، فتحت عينيها ببطء وخمنت السبب من إيقاظها في هذا الوقت المتأخر من الليل، فقالت والنعاس في عينيها أكملت كتابة الرواية؟

لم يجبها نظر إلى وجهها كانت الدموع تسفح من عينيه أمسكته من يده وجذبته نحوها قالت هامسة أدخرت بعض المال طوال أشهر لأشتري بها دجاجة والبارحة كان موعد الشراء تحية " لتحيا الحياة" إذ اشتريتها لأجعل منها وليمة لنا بهذه المناسبة، سأقليها بهذه المناسبة السعيدة وسننال قرصي خبز أضافيين أحتفظت بهما لهذه المناسبة.

شع الفرح في عينيه، أنها وليمة من أجل الأنتهاء من كتابة رواية لا يتذكر كم من شهر مر، وهم لم يذوقوا اللحم بكل أشكاله وأنواعه؟ نهضت من السرير، قالت هامسة:

ـ منذ أيام وأنا أخطط لهذه الوليمة ساعة واحدة، وسيكون كل شيء معداً

ـ الأوراق غير مرتبة أريد أن أرتبها!

ـ اتركها للصباح، سأقوم بترتيبها لك.

ـ إذا نمت الآن يا عزيزتي فلن استيقظ إلا بعد يومين.
ـ لا عليك سأرتب كل أوراقك ليس بالأمر الجديد علي.
قال محتاراً:
ـ لكن كيف استطيع تهريبها خارج الحدود؟
ـ سنجد طريقة ..
بقي يحدق بالأفق، من خلال زجاج النافذة، وبعد أن فرغوا من أكل الدجاجة المقلية كان نور الفجرقد تسلل بطيئاً، سألته بصوت غريب، وهي ترفع الطبق الفارغ:
ـ هل مات الدكتاتور في روايتك؟
نظر إليها، وتذكر انه قص عليها الكثير من فصول الرواية:
ـ لم يمت.. كما أنت حية الآن ..!
ـ ابقي يحكم بالرغم من مكائد زوجته؟
ـ لن تستطيع زوجته أن تفعل شيئا يزحزحه عن الكرسي أبداً!
ـ والشعب ؟
ضحك وعندما توقف عن الضحك قال ساخراً:
ـ ما زال مغلوبا على أمره كما هو الآن تقريبا!
ـ ما معنى كل هذا ؟
ـ سالت ذات السؤال في كل صفحة من صفحات الرواية ولم أجد إلا إجابة واحدة هي تحيا الحياة!
ـ إذن لن يصاب الناس الذين يقرؤونها بالإحباط ..
نهض من مكان جلوسه وتمدد على الفراش مسترخياً:
ـ المشكلة يا عزيزتي ان الدكتاتور في كل واحد منا بالرغم من كرهنا له لقد صار جزءاً من تركيبتنا النفسية، ولو أسندت أتفه مسؤولية لأفقر مواطن من شعبنا لفعل ما يفعله هذا الدكتاتور، وحسب أبعاد مسؤوليته الصغيرة!
تثاءب وهمس:
ـ غطيني لا أقوى على رفع ذراعي يبدو أن لا جدوى من كل هذا العذاب هل تعرفين لماذا أنا أسال يوميا ألف مرة.. لماذا؟ دون أن أصل إلى إجابة عن هذه اللماذا اللعينة!
أغمض عينيه، وبدا كما لو ضرب في حلبة الملاكمة بالضربة القاضية تعالى غطيطه واستيقظ بعد لحظات، وردد بصوت متعب ناعس :
تحيا الحياة!

التاريخ يحفظ المكتوب ويهمل المحكي.. المحكي يتفسخ كالأموات أما المكتوب فهو باق إلى الأبد .... تحيا الحياة ....

أنتهت المخطوطة

-121-

كان علي أن ازور جدتي قبل أن احمل مخطوطة روايتي وأغادر البلاد، ولكن كيف الوصول إليها وقد عمدت عشيرتي وأهلنا على جعل مكانها سرياً ولا يعرفه حتى أفراد عائلتها فقد تعب جدي، لشهر كامل حتى استطاع الوصول إليها عبر شبكة عجيبة من المخبرين، والمساعدين ومجموعة من العجائز اللائي لا تعرف شيئاً مما يهذرن به..

ولا تفرق بين كلامهن الصادق، وكلامهن الذي يختلط فيه الكذب بالخيال.. فقد تحولت جدتي عبر محاولتها اغتيال الدكتاتور قبل عشرين عاماً إلى رمز شعبي حقيقي للنضال، وصارت كل العشائر تحسد عشيرتنا، لان امرأة وقفت وحدها في وجه جبروت الدولة بشخص رئيسها، وقد بدا الخيال الشعبي يحمل حكايتها أكثر مما هي عليه، ويرسم لها صورة شابة باذخة الجمال تنتقم لابنها، الذي قضى نحبه في سجون الرئيس المرعبة وعندما وصلت إليها بعد لأي.

وجدتها في مخبئها النائي، تفاجأت بعجوز يقترب عمرها من الثمانين سنة من عمرها أو أكثر تسمع بصعوبة، وتكاد أن لا ترى شيئاً، لكنها تمتلك ذاكرة عجيبة، فهي تتذكر كل شيء عن حفيدها، حتى أنها أعادت علي قصصاً روتها لي قبل ثلاثين سنة.

وصوتها لم يفقد عذوبته بعد، كما أنها مازالت تحفظ سورة البقرة وهي ثلث القران الكريم تقريباً عن ظهر قلب.

كانت تعرف لماذا تجشم حفيدها كل هذه المصاعب للوصول إليها، لقد أخبرتها العجائز من قريباتها اللائي كن صديقاتها أيضا، أنني جئت لأسلم عليها لأغادر البلاد مخالفاً أفكارهم، وطرائقهم في الوقوف بوجه الحكومة معتقدات في دواخلهن أنني جبنت، وأنني افر من المعركة، التي تخوضها العشيرة من أجل ثأرها القديم، دم أبي الذي ضاع هدراً، وقبله سيارته التي سرقها الدكتاتور حين كان مجرد مساعد سائق سيارة.

والوحيدة التي فهمتني في عشيرتنا زوجتي، التي بالرغم من ثقافتها المحدودة قالت لي بما معناه" أنك مع الحياة أنك تحارب الموت بالحياة،

أما أمي فلم توافق على ما نويت عليه من عمل!
كانت جدتي تعاملني تماماً، كما لو أنني لا زلت ذلك الحفيد المشاغب قالت بتكتم شديد، وهي تلتفت يمنة ويسرة، وهي تعدل من وضع عمامتها التي تشبه أطار سيارة نصف حمل على رأسها :
ـ أن كان سبب سفرك هو الخوف من الحكومة! فلا تخف أيامهم معدودة!
ولم تنتظر إجابة مني، فأكملت، وهي تخفي خصلة بيضاء نافرة من شعرها إلى تحت العمامة السوداء، أنها وضعت خطة لا يمكن أن تفشل لإتمام ما بدأته قبل عشرين سنة في ذلك الوقت اعتبرت كلامها مجرد حلم عجوز مقهورة، وأم فقدت ابنها بفعل فاعل ولم تتمكن من أن تقتص له فبقي الألم يعذبها، ألم الإحباط والتقصير، ألم نقصان الوعي وقلة المعرفة بكيف ومتى ولماذا؟
لكنني بعد سنوات وأنا في غربتي في المنفى الذي قصدته سمعت بخبر محاولة اغتيال خطيرة لأبن الدكتاتور وكاد خلالها المنفذون بلوغ هدفهم وأصيب الابن بإصابات بالغة، واهتز يومها الرئيس، وجرح كبرياؤه، وفرحت أيما فرح عندما سمعت بالخبر، ومن دون أن يخبرني احد عرفت أن وراء ما حدث هي جدتي العجوز، أو جدة أخرى معاناتها تشبه معاناة جدتي من الحكومة وعائلة الدكتاتور!
نعم واحدة تشبه تلك الصابرة، التي قضت السنوات الكثيرة، وفي يدها مغزل الصوف تغزل غزلها، وتخطط للأخذ بثأر أبنها مهما طال الزمن حتى لو امتد إلى مئة سنة لقد رأيت وجهها المنتصر، وهي على بعد آلاف الكيلومترات عني، وشممت رائحة البخور الذي تبخر به غرفتها وعرفت أنها على حق دائماً.
فها أنا وبعد هذه السنوات كلها لم انجح في نشر ما دونته في تلك المخطوطة ليكون النشر سنداً لأولئك الذين يكافحون من أجل حياة حرة وكريمة في وطن حر، ووسط شعب أبي، ومكافح من أجل حياة أفضل لأبنائه أتذكر أن جدتي في ذلك اللقاء القصير وضعت نظارتها الطبية على عينيها، وأخذت المخطوطة الثقيلة من يدي اعرف أنها تعلمت في الملا قراءة القران الكريم، لكنها لم تعرف كيف تفك كتابات أهل المدارس، مثلما كانت تعلق دائماً على الكتب المطبوعة بالحروف الحديثة.
كانت تقلب صفحات الرواية، وتسال عن قصة أبي هل احتوتها المخطوطة؟ أجبتها بنعم، وطلبت مني أن أقرأ لها شيئاً منها، متعللة أنها لا تستطيع قراءة حروفي الصغيرة، وأنا اعرف أنها لا تستطيع لأنها لا تعرف

أن تفك الكلمات بل هي تحفظ القرآن حفظاً صورياً لا أكثر، ولا تستطيع أن تتهجى الحروف، وقرأت لها لم تقتصر قراءتي على رواية قصة ما حدث لأبي بل قرأت أيضاً ما دار على أبناء العراق في زمن الدكتاتور الظالم وكانت تتمتم قائلة أن هذا هو الكلام بالفعل أنها قصتنا وتسألني كيف حصلت على هذا الكلام الذي لا يستطيع احد أن يقوله بصوت عال؟ ثم تقول مستزيدة:

- اجل اخبرني ما يقوله أيضا هؤلاء الصامتون؟ قرأت لها.. كانت تشجعني قائلة أن ما كتبته هو بحق كلامنا!

ثم مدت يدها إلى تحت سريرها وأخرجت صندوقاً خشبياً صغيراً موشى بنقوش بديعة توقفت عن القراءة، وأخذت أتابع ما تفعل نفخت الغبار عن الصندوق الصغير، وقالت أجل أني استمع لما يقوله أحياؤك الميتون!

لم استطع أن أكمل القراءة في المخطوطة لان الدموع سفحت من عيني، لرؤيتي كم غير الزمن في جدتي، فحركاتها بطيئة، وفوديها ممصوصين وأزداد شحوبها فجعل وجهها يبدو وكأنه قناع من المطاط مسحت دموعي، رأيتها تفتح الصندوق الخشبي، وتخرج منه شيئاً اقتربت مني ووضعت في يدي صورة شمسية قديمة لرجل باهت الملامح.

وتمتمت أنها صورة أبيك عندما كان بعمرك أصطحبها معك دائماً، وبيدها الأخرى وضعت في كفي الثانية قلادة ذهبية ملأت بها كفيَّ الاثنتين وأكملت هذا ما أخفيته عن أبيك لأستبقيه لك، عندما تأتيني كنت اعرف أنك ستأتي في يوم ما حاملاً لي دفتر كلامنا هذا.. أذهب يا بني معك الله ذع على الناس: كل ما جرى علينا عسى أن تفلح فيما لم نفلح به نحن.. يا الله ما أصعب العيش في هذا العالم يا جدتي أن لم افعل ذلك.. فلتحيا الحياة!

أنتهت

المؤلف في سطور

فيصل عبدالحسن

كاتب وصحافي عراقي ولد في العراق - البصرة 1953

بدأ يكتب قصصه القصيرة وهو لا يزال طالباً في الإعدادية، وقد بدأت حياته العملية في فترة مبكرة مما أغنى كتاباته بلمحات إنسانية وواقعية مما يعيشه مواطنوه من مختلف الطبقات وفي فترة مبكرة كتب أولى قصصه القصيرة ونشرها في مجلة ألف باء العراقية في أوئل السبعينات، وكان منبر ألف باء الثقافي من المنابر الثقافية الراقية في العراق، إذْ كان ينشر فيه قصاصو العراق وكتابه المهمّون، وكانت قصص الكاتب الشاب المنشورة تحكي عن مشاهداته وما يقع له من حوادث في مدينة البصرة . .

فازت قصته "الطير" بالجائزة الأولى بمسابقة ثانويات العراق العام 1973 وكان وقتها في السنة النهائية من الدراسة الثانوية .

ونشرت قصته الفائزة العام 1973 في مجلة ألف باء وهو لا يزال طالباً في الثانوية.

شجعه ذلك على مواصلة الكتابة في القصة القصيرة والطويلة

في السنوات التالية.

أكمل دراسته الجامعية في جامعة البصرة وتخرج من كلية الهندسة في العام1978 بتفوق، وخلال سنواته دراسته في كلية الهندسة لم يتوقف عن كتابة قصصه القصيرة والطويلة، فنشر روايته القصيرة الأولى"قارب الغبش" في مجلة الطليعة الأدبية ببغداد 1977.

ونشر بعد ذلك:

المجموعات القصصية :

العروس –قصص- 1986، دار الشؤون الثقافية/ بغداد

ربيع كاذب –قصص- 1987 ، دار الشؤون الثقافية/ بغداد

جنود – قصص – 1988، دار الشؤون الثقافية / بغداد

رواية قصيرة "سنام الصحراء" 1983 نشرت في مجلة الأقلام العراقية 1983

رواية قصيرة "فردوس مغلق" 1984 نشرت في مجلة الطليعة الأدبية 1984

رواية "الليل والنهار" 1985، دار الشؤون الثقافية / بغداد – الراوية الفائزة بالجائزة التقديرية للدولة.

رواية "أقصى الجنوب" 1989، دار الشؤون الثقافية / بغداد – الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية لوزارة الثقافة والإعلام العراقية.

رواية "عراقيون أجناب" 1994 / عن دار الأحمدية للطباعة والنشر والتوزيع – الدار البيضاء

قصص " أعمامي اللصوص" 2002 / وكالة الصحافة العربية – القاهرة

رواية "سنوات كازابلانكا" سنة 2011 / طبعة إلكترونية عن دار أي كتب – لندن

رواية "تحيا الحياة" 2014 / دار مومنت – لندن

قصص "بستان العاشقين" – قصص – 2016 / دار الشؤون الثقافية – بغداد

يوميات " أوكسجين للموتى" 2016 / دار الشؤون الثقافية

ـ بغداد

ونشر قصصه القصيرة ومقالاته الثقافية في مجلات عربية كالآداب البيروتية، والموقف الأدبي السورية، والثقافة العربية الليبية، ومجلات خليجية ثقافية، كمجلة البيان الكويتية.

غادر العراق 1994 وعاش في دول عربية لفترات قصيرة، كالأردن ومصر وتونس، وعمل بعد ذلك في ليبيا كأستاذ في المعهد العالي للمهن الشاملة في جنوب ليبيا بمدينة سبها منذ 1995 ولغاية 1997 وانتقل بعدها إلى المملكة المغربية، وخلال سنوات إقامته بالمغرب نشر العديد من الأعمال الإبداعية.

· نشر الكاتب عشرات القصص ومئات المقالات والبحوث في الآداب والفنون والفكر في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

· قصصه تدرس في كلية الآداب جامعة قار يونس الليبية.

· ترجمت قصصه ومقالاته إلى الانجليزية والروسية والفرنسية .

· صارت روايته الليل والنهار المنشورة عام 1985 مبحثاً لرسالة الدكتوراه في الآداب في جامعة المستنصرية العراقية عام 1987.

· صارت روايته عراقيون أجناب الصادرة عام 1999 مبحثا لرسالة دكتوراه في الآداب جامعة المستنصرية العراقية عام 2004 .

* أكمل عدة دورات في الاعلام والصحافة ووسائل الطباعة والمنشورات . . في البصرة وبغداد 1980- 1984

* عضو اتحاد الأدباء العراقي منذ عام 1984

*عضو نقابة الصحفيين العراقيين منذ عام 1987

* عمل مراسلا ثقافيا لجريدة الزمان الدولية ولمجلة الزمان - مقرها في بريطانيا للفترة: 1997-2014

* وعمل مراسلاً ثقافياً لجريدة العرب الدولية 2015 إلى 2020 .

* عمل مراسلاً ثقافياً للعديد من الجرائد العراقية كالأهالي الأسبوعية والمنارة النصف أسبوعية ومجلة السينما، وجريدة الصباح، وجريدة العدالة، خلال الفترة: 2005-2011

* الكاتب العام لجمعية الرافدين العراقية في المغرب خلال

الفترة: 2005- 2011

*رئيس فخري للعديد من النوادي الثقافية في المغرب منها منتدى 2100 في الدار البيضاء منذ عام 1998.

* إيميل الكاتب:

faisal53hasan@gmail.com

الكاتب فيصل عبدالحسن

رواية " تحيا الحياة"، للروائي العراقي فيصل عبدالحسن من بدايتها إلى نهايتها، ينظمها حسّ زاخر بالسخرية من الواقع المر، تعبيراً عن الشعور بالعجز عن تغييره. بيد أن هذه السخرية قد لا تجعل القارئ يضحك ملء شدقيه، بقدر ما تشحذ عزيمته على تغيير تلك الأوضاع المضحكة. وبذلك يسهم الروائي في النضال من أجل غد أفضل، ولا تظل الرواية مجرد وسيلة للتسلية وتزجية أوقات الفراغ، يقول الراوي:

" أعمامي سبعة ... رأيتهم على ضوء شعلة النفط المسودة الحواف، وهم يستعدّون للذهاب لسرقة المعدان، ونهب جواميسهم وخرافهم وبقرهم ودجاجهم وذهبِ نسائهم. وهم يدعون الله مخلصين أن يوفِّقهم في غزوتهم، ويعمي عيون المعدان فلا يرونهم... ورأيتُ جدتي وسطهم بملابسها السوداء ولفافة رأسها البيضاء توقظ هذا وتجر الغطاء عن ذاك، وتشجع هذا وتنغز ذاك بكوعها. وعندما خرجوا من الدار توضأتْ وصلت، ودعت لهم الله أن يعيدهم سالمين غانمين...."(تحيا الحياة ص19)

" وعندما جاء رجال الشرطة باحثين عن أعمامي وأبي (لقيامهم بسرقة المعدان)، زغردت جدتي منبهة أهل الدار، فهرب أعمامي من أبواب وفجوات خلفية ومن خلال السطوح القريبة. واختفى أصغرهم في تنور الجيران، وأوسطهم في خم الدجاج، أو في تل التبن والقش، وبحث رجال الشرطة في الدار الفارغة من غرفة إلى غرفة ومن مجاز إلى ممر. ولم يجدوا أحداً، فأخذوا جدي بلحته البيضاء وعقاله قد سقط حول رقبته... وفي مركز الشرطة ضربه رجال الشرطة بالخيزران على قدميه الحافيتين، واشترك في ضربه مفوَّض الشرطة السمين ونائبه القصير"... (تحيا الحياة ص 25)

الناقد

د.علي القاسمي